دراسات في التاريخ والآثار

(٧)

مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين
في العراق

دراسات في التاريخ والآثار

(٧)

مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين
في العـــراق

مطبعة الامـة ــ بغداد

دراسات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق
العراق / بغداد / ص٠ب (٧٥٥٣) شارع حيفا

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص.ب : (٧٥٥٣) شارع حيفا

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ـ جمعية المؤرخين والاثاريين
ت : (٥٣٨١٣٠٤)

الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار

الاشتراك السنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٥٠) دينارا سنويا

اعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الأفراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالاتي :

أ ـ صكوك لامر الجمعية

ب ـ نقداً لامر الجمعية

في هذا العدد

كلمة العدد

يصدر العدد رقم (٧) من المجلة ليؤكد مسالة اساسية هي الاصرار على استمرار صدور المجلة لتكون متنفسا للمؤرخين والاثريين في العراق ينشرون من خلاله نتاجهم العلمي ، ومع ان سنة التطور تفرض تطورا في الشكل والمضمون غير ان القـدرة الذاتية للمجلة وللجمعية قاصرة عن احداث هذا التطور في الشكل اما في المضمون فقد حدث تطور باتجاهات الاول دخول المؤرخ العربي ناشرا لبحوثه في المجلة وهي بادرة نامل تطورها باستمرار ، والثاني السيطرة على مشاكل الطباعة في ضمان سلامة النص والثالث تنوع في اتجاهات البحث التاريخي للمؤرخين والاثريين في العراق أعطى المجلة قدرة تحقيق توازن افضل في البحوث المنشورة ، توازن في مجال الكتابة التاريخية وتوازن في تغطية البعد الزمني للتاريخ . ان هيئة التحرير تتدارس النقلة التي ستشهدها المجلة بدءا من العدد (٩) القادم وستكون بالتاكيد نقلة جوهرية لا اريد تحديد مدياتها الابداعية مسبقا وبتنبؤات محددة لكن القارىء سوف يكتشف هذه النقلة ..

يصدر هذا العدد في وقت يدخل فيه العالم في العقد الاخير من القرن العشرين وتشكل احداث هذا العقد ملامح القرن الحادي والعشرين ان لم تكن افصاحا عنه ، فعلى المستوى العالمي تسعى الشيوعية العالمية لتجاوز مأزقها التاريخي والحضاري في محاولة تعويضية لانسانها عن سنين الحرمان الديمقراطي غير ان هـذا السعي لم ينطلق من توازن بين الاشتراكية والديمقراطية انما في تفضيل واحيـانا استبدال ترى هل تستمر هـذه الحالة ام يتحقق التوازن وتبقى للعالم الاشتراكي ملامحه ام لا ! . وبنفس الاتجاه تكتشف الراسمالية انها بدون (مسمار جحا) في مجابهة الاشتراكية وهو امر مهم على مستوى الشد في الوعي الذي تحصن به مجتمعاتها مما ينبىء باحباط ترى اين سوف تظهر نتائجه . يحدث هذا وسط تطـور علمي هـائل تؤشره مسارات البحوث في الالكترونات وهندسـة الوراثة وابحاث الفضاء .

وعلى المستوى العربي يشهد الوطن العربي ظهور مجالس التعاون وتقليص مساحة وحجم التشرذم والتجزئة في وقت يشكل النصر العراقي في الحرب العراقية ـ الايرانية وانتفاضة عرب الارض المحتلة مستوى الثقة باليقين الذي تتزود به الامة العربية معزز بنصر آخر هو دخول العراق عالم الفضاء الخارجي من حيث انتهى الامرون · ان منظومة العابد نقلة ثقة سوف تعزز نتائجها الحقيقية في هذا العقد والقرن القادم بما حجزت للامة العربية من مكانة فيهما ·

ان المؤرخ والاثري في العراق وهو يرصد هذه الملامح يدرك اخطارا تهدد مستقبل الحضارة في مقدمتها مرض الايدز ويتمنى ان يتوصل العالم الى علاج لهذا المازق البشري وعسى ان يدرك الذين يستغلون الشعوب سعيا وراء مصالحهم فقط ان حقوق الانسان ليست تلك البنود المسطرة في وثيقة حقوق الانسان حسب انما ايضا حق الضمان ضد عبث الاستغلال الاقتصادي والصحي والثقافي ··

رئيس التحرير

★ ★ ★

المسلمون في الصين
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

د. نوري عبدالحميد خليل
كلية التربية – جامعة بغداد

١ – ملاحظات أولية :

اذا استثنيا دراسة الشيخ محمد بيرم التونسي (١٨٤٠ – ١٨٨٩) في كتابه « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار » ، وكتاب أتربي ابو العز باشا « نبذة عن الصين » المطبوع في القاهرة سنة ١٩٠٠(١) والمقالات التي كتبها الامير شكيب ارسلان بعنوان « مسلمو الصين » في مجلة المقتطف سنة ١٩٠١ والتي اعيد نشرها في كتاب « حاضر العالم الاسلامي » لمؤلفه لوثروب ستودارد الامريكي ، فان حالة المسلمين في الصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تحظ باهتمام كبير من لدن الباحثين العرب .

ولهؤلاء الباحثين عذرهم في ذلك ، فالمتصدي لمثل هذا الموضوع يواجه صعوبات جمة يأتي في مقدمتها ندرة المعلومات والمصادر ، فعلى الرغم من توفر مئات المجلدات من السجلات الرسمية التي تناولت انتفاضات المسلمين وثوراتهم في تلك الفترة والاحداث التي رافقتها(٢) ، فأن السلطات الصينية تفرض حظرا عليها ، والباحثون الصينيون يتجنبون الكتابة عن الموضوع لانهم لا يريدون كشف المجازر الرهيبة التي نفذتها حكومة المانشو بحق المسلمين . وفي الوقت الذي يقدم فيه هؤلاء معلومات

مفصلة عن انتفاضات وثورات الصينيين ضد تلك المعركة ، فأن المعلومات التي يقدمونها عن ثورات المسلمين لا تكاد تذكر(٣) علما بان تلك الثورات قد حدثت جميعها في وقت واحد ، وأسبابها العامة واحدة وان اختلفت أساليبها ٠

المعلومات غير الرسمية التي تسربت عن ثورات المسلمين لا زالت محل أخذ ورد بسبب تعدد الاراء حول طبيعة تلك الثورات واهدافها وحتى أسماء قادتها وعدد ضحاياها ٠ هذه المعلومات تستند اساسا على المذكرات والتقارير والدراسات التي سربتها الارساليات التبشيرية والرحالة والبعثات الغربية العاملة في الصين في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، مثل « تقارير بعثة اولون Ollone الفرنسية (باريس ١٩١١) التي ارسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية بين ١٩٠٦ ـ ١٩٠٩ ، وكتاب « المحمدية في الصين » لتيرسان D. Thiersant (باريس ١٨٧٨) الذي عمل قنصلا عاما لفرنسا في الصين عدة سنوات ، وكتاب مسلمو يونان (باريس ١٩٣٢) لكورديه G. Cordier عضو اكاديمية علوم المستعمرات الفرنسية الذي أقام في جنوب الصين عدة سنوات(٤) ٠ وغيرهم كثيرون ٠

هذه الكتب والدراسات تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ففي المناطق التي تعرض فيها المسلمون والمسيحيون للمضايقة من قبل الوثنيين الصينيين ، مما حتم قيام نوع من التعاطف والتعاون بينهما ، فان تقارير المبشرين العاملين في تلك المناطق تعطي المسلمين كل الحق في الثورة على السلطات المنشورية ، وتثني على سلوكهم واخلاصهم ٠ في حين نجد تقارير المبشرين والبعثات في المناطق التي تسودها غالبية اسلامية تنحي باللائمة

على سلوك المسلمين وتقلل من شأنهم وتصف تحركاتهم ضد المانشو بانها « حركات تمرد » ومحاولات « لتأسيس دولة داخل الدولة » مبعثها « الحقد والتعصب الاعمى » وان قياداتها استغلت سذاجة الجماهير وجهلها لنشر الافكار « الطائفية » والفتن « المذهبية »(٥) في الصين ٠

والحق ان هذه الاراء تفرض على الباحث تساؤلات كثيرة عليه ان يجد لها اجوبة من خلال النصوص القليلة المتوفرة ٠٠ فهل كان المسلمون حقا يسعون للانفصال عن الصين واقامة دولة اسلامية ؟ واذا لم يكن التمسك بالاسلام هو الباعث لتلك الثورات فما هي أسبابها الحقيقية اذاً ٠ ؟ ما طبيعتها وأهدافها ؟ كيف كانت علاقتها بالدول الكبرى ـ روسيا القيصرية ، بريطانيا ، الدولة العثمانية ؟ مثلا ٠

في الصفحات التالية سنحاول ايجاد اجوبة لهذه التساؤلات وتقديم دراسة أولية عن الموضوع ، ربما ستكون موضوعا لدراسة اكاديمية أشمل وأكثر عمقا في المستقبل ٠

اضافة لما اوردته الكتب والدراسات المذكورة في أعلاه اعتمد هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع يأتي في مقدمتها كتاب "Islam in China" المطبوع في شنغهاي سنة ١٩١٠ لمؤلفه المبشر البريطاني Marshall Broomhall الذي قضى عدة سنوات في الصين منذ أواخر القرن الماضي واتصل بعدد من الصينيين واستجوب مئتين منهم ٠ وكذلك اطلع على كتب وتقارير من سبقه من الاوربيين ، خاصة تيرسان واعتمد على شهود عيان منهم الكاتب الفرنسي Emilie Rocher الذي كان يعمل في دائرة الكمارك البحرية الصينية اثناء الثورة في يونان وزار المنطقة واتصل بقائد الثورة والمسؤلين المحليين الصينيين ووضع كتابا بعنوان « ولاية يونان الصينية » طبع في باريس سنة ١٨٧٩ ٠ وفيما

يخص الثورة في التركستان والشمال الغربي من الصين فقد اعتمد بروموهال على كتاب Boclger Demetrius وهو بعنوان The Iife of Yakoob Beg المطبوع في لندن سنة ١٨٧٨ وكذلك

على ما كتبه رئيس البعثة الانكليزية الى كاشغر سنة ١٨٧٣ السر Doglas Forsyth بعنوان Report and General Description of Kashgar المطبوع في لندن

سنة ١٨٧٥ وغيرها من البحوث والدراسات المنشورة في المجلات والصحف البريطانية المعاصرة التي ابدت اهتماما بثورات المسلمين وتابعت احداثها ·

ومن الكتب التي افادت هذا البحث كتاب « تأريخ المسلمين في الصين » مؤلفه بدرالدين حي الصيني ، الذي غادر الصين لاجل الدراسة في دلهي بالهند (١٩٢٧ – ١٩٣٣) ثم الى القاهرة (١٩٣٤ – ١٩٥٥) وعمل ضمن الوفد الصيني في هيئة الامم المتحدة في نيويورك (١٩٣٥ – ١٩٥٥) ثم مستشارا للسفارة الصينية في جدة · وتأتي أهمية كتابه من اعتماده على عدد من المصادر الصينية اضافة الى تقارير المبشرين والبعثات الغربية وعلى كتب بروموهال وروشر وكذلك كتاب "Tsi Tsungtang" المطبوع في شنغهاي سنة ١٩٣٧ الذي كتبه الانكليزي W. L. Bales عن حياة وحملات القائد الصيني تسوتسانغ تانغ الذي قضى على ثورات المسلمين في الشمال الغربي وفي تركستان الصينية كذلك اعتمد على كتاب بولغير « حياة يعقوب بك » ·

ومن الكتب التي افادت بحثنا هذا كتاب « تأريخ الصين في الازمنة الحديثة » الذي كتبه Tikhvinski عضو اكاديمية العلوم السوفيتية ·

وقد اعتمد تيخانفسكي فيما كتبه عن ثورات المسلمين في الصين على مذكرات الطبيب والعالم الطبيعي الروسي Plassetski الذي اقام في

الشمال الغربي من الصين عام ١٨٧٥ وكانت مذكراته بعنوان « رحلة الى الصين ١٨٧٤ — ١٨٧٥ » طبعت في موسكو سنة ١٨٨٢ وكذلك على ما دونه Skatchkov أحد القناصل الروس في أثناء الثورة في تركستان وكذلك على الوثائق الرسمية الروسية وقد استفدت من الطبعة الفرنسية من كتاب تيخانفسكي وهي بعنوان :
"Histoire de La Chine les temps modernes (Moscea 1983)

وقدمت البحوث القيمة التي كتبها استاذ السوربون Jean Chesncaux وزميلتيه Marie-Claira Bergers". "Marianne Bastid' والتي نشرت في كتاب China From The Opium wars to The 1911" Revolution مادة مهمة . والكتاب نشر أصلا باللغة الفرنسية ثم ترجمته الى الانكليزية Anne Destenay وطبع في نيويورك عام ١٩٧٦ وتشكل المصادر والمراجع الصينية المترجمة الى الفرنسية مادة أساسية للكتاب اضافة الى تقارير المبشرين والصحف الفرنسية .

ووجدت في دائرة المعارف الاسلامية مادة مهمة عن الموضوع وكذلك دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي ، وكتاب حاضر العالم الاسلامي ، وكتاب صفوة الاعتبار لمحمد بيرم التونسي ، اضافة الى البحوث القيمة التي نشرها المبشرون في مجلة The Moslem world بين ١٩١١ — ١٩٤٠ عن أحوال المسلمين في الصين .

٢ — الحالة السياسية في الصين ١٨٥٠ — ١٩٠٠

كانت تحكم الصين في ذلك الوقت اسرة غريبة عن الصين تلك هي اسرة الشيينغ (الطاهرة) المنشورية الاصل ، التي تمكن قائدها نورهاتشي منذ أواخر القرن السادس عشر من توحيد أحلاف القبائل التترية الساكنة في جنوب منشوريا المتحاربة فيما بينها وأقام دولة على غرار الامبراطورية

الصينية ، متخذا من موكدن أكبر مدن منشوريا عاصمة له . بدأت هذه الدولة بدعم من بعض امراء المغول في مهاجمة مدن الصين الشمالية واحدة بعد الاخرى ، وأخيرا هاجمت العاصمة بكين واحتلتها عام ١٦٤٤ وتربعت على عرش الصين حتى عام ١٩١١ .

كان المانشو غرباء عن أهل البلاد وقد حاولوا في بداية حكمهم فرض عاداتهم وتقاليدهم على المجتمع الصيني بالقوة ونهجوا نهجا استبداديا مع القوميات الاخرى ، لكنهم جوبهوا بحضارة أكثر عراقة وتقدما ، ونظرا لكونهم أقلية فسرعان ما أخذوا يندمجون بالمجتمع الصيني ويتقبلون نظمه وعاداته وتقاليده . وفي أوج قوتهم تمكنوا من بسط سيطرة الصين وسيادتها على منغوليا وكوريا وتركستان وانام والتيبت والهند الصينية(٦) اضافة الى منشوريا وجزيرة تايوان (فرموزا) وعدد من الجزر الاخرى في بحر الصين والقريبة من اليابان .

وكانت الصين منذ عهد اسرة المينغ السابقة (١٣٦٨ — ١٦٤٣) وهي اسرة صينية ، قد فرضت على نفسها سياسة العزلة واغلاق أبوابها بوجه الاجانب في محاولة منها لمجابهة التحدي الاوربي الذي ازداد خطره منذ بداية القرن السادس عشر . وفي الوقت الذي أخذ فيه حكم الشينغ يتداعى وعجزت الاسرة عن حماية البلاد من الغزو الخارجي ، كانت الدول الاوربية قد تمكنت من بناء نهضتها واستكمال تطورها الاقتصادي وبناء ترساناتها . فأخذت تشدد هجماتها على الصين من أجل السيطرة عليها وفتح أسواقها للتجارة . وبعد حروب طويلة اجبرت كل من بريطانيا وفرنسا بدعم من روسيا القيصرية والولايات المتحدة ، الحكومة الصينية على توقيع معاهدات مذلة في السنوات ١٨٤٢ ، ١٨٥٨ ، ١٨٦٠ اجبرتها على فتح موانئها للتجارة الخارجية ودفع غرامة حربية باهظة والتنازل عن

الكثير من الاراضي التابعة لها وعن بعض جوانب سيداتها للاجانب ·

وفي الاقاليم الخارجية للصين ، بدأت السلطة تنحسر تدريجيا لتقع تحت سيطرة الدول الكبرى · فبريطانيا احتلت بورما القريبة من الهند في الستينات وبدأت تتغلغل عبر هذه المنطقة الى الاقاليم الجنوبية والوسطى من الصين · وبعد ان ثبتت فرنسا أقدامها في آنام وكمبوديا والهند الصينية (١٨٦٢ – ١٨٦٣) اتخذت من هذه المناطق منطلقا للنفاذ الى داخل الصين · ومن الشمال كانت روسيا القيصرية تحاول ان تؤسس لها منطقة نفوذ في التركستان ومنشوريا والوصول الى المحيط الهادي · وفي الشرق كانت اليابان ، مدعومة من قبل الولايات المتحدة الامريكية ، تشدد من ضغطها على كوريا ومنشوريا وفرموزا (١٨٦٩ – ١٨٧١) وهي من توابع الصين ، في محاولة لاقامة امبراطوريتها · وهكذا بدأت الصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتحول الى دولة شبه مستعمرة ، ولولا المنافسات الدولية لكادت ان تلاقي مصير الهند(٧) ، وأخذت رؤوس الاموال والاستثمارات والبضائع الاجنبية تتدفق على الصين ·

وعجزت حكومة التشينغ عن مجابهة التحدي والارتفاع الى مستوى الاحداث فقد بلغت من الضعف والانحلال الذروة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مما كان ينبىء بقرب زوال حكم الاسرة · وانتشرت المكائد والمؤامرات بين الحلقات المتنفذة داخل البلاط من كبار الموظفين والخصيان والخطايا · وفي خضم تلك الصراعات تم تنصيب أطفال صغار على العرش ·

ونتيجة لعجز الامبراطور شيانغ فنغ (١٨٥١ – ١٨٦١) عن مواجهة الغزو الاجنبي ، عمت الثورات والانتفاضات أنحاء البلاد حتى كادت احدى

هذه الثورات التي قادتها جمعية « عبـاد الله » ، وهي جمعية سرية ذات صبغة دينيـة مسيحية ان تطيح بـه وتسيطر على بكين خاصـة بعد ان استطاعت هذه الجمعية ان تؤسس مملكة تايبينغ (مملكة السلام السماوية ١٨٥٠ ـ ١٨٦٤) في الاقاليم الوسطى والجنوبية من الصين واتخذت من مدينة نانكنغ (عاصمة سماوية) لها • وامتدت شمالا حتى بكين حيث تمت محاصرتها •

وفي الاقاليم الشمالية انهوي ، هنان ، كيانغسو قامت ثورة أخرى قادتها جمعية نيـان فاي « حامل الشعلة » بين ١٨٥٣ ـ ١٨٦٨ وامتدت الى أنحاء أخـرى من الصين(٨) وفي الهوامش الغربية للصين قامت ثلاث ثورات للمسـلمين بين ١٨٥٥ ـ ١٨٧٧ والتي سيتناولها هـذا البحث • والواقع انه لم يكن يخلو اقليم من أقاليم الصين الثمانية عشر من ثورة في ذلك الوقت •

وفي اوج تلك الثورات توفي الامبراطور فخلفـه ابنـه تونغ تشـي (١٨٦١ ـ ١٨٧٥) ولم يكن عمره يتجـاوز الخمس سنوات ، فأصبحت السلطة بيد امه محظية الامبراطور السابق والتي عرفت باسم الامبراطورة الوصية أو الامبراطورة الوالدة تسي شي التي ظلت تحكم الصين حتى وفاتها عام ١٩٠٨ •

حكمت هذه المرأة الصين حكما رجعيا متعسفا وفرضت سيطرتهـا على قادة الجيش والوزراء وكبار الموظفين ، ووقفت بوجه كل محـاولة للاصلاح أو الانتفاع من الفكر الغربي والعلوم الحديثة • وبعد وفاة ولدها الصغير عام ١٨٧٥ نصبت غلاما آخر عمره أربع سنوات باسم الامبراطور كوانغ تشوي الذي لم يمارس الحكم اذ ما لبثت ان سـجنته عـام ١٨٩٨،

بسبب ميوله للاصلاح ورغبته في ادخال الافكار والاساليب الغربية الى البلاد وظل سجينا حتى قتلته قبل يومين من وفاتها(٩) في ١٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ .

٣ ـ المسلمون في الصين :

أية محاولة لاعطاء رقم تقريبي عن عدد المسلمين في الصين في ذلك الوقت تتحول الى نوع من العبث امام انعدام الاحصاءات الرسمية وتجاهل المصادر الصينية للموضوع . والارقام التي سجلها المبشرون في نهاية القرن التاسع عشر لا يمكن اعتمادها اذ ان المسلمين اعطوا أرقاما أقل من الواقع حذرا من اثارة شبهات حكومة المانشو ولفت أنظارها ، خاصة بعد ان ابيدت أعداد كثيرة منهم في اثناء الثورات ، والشيء نفسه يقال عن الارقام التي اوردتها المصادر والمراجع الاجنبية والاسلامية وعلى سبيل المثال نذكر ان الارقام التي اوردتها تلك المصادر والمراجع تتراوح بين ثلاثة ملايين وثمانين مليون(١٠) وهو شيء لا يبعث على الاطمئنان . والشيء الوحيد الذي يمكن الاستشهاد به هنا هو رقم ٤٨ مليون في منتصف القرن الحالي حسبما ورد في كتاب الصين السنوي الذي نشرته الحكومة الصينية عام ١٩٤٨(١١) وهو رقم يبدو أكثر قبولا .

واذا تركنا هذه المسألة جانبا فان مشكلة أخرى تواجه الباحث الا وهي الطريق والزمان الذي وصل فيه الاسلام الصين ، والمتفق عليه هو ان العرب كانوا على اتصال بالصين قبل البعثة النبوية بزمن طويل . والروايات الموثوقة عن تأريخ الصين القديم تشير الى ان القوافل التجارية كانت تتنقل بين الصين وغربي آسيا ، وهو ما تؤكده المصادر الرومانية أيضا ، اذ كان التجار الرومان يحصلون على ضروريات البلاط من

المصنوعات الصينية من حرير وملابس وتحف نادرة من أسواق الشام وارمينيا ونصيبين • كانت هذه البضائع تصل برا عبر اواسط آسيا على طريق الحرير العظيم أو بحرا عبر الخليج العربي والعراق ، أو البحر الاحمر ومصر(١٢) • وعلى سبيل المثال تذكر السجلات الصينية القديمة انه كان للعرب في الصين اماكن استيطان ومراكز محاسبة في كانتون سنة ٣٠٠م توسعت خلال القرن الرابع ، وان التجارة العربية مع الصين تطورت خلال القرنين السادس والسابع تطورا(١٣) ملحوظا •

ومما لاشك فيه فان هذه العلاقات قد توطدت بعد ظهور الاسلام ، وعلى الرغم من صعوبة التحقق من الادعاء بان الاسلام قد بدأ بالانتشار في الصين في عهد الرسول (ص) • لكن المؤكد هو انه بدأ بالانتشار في عهد اسرة تانغ الذي استمر ثلاثة قرون (٦١٨ ـ ٩٠٦) ، وهي فترة تغطي عصور الدولة العربية الاسلامية في عهد الرسول الكريم والراشدين والامويين والعباسيين في فترتهم الاولى والثانية ، حين أخذ المسلمون يتوافدون على الصين بحرا عن طريق الهند وبمحاذاة ساحل الصين حتى كانتون في الجنوب ومنها توغلوا داخل الصين ، أو برا بطريق آسيا الوسطى وتركستان (١٤) • ثم الاجزاء القريبة من الصين •

الواقع ان الاسلام لم ينتشر بشكل واسع الا بعد حملات القائد العربي قتيبة ابن مسلم الباهلي في بلاد ما وراء النهر والتي وصل فيها حدود الصين الغربية • وحسب بعض المصادر فانه تمكن من فتح كاشغر (شوفو الحالية) احدى مدن تركستان الصينية ومفتاح طريق الحرير الرابط بين الصين وغرب آسيا • وفي السنوات التالية ساعد المسلمون المتواجدون في اواسط آسيا الامبراطور الصيني في اخماد بعض الحركات

المقاومة بين ٧٥٤ ـ ٧٥٧ فسمح لهم الامبراطور بالاستقرار(١٥) في شمال غربي الصين خاصة في سيان العاصمة السابقة للامبراطورية واختلط هؤلاء بالصينيين ونشروا الاسلام بينهم ٠

هذا الانتشار حتم وجود أجناس من المسلمين في الصين ٠ فسكان المناطق الشمالية الغربية الاصليين من الاتراك والمغول الذين اعتنقوا الاسلام خاصة في اقليمي قانصو وشينسي يقال لهم التونكان اي العائدين أو المتحولين الى الدين الحق وهو الاسلام ٠ وصار هذا الاسم يطلق فيما بعد على مسلمي تركستان الصينية أيضا ٠ أما المسلمون الذين ينتسبون لاصول عربية ممن توغلوا في الصين مع الجيوش الاسلامية أو ممن استقروا في الصين الداخلية وفي الشرق فيطلق عليهم الصينيون اسم « الهوي هوي »(١٦) وهو اسم يذهب الباحثون في تفسيره مذاهب(*) شتى ٠

واذا كان المسلمون التونكان يتركزون في الاقاليم الشمالية الغربية ، فان المسلمين الهوي ينتشرون في معظم أنحاء الصين ، بما في ذلك مدن الساحل الشرقي وحوض نهر اليانكتسي ٠ وفي فترة حكم المغول ازداد الاسلام انتشارا بعد ان اسس هؤلاء اسرة « يوان » التي حكمت الصين بين (١٢٨٠ ـ ١٣٦٨) وابدت تسامحا تجاه الاديان فهاجرت أعداد كبيرة من العرب والاتراك المسلمين واستقروا في الصين حتى صاروا طائفة

(*) يرى البعض ان اسم الهوي مشتق من قومية مسلمي الغرب الذين ينتسبون لاصول تركية (اويغور) وكانت تلفظ قبلا هويغور ، فالمقطع الاول منه صار يطلق على المسلمين وهو شيء تشك فيه دائرة المعارف الاسلامية ٠ انظر فهمي هويدي ، الاسلام في الصين ، (الكويت ١٩٧١) ص٢٣٧ دائرة المعارف الاسلامية ٧/١٥ ٠

كبيرة تتمتع بمنزلة اجتماعية رفيعة وتقلد بعضهم مناصب في الادارة بما في ذلك الوزارة ، واعترف الامبراطور الصيني سنة ١٣٣٥ بان الاسلام هو « دين الحق الخالص » • وتم تأسيس عدد من المساجد • ويؤكد ذلك كل من ماركو بولو الايطالي وابن بطوطة المغربي اللذان زارا الصين في ذلك الوقت وأشارا الى تواجد المسلمين في المدن الساحلية وفي الاجزاء الجنوبية الغربية • والى ان المسلمين هناك كانوا يمارسون أنشطة مختلفة منها التجارة(١٧) والطب والهندسة والفلك وصنع السلاح •

وفي عهد اسرة المينغ التالية (١٣٦٨ – ١٦٤٣) تعرضت الصين للغزو الاوربي فاضطرت للانطواء وفرض عزلة سياسية على نفسها في محاولة لمجابهة ذلك الخطر مما أدى الى انقطاع اتصال المسلمين في الصين بأخوانهم في الغرب • ولما كانت عقائدهم وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية لا تمت الى المجتمع الصيني بصلة حتى صارت تلك العقائد والعادات موضع النقد والسخرية من قبل الكتاب الوثنيين في الصين فقد اضطر المسلمون الى تكييف انفسهم مع المجتمع الصيني والاندماج فيه وتكييف مظاهرهم وعاداتهم مع الحياة الصينية • فتطبعوا بعادات أهل البلاد وتكلموا لغتهم ولبسوا ملابسهم وتسموا بأسمائهم وتزوجوا منهم حتى صار من الصعوبة تميزهم عن بقية أهل الصين الا من خلال تمسكهم بعقائدهم(١٨) وكان هدفهم من ذلك هو ان لا يلفتوا الانظار اليهم وان لا يظهروا دينهم بمظهر المعارض لديانة الصين •

واذا كانت هذه الاقلية الكبيرة تسعى للمحافظة على هويتها الاسلامية وسط هذا المحيط الذي تنتشر فيه تيارات فكرية متعددة غريبة عن الاسلام • فلابد ان يتعرض المسلمون للملاحقة والاضطهاد من عهد اسرة

الشينغ المنشورية التي بدأ حكمها عام ١٦٤٤ ، والتي اتصفت بسوء معاملتها للعناصر غير المنشورية بمن فيهم الصينيين انفسهم ، وباضطهادها وتعصبها فكان هذا العصر بحق هو عصر المصائب والكوارث على المسلمين هلك خلاله الملايين منهم ، وهو الشيء الذي تؤكده معظم المصادر بما في ذلك المصادر الصينية(١٩) نفسها ٠

من وجهة نظر المانشو كانت الاوضاع في المناطق التي تسودها غالبية اسلامية بعيدة عما يرغبون به ، اذ انهم اعتبروا الدين مسألة سياسية محضة ٠ طبقا لذلك كان على كل مواطن ان يودي الكتاو اي السجود للامبراطور ثلاث مرات وهي عادة صينية(*) قديمة ، فاذا خضع المواطن لذلك فله الحق في اختيار أي دين يشاء ٠ وتنفيذا لذلك فرض القانون وضع صورة للامبراطور في كل مسجد ليجبر المسلمون على السجود أمامها ٠ لكن هؤلاء الذين اظهروا استعدادهم لمسايرة السلطة ونظامها الديني السائد من أجل ان يأمنوا على حياتهم وممتلكاتهم كانوا يتهربون من تلك العبادة بشتى السبل وصار تشدد المانشو في تطبيق التشريعات الصينية في مناطقهم شيء لا يحتمل ٠

وكان على الموظفين المسلمين ان يتبعوا العادات الصينية في الاعياد والمناسبات واداء الشعائر الخاصة على الطريقة الكونفوشيوسية(٢٠) وفي معابدها ٠ هذا اضافة الى الخلافات بين ما تفرضه القوانين والعادات الصينية وبين ما يوجبه الاسلام على معتنقيه فيما يتعلق بعبادة الاسلاف (الارواح) وهي الديانة السائدة في الصين ، وكذلك وضع اقدام الفتيات

(*) ظلت هذه العادات مطبقة حتى عام ١٩١١ حين الغتها الحكومة الجمهورية ٠

دون العاشرة في قوالب لتبقى صغيرة رشيقة والتي كان المسلمون يجبرون على تطبيقها وكـذلك المراسيم المتعلقـة بالزواج ودفن الموتى وأكل لحـم الخنزير وشرب الخمر(٢١) وغيرها ٠

لذا كان وصول المانشو الى الحكم من وجهة نظر المسلمين لا يبشر بالخير ، خاصة بعد ان تضاعف عددهم وصاروا يرغبون في تطبيق أوامر الشريعة بشكل علني ، فبعد اربع سنوات من وصول المانشو الى الحكم انتفض المسلمون في ولاية قانصو سنة ١٦٤٨ ضد ظلم الاسرة واضطهادها مطالبين بالحرية الدينية ٠ كانت هذه هي المرة الاولى التي يشهر فيهـا المسلمون السلاح بوجه السلطة ٠ وتمكنت حكومة المانشو من نهاية الامر من سحق تلك الانتفاضة التي هلك خلالها أكثر من خمسة آف مسلم ٠

هـذه الانتفاضة ساهمت في تعميق الازمـة واثارت شكوك السلطة الجديدة حول نوايا المسلمين ومحاولتهم اقامة دولة داخل الدولة الصينية، فأخذ الموظفون وبعض رجال الدين المتعصبين من غير المسلمين يحرضون الامبراطور ضدهم وينبهونه الى ان ديانة المسلمين تختلف عن ديانة أهل البـلاد وكـذلك لغتهم ولباسهم ويتهمونهم بالغطرسة والميول الثورية ، ويحثون الامبراطور على اتخـاذ تدابير صارمة بحقهم بما في ذلك اغلاق مساجدهم ٠

لم تثبت التحقيقات التي اجراها الامبراطور يونغ شينغ (١٧٢٣ ـ ١٧٣٦) صحـة تلك الاتهامات ، فأصدر مرسوما سنة ١٧٣١ حـدد فيـه سياسة الحكومة تجاه المسلمين نافيا عنهم تلك التهم ، مشيدا باخلاصهم وكفائتهم ودورهم في الحياة الدينية والمدنية والسياسية مشيراً الى ارتقاء عدد منهم أعلى المناصب المدنية والعسكرية داعيا لاطلاق الحرية الدينيـة

لهم لان دينهم « يهدف الى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة ويحترم النظم الاساسية للحكومة »(٢٢) حسبما ورد في المرسوم ٠

ان صدور هذا المرسوم لم يحل دون استمرار سياسة الملاحقة والاضطهاد فبعد صدوره بثلاثين عاما ثار مسلمو كاشغر في تركستان الشرقية وساعد اثنان من بكوات الاتراك المسلمين الامبراطور كين لونغ (١٧٣٧ – ١٧٩٦) في القضاء على الثورة فتعاطف معهم حتى قيل ان الامبراطور نفسه قد مال لاعتناق الاسلام ، لكن تدخل الوزراء قد حال دون ذلك فأكتفى باظهار عطفه عليهم ، واقامة علاقات شخصية معهم وسمح لهم ببناء مسجد في بلاطه سنة ١٧٦٣(٢٣) ٠ وبعد ذلك انتفض المسلمون في زونغاريا مطالبين بالحرية الدينية لكن الانتفاضة فشلت ونقل اليها الامبراطور سنة ١٧٧٠ عشرة آلاف من العسكريين لاقرار الامن هناك(٢٤) وقيل ان معظمهم دخلوا الاسلام ٠

ولئن ظلت اعداد المسلمين في الصين تتزايد بشكل بطيء طيلة القرن الثامن عشر فانها شهدت تزايدا ملحوظا منذ نهاية القرن بسبب توالي المحن والكوارث الطبيعية والسياسية ونشط المسلمون لالتقاط آلاف الاطفال ممن فقدوا عوائلهم أو ممن اضطر اباؤهم للتخلي عنهم أو بيعهم وهو شيء مألوف لدى الاسر الصينية الفقيرة في مثل تلك الظروف ٠ فكان المسلمون يحسنون تربيتهم ويدخلونهم الى حظيرة الاسلام ٠ هذا اضافة الى ميل المسلمين الى الزواج بالصينيات وادخالهن في الاسلام ٠

هذا الانتشار كان يثير حسد بعض الموظفين ومعتنقي الديانات الاخرى فتشددوا في ملاحقة المسلمين وتحريض الامبراطور ضدهم وصاروا يبعثون اليه التقارير يذكرون فيها احداثا ملفقة مع نماذج من الكتب

التي كانوا يعثرون عليهـا بحوزتهم والتي كانت تتضمن في الغالب نسخا من القرآن الكريم بالعربية(٢٥) وشروح وتفاسير بالصينية ٠

واذا اضفنا لكل هذه العوامل عامل التذمر العام الذي ساد أوساط الشعب الصيني بسبب عجز الحكومة عن مواجهة الغزو الاجنبي وتردي الاوضاع الاقتصادية وتدهور الصناعات التقليدية امام تدفق المصنوعات الالية ورؤوس الاموال الاجنبية مما ساعد على انتشار الجمعيات السرية والحركات الثورية في طـول البـلاد وعرضها ٠ فان انتفاضات وثورات المسلمين لم تكن تقل وطنية عـن ثورات الصينيين ، بل كانت تمثل في حقيقتهـا ثورة الاقليات ضـد التفرقة العنصرية وسياسة الاضطهاد التي مارستها حكومة المانشو وتعسف جهازها البيروقراطي وانتشار الفســاد والرشوة واثقال كاهل الفلاحين بالضرائب لدفع غرامات الحرب للاجانب٠ وكانت الضرائب المفروضة على المناطق التي تسكنها أكثرية اسلامية تفوق في قيمتها الضرائب التي يدفعها الصينيون اضـافة الى الاسعار الباهضة التي يستوفيها التجار عن المواد الضرورية كالشاي والملح (الذي يجبر كل فرد على شراء كمية منه في كل شهر) والاسعار البخسة التي يدفعونها مقابل المنتوجات المحلية كالجلود والصوف(٢٦) وهي أهم البضائع المنتجة في الشمال الغربي من الصين ٠

كانت هـذه هي حالة المسـلمين قبـل الثورات وعلاقتهم بســلطة المانشو ، اما على الصعيد الاجتماعي فقد تميزت علاقتهم بالصينيين بالود والتعاون والاحترام المتبادل فلقد حاولوا جهد الامكان الاندماج بالصينيين وعدم الظهور بمظهر المتميز عنهم ٠ لم تبد منهم أية محاولة للانفصال أو تأسيس دولة خاصة بهم ولم يكن التعصب الديني معروفا بينهم بشهادة الكثير من الغربيين بمن فيهم المبشرون انفسهم ٠ فالغالبية العظمى منهم

كانت غير مطلعة على قواعد الدين بشكل مباشر • والذين يستطيعون فهم العربية لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة منهم والكتب الدينية قليلة(٢٧) • ويشهد الجميع بجدهم ونشاطهم الاجتماعي المتميز وتوفرهم على طاقات قوية وانغمارهم في ممارسة الاعمال النافعة فلقد كانت تستهويهم الحياة العسكرية فانخرط الكثير منهم في الجيش وبرز منهم قادة عسكريون ومقاتلون شجعان • كما برز منهم موظفون اداريون اكفاء ، وفرسان ماهرون اولعوا بتربية الخيول ومربوا قطعان ماشية يعتنون بها أشد العناية وامتلك العديد منهم ثروات طائلة ومنهم رحالة جريئون وتجار حاذقون يتاجرون مع مدن الصين الداخلية ومع الاقطار المجاورة خاصة مع تركستان الروسية ومنغوليا وسيبريا والتبت يتاجرون بالمواشي والخيول والجلود والصوف والفرو والاحجار الكريمة والجواهر والشاي والرز والفحم • وفي القرى والارياف يعملون في الفلاحة • وفي داخل المدن الكبيرة يتولون ادارة الخانات والمطاعم ويتاجرون باللحوم(٢٨) واشتهروا بين أوساط الصينيين والاجانب بنظافتهم وصدقهم وامانتهم في المعاملات•

ان سوء معاملة حكومة المانشو دفعهم الى الثورة ، وخلال الاعوام ١٧٥٨ ـ ١٨٧٨ قاموا بعدة ثورات نذكر منها(٢٩) :ـ

١ ـ ثورة فانصو ١٧٥٨ •

٢ ـ ثورة المسلمين السلار (اتراك) من فانصو وشينسي بقيادة مامنغ هسين (محمد امين) ١٧٨١ ـ ١٧٨٥ •

٣ ـ ثورة تركستان بقيادة جهانكير ١٨٢٥ ـ ١٨٢٧ •

٤ ـ ثورة يونان ١٨٥٥ ـ ١٨٧٣ •

٥ ـ ثورة شينسي وفانصو ١٨٦٢ ـ ١٨٧٥ •

٦ ـ ثورة يعقوب بك في تركستان ١٨٦٤ ـ ١٨٧٨ ٠

٧ ـ ثورة فانصو ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ ٠

المصادر تؤكد ان هذه الانتفاضات والثورات قد قمعت بقسوة بالغة حتى قيل ان ثورة يونان وحدها ازهقت أرواح مليون شخص ٠ وقيل أيضا ان عـدد سكان ولاية فانصو انخفض من خمسة عشر مليون الى مليـون واحد فقط ٠ وان الثورة في تركستان وحدها كلفت عشرة ملايين نفس(٣٠) وان مساحات واسعة من البلاد قـد اقفرت واضطر الكثير من المسلمين الى الهجرة الى القرى والارياف بعـد ان منعتهم الحكومة من السكنى داخـل المدن ٠ ومع صعوبة التحقق من مدى صحة هـذه الارقام فأنها تظهر قبل كل شيء مدى القسوة التي مارسها المانشو وحملات الابادة التي تعرض لها المسلمون ٠ وسنتناول فيما يلي هذه الثورات بالتفصيل ٠

آ ـ ثورة يونان ١٨٥٥ ـ ١٨٧٣ :ـ

يقع هـذا الاقليم في الركن الجنوبي الغـربي من الصين بين التبت واقليم سيشوان في الشمال ودولة بورما من الغرب ولاؤوس وفيتنام من الجنوب وهي منطقة جبلية تتوفر على عـدد من البحيرات والانهـار التي تتغذى من ذوبان الثلوج ومن الامطار ٠ وعلى معادن مختلفة مثل الحديد والنحاس والقصدير والفضة ومركز الاقليم هو مدينة يونان (كونمينغ في الوقت الحاضر) ٠

تسكن الاقليم قبائل تنتمي لقوميات متعددة يشكل المسلمون نسبة عاليـة منهـم ويعـرفون من قبـل الاجانب باسـم بانطي Panthay ومن الصعوبة التأكد من عددهم اذ انهم يخفون عددهم الحقيقي خوفا من السـلطة والمصادر غير الرسمية تقدرهم بين مليون وأربعـة ملايين(٣١)

ينتمي معظمهم لاصول عربية وتركية ومغولية ، جاءوا اليها من شينسي وفانصو واستقروا فيها منذ عهد اسرة يوان المغولية حينما اخضع فيلاي خان المنطقة وعين عليها (١٢٧٣ ـ ١٢٧٩) حاكما مسلما من بخارى هـو عمر شمس الدين الملقب « السيد الاجل » الذي قام بانشاء عدد من المدارس والمعاهد الدينية ٠ بينما يرى البعض الاخر ان الاسلام قد وصل قبـل هذا التأريخ بزمن طويل وان عدد من الملاحين العرب الذي وصلوا كانتون قد تغلغلوا في الغرب واستقروا في يونان وتزوجوا فيها ونشروا الاسلام(٣٢) هنـاك ٠

ظهـرت الاضطرابات لاول مرة في هـذا الاقليم عـام ١٨١٨ مسببتها خصومات نشبت بين عائلتين كبيرتين في مدينة يونغ تشانغ عقب تخريب مسجد فيها ولم ينصف المسؤولون في معالجة الامر مما اثار غضب المسلمين وجمعوا قواهم فتمكنوا من دحر القوات الامبراطورية وحاصروا العاصمة يونان ٠ غير ان التعزيزات العسكرية التي ارسلتها الحكومة تمكنت من التغلب على المسلمين وقطعت اعنـاق زعمائهم واستتب الامـر في السنة التالية(٣٤) ولكن بشكل موقت ٠

وفي الفترة ما بين ١٨٢٦ و١٨٢٨ وقعت اضطرابات أخرى وتجددت بشكل اوسع بين ١٨٣٤ ـ ١٨٤٠ ، حين اقدم بعض المسؤولين على قتل ١٦٠٠ من المسلمين من الرجال والنساء والاطفال في مدينة مينغ تينغ ٠ ورد المسلمون على ذلك بالمثل وثم رفع الامر الى العاصمة بكين فأصدر الامبراطور مرسوما يدعو فيه الطرفين المتنازعين الى التسامح جاء فيـه « المسلمون والصينيون يذبحون بعضهم البعض والمسلمون أبنائي ٠ مثل بقية الصينيين »(٣٥) ونتيجة لتدخل الامبراطور فقد عاد السلام لفترة

قصيرة ، لكنه كان سلاما مشوباً بالترقب والحذر اذ سرعان ما تفجرت الثورة عام ١٨٥٥ لتستمر سبعة عشر عاما اي الى عام ١٨٧٣ ٠

كانت هذه الثورة اعظم ثورات المسلمين في الاقليم والمعلومات المتوفرة كنها كثيرة بفضل ما دونه الكاتب الفرنسي روشر الذي كان حاضرا في الاقليم وقت الثورة وزار قائدها كما اتصل بكبار المسؤولين المحليين وكذلك بفضل ما دونه تيرسان وغيره ممن زاروا المنطقة ٠ يذكر هؤلاء ان الثورة وقعت بعد صدام دام بين العمال المسلمين وغير المسلمين العاملين في مناجم الفضة والرصاص في منطقة شيه يانغ شانغ ٠ فالثروة هناك جلبت اليها أكثر من الفي عامل ٠ وعلى الرغم من قلة عدد العمال المسلمين فانهم كانوا أكثر نجاحا ، فتعرضوا للهجوم من قبل الاخرين الذين أرادوا الاستئثار بالفضة ومع انهم تمكنوا في بداية الامر من الدفاع عن انفسهم لكنهم اضطروا في الاخير الى اللجوء الى الغابات المجاورة بعد ان جوبهوا بقوة الخصوم الذي قتلوا العديد ممن وقع بأيديهم ٠

وحتى ذلك الوقت كان بامكان السلطات المحلية تسوية النزاع بين الطرفين لكنها بدلا من ذلك تدخلت لصالح العمال غير المسلمين واقامت في ١٩ ايار ١٨٥٦ مجزرة رهيبة بحق المسلمين ذهب ضحيتها أكثر من ٣٠٠ عائلة دفعة اولى في مدينة تينغ تشو واحرقت بيوتهم ومساجدهم بعد قتلهم ٠ وكانت السلطات المحلية منقسمة على نفسها ، فوالي الاقليم كان يفضل تسوية النزاع بين العمال المسلمين وغيرهم بالطرق السلمية وذلك بمنح المسلمين امتيازات خاصة في اعمال التعدين ٠ لكن هوانغ تشونغ نائب أركان الحرب السابق كان يضمر كراهية شديدة للمسلمين تغلب عليه ونفذ المجزرة مما دفع بالوالي وأمين الخزانة والقاضي الى الانتحار

احتجاجا على تلك المجــزرة البشــعة واستولى هوانغ تشونغ واعوانه على الحكم في الاقليم(٣٦) لمتابعة تنفيذ الخطة ٠

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد فلقد تم ذبح سبعمائة عائلة مسلمة أخرى في العاصمة يونان اضافة الى عدد كبير من الطلبة المسلمين الذين حضروا من أنحاء الاقليم لاداء الامتحان على مستوى الولاية بهدف الحصول على الوظائف العامة ٠ وسرعان ما انتشـر الرعب في أوساط المسلمين في بقية المدن في الاقليم بعد ان تسربت اليهـم اخبـار تلك المجازر والاوامر السرية التي ارسلتها السلطات الجديدة الى حكام المدن في الاقليم لتنفيذ المجزرة بحقهم فثاروا ثورة رجل واحد(٣٧) وعمت الثورة الاقليم بأجمعه ٠

قاد الثورة الشيخ ماته سينغ « محمد ته سينغ »(*) امام مسـجد تالي في غربي الاقليم ٠ كان فقيها ملماً باللغة العربية وحج الى مكة المكرمة سنة ١٨٣٩ وزار الاسكندرية والاستانة ومراكز اسلامية أخرى ٠ وبعد ان اطلع على أحوال المسلمين في الغرب عاد الى بلاده عن طريق سنغافورة سنة ١٨٤٦ وانجز عدة أعمال في الفلك والجغرافية ونشر باللغة العربية مختصرا عن رحلات الحج التي قام بها مسلمو الصين الى مكة والذي ترجم الى اللغــة الصينية ٠ وبعد قيام الثورة اختاره المسلمون زعيما وقائدا عاما لها بسبب مكانته الرفيعة ٠ ولما كان كبير السن فقد اختار احد ابناء اخوته وهو ماهسيان الذي اشتهر فيما بعد باسم محمد رولنغ مساعدا له في حركاته العسكرية ٠

(*) الى جانب الاسماء الصيدية الرسمية اعتاد المسلمون في الصين ان يتخذوا لانفسهم أسماء عربية لكنهم كانوا يكتفون بذكر المقطع الاول من الاسم العــربي فـ « ما » بدلا من محمد أو محمود او مسعود و « ما » بدلا من حســن أو حســين و « باي » بدلا من بدرالدين وهكذا ٠

كان ماهسيان ضابطا متخرجا في المدرسة العسكرية ، قتل اخوه الذي كان يعمل في المناجم أثناء مجزرة سنة ١٨٥٦ هذه المزايا جعلت منه قائدا مرموقا بين المسلمين فقد امتاز بكفائته العسكرية ونشاطه الواسع متخذاً من مدينة كوان آي وهي مدينة ذات أهمية استراتيجية تقع جنوبي عاصمة الاقليم مقراً له ومركزا للعمليات العسكرية ضد السلطة الحكومية .

وفي الغرب انضم اليهم زعيم ثالث وهو تو وين شوي الذي تلقب فيما بعد باسم السلطان سليمان ، وهو رجل مرموق تمكن من الاستيلاء على مدينة تالي الحصينة والتي تتمتع بموقع استراتيجي ايضا بحكم قربها من بورما والتبت فاستقر فيها وصار الموجه والزعيم السياسي(٣٨) للثورة .

نشط تو وين شوي في تجنيد المسلمين والسكان المحليين الساخطين على حكم المانشو ورغبة منه في الحصول على مجندين مسلمين من التيبت فقد أصدر بيانا في لاسة عاصمة التبت نفسها تضمن آيات من الذكر الحكيم ودعا فيه لاسقاط حكومة المانشو وانشاء دولة للمسلمين المؤمنين في يونان « المخلصين اخلاص أبي بكر والجريئين جرئة علي » (رض)(٣٩) .

ويبدو من هذا البيان ان الثورة لم تقتصر على طابعها الديني حسب ، بل اتخذت اطارا وطنيا يتمثل بمعارضة نظام المانشو والدعوة لاسقاطه فسعى تو وين شوي لضم كل سكان الاقليم اليه دون تمييز عرقي أو ديني ، فالقسم الذي اتخذه الثوار تضمن « ان ازالة العار يتطلب اقامة وحدة بين المسلمين والصينيين ... ان المهمات الملقاة على عاتق جيشنا هي : ازاحة المانشو ، الوحدة مع الصينيين ، طرد الخونة »(٤٠) مما أدى

الى انضمام الكثير من السكان المحليين الى الثورة ·

في ذلك الوقت لم تكن الحكومة المركزية قادرة على التدخل في الاقليم بسبب انشغالها بالثورات الاخرى التي كانت تهدد العاصمة بكين وهي ثورة تايبينغ وثورة نيان فاي اضافة الى انشغالها بحرب الافيون الثانية (١٨٥٧ ـ ١٨٦٠) مع بريطانيا وفرنسا مدعومتين من قبل روسيا والولايات المتحدة الامريكية · وفي الشمال الغربي شرع المسلمون التونكان بثورتهم منذ عام ١٨٦٢ · والى جانب كل هذه العوامل نضيف عاملا آخر الا وهو شكوك الصينيين من نوايا بريطانيا في بورما بعد ان تمكنت من الحاقها بالهند فتجنبوا الصدام معها خاصة بعد ان ابدى الانكليز اهتماما بالثورة في يونان ·

كل هذه العوامل جعلت الحكومة المركزية تقف مكتوفة الايدي وتركت مسألة معالجة الثورة في اقليم يونان الى السلطات المحلية هناك ، خاصة وان العاصمة بكين شهدت تحولا كبيرا بعد ان تمكن الحلفاء الغربيون من دخولها عام ١٨٦٠ واضطر الامبراطور شيانغ فنغ الى الهرب الى جيهول حيث مات في السنة التالية كمداً(٤١) وتم تنصيب ابنه تونغ تسي امبراطورا وكان صغير السن لا يتجاوز عمره خمس سنوات ·

هذه الاوضاع اعطت المسلمين في يونان الفرصة لتنظيم انفسهم والبدء بعملية هجوم شامل على مدن الاقليم بعد ان اصابهم الهلع من المجازر الوحشية فالقائد ماهسيان في الجنوب الشرقي تمكن من تحرير العديد من القرى التي كانت محاصرة من قبل القوات الحكومية · ومع انه جرح عدة مرات خلال المعارك فانه واصل حملته واجبر عدة مدن على الاستسلام · وفي الغرب تمكن تو وين شوي من ان يجعل نفسه سيداً على

معظم الاقليم ، وكانت لهذا التوسع نتائج إيجابية اذ انه لم يثر حماس المسلمين حسب بل وضع بين ايديهم طاقات بشرية واقتصادية ومبالغ مالية مكنتهم من مواصلة الثورة · وانتعشت التجارة بين تالي عاصمة تو وين شوي وبين بورما(٤٢) ، بعد ان تمكن الثوار من شق طريق جبلي اليها لتهريب السلاح والذخائر(٤٣) ·

اما مدينة يونان عاصمة الاقليم فقد شهدت تحولات خطيرة بعد ان فرض المسلمون الحصار عليها في محاولة للسيطرة على كل الاقليم حتى صارت الحالة داخل المدينة سيئة جدا وامتلأت الشوارع باللاجئين واضطر قائد الجيش المنشوري الى الاتصال بقائد المسلمين لمعرفة شروط الاستسلام · اما الوالي هوانغ تشونغ الذي نفذ مجزرة ١٨٥٦ فقد انتحر كمداً ·

لكن هذا النجاح وضع قادة المسلمين أمام مشكلة خطيرة ، فالقائدان ماته سينغ وماهسيان اللذان كانا يحاصران يونان ادركا ان نجاحهما لن يستمر طويلا ولابد ان تتدخل الحكومة المركزية عاجلا ام آجلا · وكانت رغبتهما هي عودة السلام وتأمين سلامة اتباعهم فقط دون التفكير في الثأر والانتقام · هذه الرغبة فسرت من قبل قائد الجيش الحكومي بالرغبة في حل المسألة عن طريق التفاوض فانتهز الفرصة ليعرض على القائدين المسلمين واتباعهما من قادة الكتائب مناصب رفيعة واكراميات ثمينة ان تعاونوا مع الحكومة · وهكذا لعبت هذه الدسيسة دورها في تفريق الثوار · فالقائد ماته سينغ الذي رفض جميع المناصب التي عرضت عليه قبل راتبا شهريا مقداره ٢٠٠ تايل (مثقال) فضة ، فيما عين ماهسيان قائدا في الجيش الامبراطوري وتعين من تحته من المامورين في رتب

مختارة . وبعد هذه التسوية دخلت قوات المسلمين مدينة يونان في تشرين الثاني ١٨٦٠ دون اعمال عنف والقى القائدان المسلمان السلاح وطلبا من اتباعهما الكف عن القتال .

ومن اجل اقناع حكومة بكين بالاجراءات الجديدة تم اقناع ماهسيان بتغيير اسمه الى مارولنغ (محمد رولنغ) حيث قدم تحت ستار هذا الاسم الى البلاط المنشوري بصفته منقذا للعاصمة يونان وليس قائدا للثوار وقد رحبت العاصمة بكين بذلك حيث كانت تتهددها الثورات(٤٤) الاخرى .

بهذه اللعبة استطاعت الحكومة الصينية ان تفرق صفوف المسلمين وتقضي على وحدتهم فانقسموا الى فريقين متناحرين فريق يتزعمه محمد رولنغ في يونان والفريق الآخر يتزعمه تو وين شوي في تالي والذي صار ينظر الى الفريق الاول باعتباره خائنا لقضية المسلمين . وقد سبب هذا الانشقاق اخفاق الثورة وتصفية قادتها جميعا دون استثناء وابادة الكثير من المسلمين .

فمحمد رولنغ الذي أصبح قائدا للقوات الامبراطورية في الاقليم وذا نفوذ واسع في السلطة المحلية تمكن من احداث تغيير في مناصب الولاية وعين أعداء المسلمين في المناصب العليا خاصة أمين الخزانة تسين يواينغ الذي صار فيما بعد والياً على الاقليم وأخذ يعامل المسلمين بوحشية . ولم تنجح المحاولة التي قام بها ماته سينغ الذي صار والياً على الاقليم بشكل موقت باعتبار مركزه كشيخ كبير السن للتاثير على تو وين شوي في تالي(٤٥) فعاد خائبا ، اذ ان الاخير قدر مواصلة الثورة وشرع بتجنيد الفلاحين والعناصر المحلية ووحدات من النساء قادتها احدى بناته .

وفي عــام ١٨٦٢ اعلن قانونا للادارة العسكرية أكــد فيــه الطبيعة الشعبية للثورة منــع بموجبــه النهب واوجب على السكان تزويد الجيش بالمؤن ومنع استغلال المناصب والنفوذ ودعا لتشجيع الحرفيين وتأسيس مدارس اسلامية(٤٦) . وفي محاولة منــه لاطلاع المسلمين في الصين على قواعد الدين الصحيح بشكل مباشر فقد امر بحفر سور القرآن الكريم على الواح من الخشب كوسيلة بدائية لطبعه وتوفيره لمن أراد وذلك بعد صبغ اللوح بالمواد الاسود ثم ضغطه على الورق أو القماش لتطبع عليه الآيات(٤٧) الكريمة واعلن نفسه حاكما مستقلا على يونان باسم « السلطان سليمان » وارسل الى الدول الاخرى يعرفها بقيام دولته وبانه تسلطن على أكثر من ستين مليون مسلم(٤٨) طالبا الاعتراف به .

في سنوات الصــراع ضغطت الحكــومة في عــدة أوقات على تالي ، والمسلمون بدورهم تمكنوا من فرض الحصار على يونان وفي عام ١٨٦٧ مات والي الاقليم مسموما فأصبح تسين يو اينغ امين الخزانة واليا وفي السنة التالية استطاع تو وين شوي وضع يده على الابار الواقعة شمالي العاصمة وبذلك حرم القوات الحكومية من مصادر مهمة للثروة وقطع مواصلاتهــا بسيشوان من الشمال فيما اخذت الاسلحة النارية والذخائر البريطانية والفرنسية والالمانية الصنع تتدفق على تالي عبر بورما . ان أهمية بورما للثوار المسلمين جعلت حكومة بكين تبدي اهتماما اكبر بالثورة والوقوف بوجه أية محاولة للاجانب لفتح منفذ الى الصين(٤٩) عبر تلك البلاد .

واذا كان الجهل بمبادئ الاسلام وايمان بعض قادة الثورة ايمــانا سطحيا قــد أدى الى الانشقاق واضعاف قواهــم ، فان ضعف الكفاءات وعدم اطلاع قادة الثورة على التيارات السياسية العالمية في ذلك الوقت كان

من عوامل سقوط حكومة السلطان سليمان . فالشيخ محمد بيرم التونسي يسجل على هذه الحكومة نقطة مهمة الا وهي انحيازها التام للغرب(٥٠) خاصة بريطانيا التي ارادت من خلال سلطاتها في بورما والهند ان تحول الثورة لصالحها واقامة دولة حدودية في يونان تصد الخطر عن امبراطوريتها(٥١) الهندية خاصة وان فرنسا قد نشطت في الهند الصينية شرقي الهند وبريطانيا دخلت في صراع مع روسيا القيصرية حول الصين وكانت روسيا قد بدأت تتغلغل في تركستان . فقامت بعثة بريطانية بقيادة « سلادن » بزيارة الصين سنة ١٨٧٠ واتصلت بقادة الثورة في يونان ونصحتهم بارسال وفد الى لندن لاجراء اتصالات مباشرة مع الحكومة البريطانية .

بناء على هذه النصيحة توجه الامير حسن بن السلطان سليمان عبر بورما سنة ١٨٧١ الى لندن والتقى رئيس الوزراء البريطاني كلادستون (١٨٦٨ ـ ١٨٧٤) طالبا منه المساعدة والدعم . وكان كلادستون في ذلك الوقت يتمسك بتقاليد الاحرار في « السلام والتقتير » والاقتصاد بمصروفات الدولة ويتبع سياسة مسالمة في الشؤون الخارجية . لذا فأنه لم يكن مقتنعا بفكرة اقامة دولة اسلامية بالقرب من الهند وبورما واعتذر عن التدخل في شؤون المسلمين في الصين . وبناء على نصيحته توجه الامير حسن الى الاستانة طالبا مساعدتها . ولم يكن السلطان العثماني عبدالعزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) اقل حماسا في انتهاز مثل هذه الفرصة الثمينة التي تتيح له بسط سيادته على مسلمي الشرق لكن صراعه مع روسيا والوضع المالي المتردي للامبراطورية العثمانية وصعوبة الوصول الى تلك المناطق النائية حال دون تقديم المساعدة فاضطر الامير حسن الى العودة الى يونان

في بداية سنة ١٨٧٣(٥٢) خائبا •

ويعزو البعض ممن زاروا الاقليم واطلعوا على مجريات الامور فيه التعاطف الذي اظهره البريطانيون وغيرهم نحو ثورة المسلمين في يونان الى العداء الذي اظهرته السلطات الصينية المحلية تجاه الاجانب في المنطقة(٥٣) لكن الواقع يدحض ذلك اذ ان الاوربيين كانوا في ذلك الوقت في صراع مرير فيما بينهم وبين الحكومة الصينية حول السيطرة على الصين واقتسامها فكان لابد من استغلال مثل تلك الثورة التي هيأت لهم فرصة التدخل •

وفي الوقت الذي كانت فيه تلك السلطة الناشئة تجاهد من أجل الحصول على الدعم الخارجي أخذت تشدد حصارها على العاصمة يونان بين ١٨٦٨ – ١٨٦٩ في محاولة للسيطرة على كل الاقليم • وكان بامكان تو وين شوي ان يحتل المدينة لو قاد الحصار بنفسه خاصة وان قوات المسلمين داخل المدينة والتي انحازت الى جانب الحكومة لم تكن راغبة في قتال اخوانهم المسلمين بل انهم رفضوا تنفيذ الاوامر ولم يقض القائد محمد رولنغ الذي تمسك بالاتفاق مع الحكومة على تمردهم الا بعد ان قتل عدد من قادتهم • وبدلا من ان يقود تووين شوي الحصار بنفسه ظل قابعا في مقره في نالي تاركا قيادة الحصار لتاسي جونغ وهو رجل ضعيف كبير السن لم يتمكن من اظهار القوة المطلوبة • وخلال الحصار الطويل تناقص حماس قواته وظهر عليها الانهاك وأخيرا اعياه المرض فمات • وتمكن محمد رولنغ من كسب بعض قواته التي اخذت تتقهقر من مكان لآخر وهوجم اتباع تووين شوي من أربع جهات من قبل جيوش المانشو التي قادها قادة اكفاء من بينهم محمد رولنغ •

والواقع لم تحدث حروب بين الطرفين بمعنى الكلمة بل تمت محاصرة المدن والقرى التي كان المسلمون قد استولوا عليها واستمر الحصار مدة طويلة نلقد تمكنت تلك المدن من توفير ما يكفيها من المؤونة لحصار طويل اذ ان المسلمين لم يستوفوا الضرائب من السكان نقدا بل كانوا يأخذونها عينا مما مكنهم من الصمود لمدة أطول(٥٤) . ومع ذلك فقد اخذت تلك المدن تتساقط بأيدي القوات الحكومية واحدة بعد الاخرى وتم تنفيذ مجازر رهيبة .

ويصف الكاتب الفرنسي روشر(٥٥) الذي كان يتابع تلك الاحداث سقوط احدى المدن وهي تشنغ كيانغ بقوله « ان آلافا من السيدات المسلمات قد انتحرن بالقاء انفسهن وأطفالهن في الابار بينما كانت هناك حوالي خمسة آلاف سيدة من اللواتي امتنعن عن قتل انفسهن يعانين أبشع الاعتداء من رجال الجيش ، وتعرض سكان المدينة للسلب والذبح ، ومن غير الضروري متابعة تفاصيل القصص المؤلمة الدامية التي اعقبت سقوط مدينة بعد أخرى لكن التفاصيل الكاملة لسقوط تالي ستكون كافية للكشف عن السياسة التي تم تنفيذها في المناطق الاخرى » .

ففي عام ١٨٧٢ تركزت كل قوات تو وين شوي داخل مدينة تالي وفي ضواحيها استعدادا للمعركة الفاصلة . وسرعان ما داهمتها القوات الحكومية وفرضت عليها حصارا شديدا . وفي أثناء ذلك دب الخلاف بين زعماء المسلمين داخل المدينة وانقسموا الى فريقين . الفريق الاول كان يصر على القتال حتى النهاية فيما كان الفريق الثاني من الذين تسلموا وعودا طيبة من حاكم الولاية الذي طالبهم براس تووين شوي مع فدية من المال فقط يدعو للاستسلام . ونجحت تلك الوعود في كسب ود الفريق

الثاني فأرسلوا الى قائد الحامية المانشورية بالختم(*) الذي كان يستخدمه تو وين شوى (السلطان سليمان) في اصدار الاوامر تأكيدا لاستسلامهم.

وعندئذ وجد سليمان تووين شوي الذي ظل سلطانا على نصف ولاية يونان حوالي ستة عشر عاما وحيدا ، وقبل بتسليم نفسه لانقاذ بقية المسلمين بعد ان اقدم على تسميم زوجاته الثلاث وبناته الخمس وسلم نفسه في الخامس عشر من كانون الثاني ١٨٧٣ . وامام قائد القوات المنشورية اقدم على الانتحار بتناول جرعة كبيرة من السم وتم قطع رأسه وارساله الى البلاط(٥٦) في بكين .

ثم قام الجيش الحكومي باغلاق أبواب المدينة منعا لهروب الناس منها واقتحم كل ثلاثة أو أربعة من الجنود بيتا من بيوت المسلمين وتربعوا فيه . بينما تظاهر حاكم الولاية باقامة وليمة فاخرة بمناسبة الانتصار دعا اليها قادة المسلمين جميعا . ولما وصل هؤلاء قاعة المأدبة تم القبض عليهم وضرب أعناقهم ، واطلقت المدفعية ست طلقات ايذانا ببدء المذبحة داخل المدينة ، وتولى الجنود ذبح أفراد العائلات المسلمة التي تربعوا في بيوتها حيث تم ذبح الآلاف داخل المدينة وضواحيها ، وفي القرى المجاورة ، وحين مل الجنود من الذبح اشعلوا النيران في البيوت وأخذوا يطلقون النار على الفارين ، ويمضي روشر في وصفه لهذه المجزرة فيقول انه من بين سكان المدينة البالغ عددهم خمسون الفا تم قتل ثلاثون الفا بينما فر الآخرون الى بورما . وتأكيدا لهذا النجاح بعث الحاكم بأربع وعشرين

(*) يزن هذا الختم (٨٦) اونسة من الذهب وقد قدر ثمنه بخمسمئة باون صممت قبضته بصورة أسد في فمه ياقوتة وكان الختم مكتوبا بالعربية وبالصينية .

سلة مملوئة بعشرة آلاف زوج من الآذان الادمية مع سبعة عشر رأسا من رؤوس قادة الثورة من ضمنها رأس سليمان ثو وين شوي(٥٧) ٠

وتمكن ما بين خمسة آلاف وستة آلاف من التسلل تحت جنح الظلام حينما كان الجنود منشغلين بالسلب والنهب وتوجهوا الى احدى القرى القريبة من تالي وحين وجدوا ان جميع الطرق قد سدت في وجوههم وان القوات الحكومية أخذت تلاحقهم فضلوا الانتحار على تسليم انفسهم وهكذا انتهت هذه الثورة في حزيران ١٨٧٣ ٠

وطبقا لتقديرات روشر الذي كان حاضرا أثناء المجزرة فان ما لا يقل عن مليون شخص قد قتلوا وفر الآلاف الى بورما وتعطلت التجارة واقفرت مساحات واسعة من الاراضي(٥٨) اما كورديه عضو اكاديمية علوم المستعمرات الفرنسية الذي أقام في يونان مدة بعد المجزرة فقد قدر عدد ضحاياها بأكثر من ثلاثمئة الف نسمة(٥٩) والمؤرخون الصينيون الرسميون انفسهم يذكرون انه تم ابادة أكثر من نصف سكان الاقليم وان مساحات واسعة قد اقفرت وازيلت مدن وقرى من الوجود وتعطلت التجارة والصناعة ولم تشفع لماته سينغ خيانته اذ تم قتله من قبل المانشو في السنة التالية(٦٠) وشاهد بعض الاوربيين العديد من النساء والاطفال والاموال المنهوبة تباع في الأسواق ٠ وبعد اثني عشر عاما من الثورة كتب جورج كلازك(٦١) يقول « لم يعد يسمح للمسلمين في تالي حتى بفتح الحوانيت ، وحتى هذا الوقت لا تزال آثار الخراب يمكن مشاهدتها في معظم أنحاء الولاية تحكي تلك القصة المحزنة وذلك الصراع المرعب » ٠

ب ـ ثورة شينشي وقانصو ١٨٦٢ ـ ١٨٧٥

تقع المقاطعتان في الشمال الغربي من الصين ، تمتد قانصو من

الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي بين صحراء غوبي ومرتفعات هضبة التيبت وجبال نان شان ومركزها مدينة لانشو (كاولان الحالية) على النهر الاصفر الذي يمر من وسط الاقليم فهي قريبة من التيبت • والقسم الشمالي من الاقليم قرب حدود منغوليا والذي تقع معظم اراضيه خارج سور الصين العظيم يسمى ننغشيا صارت فيما بعد مقاطعة خاصة • والى الشرق من قانصو يمتد اقليم شينسي ومركزه مدينة سيان العاصمة القديمة للامبراطورية الصينية وهي مدينة سنغان في الوقت الحاضر •

تسكن المقاطعتان غالبية اسلامية خاصة غربي قانصو ويقدر برومهال عددهم من قانصو وحدها بين ٢ ــ ٣ر٥ مليون في أواخر القرن التاسع عشر ، وفي شينسي مليون مسلم قبل الثورة(٦٢) ينتمي معظمهم لاصول تركية مثل الاويغور(*) الذي اسلم رئيسهم اويغور بن قرخان بعد قتيبة بن مسلم الباهلي بزمن قليل وتسمى اتباعه الاويغوريون • ومنهم أيضا السلار ويتركزون في هسون هواتعنغ على الضفة اليمنى للنهر الاصفر وعلى طول الطريق بين هسليينغ حتى هوتشو ويتكلمون لغة تركية محرفة والى جانبهم عدد من العرب والمغول الذين ظلوا محافظين على هويتهم الاسلامية وعلى تقاليدهم ويسمي الصينيون مسلمي هذه المناطق باسم التونكان(٦٣) اي المتحولين الى الدين الحق •

ومن الصعوبة تمييز المسلمين التونكان عن غيرهم من سكان تلك المناطق لكنهم يتركزون في تجمعات تترأسها زعامات سياسية ودينية ويعمل الكثير منهم في التجارة مع التيبت وتركستان ومع مدن الصين الداخلية • اما في القرى والارياف فيعملون في الفلاحة ومنهم عسكريون

(*) تعني كلمة اويغور بالتركية المرابطة أو المعاهدة •

وموظفون اداريون لكن أعدادهم تناقصت كثيرا بعد الثورات خاصة داخل المدن حيث لم يعد يسمح لهم بالسكنى والقليل منهم يعرف العربية(٦٤) ٠

شهدت هذه المناطق اضطرابات بعد وصول المانشو الى الحكم بسبب التذمر العام وسياسة التفرقة العنصرية والاضطهاد الديني الذي مارسوه، كانت أول ثورة في المنطقة هي ثورة ١٦٤٨ أي بعد اربع سنوات من تولي هذه الاسرة الحكم ، تم خلالها مثل حاكم ولاية قانصو وقائد القوات الصينية فيها ، وتمكن الثوار من فرض سيطرتهم على معظم مدن الاقليم بل انهم حاصروا لانشو عاصمة الاقليم نفسها فسار اليهم حاكم شينسي المجاورة وتمكن من دحرهم وتقطيع اوصال زعمائهم ٠ وبعد سنتين انتفضوا مرة أخرى وتم قتل خمسة آلاف منهم(٦٥) وعاد الهدوء الى المنطقة ولكن بشكل مؤقت ٠

وتجددت الاضطرابات مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بشكل أوسع وأشد عنفا ٠ اججتها الصراعات الدينية والطائفية ٠ فلقد كانت في تركستان المجاورة منذ القرن السادس عشر فرقتان الاولى تسمي فرقة « الجبليين البيض » ومنهم اسرة الخوجات الحاكمة والثانية تنتمي لاصول تركية أيضا وتسمى فرقة « الجبليين السود » معظمهم من قبيلة السلار التي كانت تستقر جنوبي تركستان وكان بين الفرقتين صراع حول النفوذ السياسي والديني استمر طيلة الفترة التالية ٠

وفي شمال قانصو كان للجبليين السود مقر في مدينة سينينغ ، وكانت لهم ارشادات خاصة منها اداء الصلاة وقراءة القرآن بصوت خافت٠ وفي منتصف القرن الثامن عشر ظهر بينهم زعيم اسمه مامنيغ هسين

(محمد أمين) الذي زار المراكز الاسلامية في آسيا مثل سمرقند وبخارى وفرغانة وهناك رأى الناس يجهرون في صلاتهم وفي قراءة القرآن • فلما عاد الى قانصو أخذ يدعو إلى الجهر في الصلاة وقراءة القرآن مما أدى الى ظهور انشقاقات بين المسلمين في سينينغ بين اتباع الفرقة القديمة (الخفية) أو المذهب القديم « لاوتشياو » وانصار الفرقة الجديدة (الجهرية) أو المذهب الجديد (هسين تشياو) ووقعت صدامات بين الفرقتين هاجم المسلمون خلالها مدينة لانشو مما حدا بالسلطات الصينية الى التدخل بعد ان ثارت شكوكها حول نوايا محمد أمين فاعتقلته واعدمته سنة ١٧٨١ مما اوقد نار الثورة في نفوس المسلمين فقاموا بهجوم عام على لانشو فاضطرت الحكومة المنشورية الى ارسال فرق من المدفعية لمواجهة الحالة وعززتها بفرق أخرى من مدينة سيان وتمكنت من تطويق المسلمين الذين لجأوا الى المساجد وتحصنوا فيها وأخيرا فضلوا القاء انفسهم في النار والموت على التسليم(٦٦) للقوات الحكومية •

ظل المسؤولون الصينيون يلاحقون اتباع الفرقة الجديدة وتزايدت شكوكهم حين أقدم اتباع محمد أمين على ممارسة الاعمال الرياضية والكشفية والتدريب على استعمال الاسلحة النارية بشكل سري ، وبعد ان اطلعت الحكومة الصينية على ذلك عام ١٧٨٣ أصدر قائد الجيش المنشوري امرا قاسيا ذهب على أثره الآلاف من النساء والاطفال • ولما كان هذا القائد يكن كراهية شديدة للمسلمين فقد عقد النية على ابادتهم وقام عدد من الزعماء المسلمين بتكتيل انفسهم صفاً واحدا لمواجهة الخطر المحدق • واستولوا على بعض المدن ، لكن القوات المنشورية المعززة بالمدفعية تمكنت من انهاء تلك الانتفاضة وقتل عدد كبير من انصار

الفرقة الحديثة وصدر مرسوم امبراطوري سنة ١٨٧٥ ينص على منع المسلمين من المجادلة في أمور الفرق المذهبية(٦٧) او الحج الى مكة وسحب منهم حق بناء المساجد ومنع دخول رجال الدين المسلمين الى الصين من الاقطار الاخرى(٦٨) بصورة اثارت غضب المسلمين وسخطهم ٠

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تجددت الاضطرابات بسبب تفاقم الوضع في أنحاء الامبراطورية ونشوب الثورات في معظم الاقاليم وسياسة الاستغلال التي مارسها الموظفون الرسميون والتجار في المنطقة وزيادة الضرائب من أجل تهيئة الجيوش وتجنيد المسلمين لسحق الثورات الصينية التي عمت البلاد خصوصا المناطق الوسطى والشمالية(٦٩) وبعد سنة واحدة من وفاة الامبراطور شيبانغ فنغ وتولي ابنه الصغير تونغ شي ثار المسلمون سنة ١٨٦٢ في شينسي معلنين بدء أكبر ثورة في الاقليم ٠

السبب المباشر للثورة يرجع الى حملة عسكرية قادها ثوار التايبنغ والنيان عبر سيشوان في محاولة منهم للحصول على دعم المسلمين ومشاغلة القوات الحكومية لتخفيف الضغط على تانكنغ « عاصمتهم السماوية » التي فرضت عليها القوات الصينية حصارا شديدا ٠ فوصلت تلك الحملة الى شينسي مما ساعد على اثارة حماس المسلمين في المنطقة(٧٠) وشرعوا بالثورة في هوانشيو شرقي العاصمة سيان وخلال الفترة التالية ١٨٦٢ - ١٨٦٥ امتدت لتشمل كل شينسي وقانصو والهوامش الجنوبية لمنغوليا بعد ان احتوت الحركات السرية المنتشرة هناك والتحمت مع ثورة المسلمين في التركستان المجاورة لقانصو والتي سنتناولها في الصفحات التالية ٠

ترأس الثورة رجال دين وعسكريون ومعلمون على رأسهم الزعيم

الديني ماهو الونغ أحد رواد حركة الاصلاح التي حملت اسم الفرقة الجديدة أو المذهب الجديد « هسين تشياو » التي اوجدها مامنغ هسين (محمد أمين) قبل قرن ويقال ان ماهو الونغ قد تتلمذ على يديه وانه ادعى النسب الى آل البيت(٧١) فالتف حوله الانصار والاتباع وصار في نظرهم ولياً من الاولياء أو قطباً من الاقطاب وتمكن هذا القائد من التأثير على الجماهير التي لم تكن قد اطلعت على جوهر الاسلام بشكل مباشر بسبب جهلهم اللغة العربية فانتشرت بينهم ظاهرة الاعتقاد في الاولياء وزيارة القبور ومبايعة شيوخ الجماعة •

ولكي يميز ماهو الونغ اتباعه عن غيرهم من المسلمين فقد امرهم بالجهر في أثناء الصلاة وفي قراءة القرآن (لذا سموا بالجهرية) وكذلك ارخاء الايدي أثناء الصلاة • هذه الصفات جعلت بعض الغربيين يعتقدون ان للصوفية أثراً بارزاً على المذهب الجديد والواقع ان مذهب ماهو الونغ هو المذهب السني الحق كما يؤكد ذلك دولون في تقريراته(٧٢) وليس فيه أي أثر للتأمل الصوفي •

اما موجه الثورة فكان الزعيم الديني باي ين هو (محمد ايوب) الذي جمع انصاره في « واينان » حوالي ثلاثين ميلا شرقي سيان عاصمة اقليم شينسي ، وهو ابن عضو مجلس بلدي تميز بنشاطه الواسع وسعيه لتوحيد كل القوى المعادية للمانشو بمن فيهم غير المسلمين من امثال التايبينغ والنيان ويساعد هذين الزعيمين زعماء آخرون منهم مياو باي لين ومابتسياو(٧٣) اللذين جمعا انصارهما في مدينة هواتشو وكذلك مابيتوان في سينينغ وغيرهم كثيرون •

ومما ساعد على ظهور هذه الزعامات في تلك المناطق هو ضعف

الحكومة وتدخل الدول الكبرى في البلاد وانتشار الثورات وضعف السلطات المحلية في المنطقة مما أدى الى ظهور عصابات خارجة عن القانون وعم النهب والسلب خاصة بعد الحملة التي قادها التايبينغ واليانان في شينسي مما اضطر الكثير من القرويين الى تشكيل « مليشيات » من المتطوعين للدفاع عن انفسهم ، وسرعان ما اصطدم هؤلاء بالمسلمين الذين بدأوا يتدربون على السلاح أيضا لحماية انفسهم فاستغل المعادون الفرصة لتحريض السلطات المحلية ضدهم · متهمين اياهم بالقيام بنشاطات سرية وفي الوقت نفسه سرت اشاعات مفادها ان القوات الامبراطورية في طريقها لاستئصال المسلمين وابادتهم ·

هذه الاخبار رفعت درجة استعداد المسلمين فتحصنوا في مدينة واينان واعلنوا الثورة سنة ١٨٦٢ وبادرت حكومة الامبراطورية لارسال حاكم جديد على شينسي بهدف تأمينها واعادة النظام اليها ولما بدأ الوالي الجديد بتصفية قادة الثورة تمكن هؤلاء من قتله وحاصروا العاصمة سيان بعد ان انضم اليهم الكثير من الجنود المسلمين العاملين في الحامية المنشورية من المدينة مما اثار ذعر العاصمة بكين وارسلت تعزيزات أخرى تمكنت من اخراج المسلمين منها سنة ١٨٦٥ وقتل الكثير منهم بينما فر الآخرون(٧٤) الى ولاية قانصو وتجمعوا في لانشو ·

هذه الاحداث ادت الى انتشار الثورة في الانحاء الاخرى من شينسي وامتدت الى ولاية قانصو وننغشيا التي تورطت في الثورة أيضا · ففي أثناء الصدام بين المسلمين والقوات المنغولية طلب مسلمو شينسي المساعدة من اخوانهم في قانصو فبادروا لاعلان الثورة دعماً لهم وتم توحيد الجميع في ثورة شاملة امتدت الى المدن والقرى كل منها ثارت تحت لواء

زعيم مسلم(٧٥) ٠

ولم تقف الثورة عند هذه الحدود فلقد انضم اليها حوالي ثلاثين الف جندي مسلم وهم يشكلون نصف مجموع الحامية المسؤولة عن حماية مدن هامي (تومول حانيا) وارومجي في تركستان الشرقية وانضم اليهم أيضا التجار والفلاحون في تلك المنطقة مما أدى الى امتداد الثورة الى تركستان ٠

ومنيت القوات الحكومية بهزائم منكرة وسيطر المسلمون على طرق التجارة المارة من شمال وجنوب تيان شان نحو الغرب ٠ وحتى ذلك الوقت كانت الحكومة الامبراطورية عاجزة عن تقديم دعمها للسلطات المحلية ٠ وعلى الرغم من تمكنها من انهاء ثورة تايبينغ سنة ١٨٦٤ لكنها اضطرت لتركيز كل جهودها لقمع الثورات الاخرى وهي ثورة النيان في الاقاليم المجاورة والتي استمرت حتى عام ١٩٦٨ وفشلت جهود قائد القوات الحكومية في شينسي من الاتفاق مع الثوار المسلمين وذلك بواسطة اثنين من رجال الدين المسلمين البارزين وحين باءت جهودهم بالفشل ثم قطع رأسيهما مما أدى الى اثارة غضب التونكان ومهاجمتهم للقوات الحكومية وقتل قائدها(٧٦) ٠

وهكذا فشلت كل الجهود لتهدئة الموقف حتى ظهر القائد الصيني تسو تسونغ تانغ (١٨١٢ - ١٨٨٥) الذي اخذ على عاتقه مهمة القضاء على الثورة ٠ كان تسو احد أعيان مقاطعة هونان برز اثناء الحملات الناجحة التي قادها ضد التايبينغ وطبقا لما يقوله الانكليزي W. L. Bales كاتب سيرة هذا القائد والحملات التي قادها ضد المسلمين فانه تم تعيينه

قائدا أعلى لاقرار الامن في شينسي وفانصو فوصل مدينة سيان سنة ١٨٦٧ واتخذها مقراً لقيادته . ووضع خطة تنطوي على منع قيام اي تعاون أو اتصال بين الثوار النيان وبين الثوار المسلمين(٧٧) ، ولاجل تمويل الحملة واعدادها اعدادا جيدا فقد فرض ضرائب جديدة وباع ضرائب المهنة المفروضة على السكان في دائرة نفوذه لقاء مبالغ ضخمة من الأموال . وبعد ان تمكن من اسقاط النيان سنة ١٨٦٨ رمى بكل ثقله في السنة التالية للقضاء على ثورة المسلمين(٧٨) .

وبعد ان تمكن من فك الحصار الذي فرضه المسلمون على مدينة سيان قسم قواته الى ثلاث فرق تتقدم من ثلاث طرق : فرقة شمالية للزحف نحو مدينة جنجيبو وفرقة شمالية نحو مدينة هوتي وفرقة وسطى قادها بنفسه وسار بها من شينسي التي تمكن من تهدئتها نحو فانصو وساق امامه جميع المسلمين من المناطق التي مر بها يهدف تأمين الجبهة الخلفية وحصر القتال من الجبهة الامامية(٧٩) داخل فانصو .

ووضع القائد تسوتسونغ تانغ نصب عينيه هدف ابادة المسلمين جميعا وينقل عنه قوله « اذا لم ابدهم ... اذا تركت فرعا أو جذرا منهم فانني سأتحمل بالمقابل خطر تدميرهم لي »(٨٠) وبعد ان تمكنت قواته من الاستيلاء على عدد من حصون المسلمين وابادة أكثر من ثمانية آلاف منهم خطوة اولى توجهت قواته سنة ١٨٦٩ نحو لانشو عاصمة فانصو التي كانت تدافع عنها قوات ماهو الونغ . وفي محاولة من المسلمين لتخفيف الضغط على هذه المدينة سارت وحدات من المدن المجاورة لتقديم الدعم لكن القوات المنشورية باغتتها في منتصف الطريق وابادت خمسة آلاف منهم وسقطت لانشو سنة ١٨٧٠ واضطر ماهو الونغ الى التراجع الى

جنجيباو(٨١) ، الحصن الحصين للمسلمين ٠

ومرة أخرى تلعب الاطماع الشخصية والخيانة دورها في افشال الثورة التي اندس في صفوفها عدد من ادعياء الاسلام والموالين لحكومة المانشو ٠ لقد لعب الدور الاعظم في قتال المسلمين هذه المرة الجنرال تونغ فوشيانغ الذي تظاهر بالاسلام وجمع حوله الاتباع ممن تظاهروا بوضع العمائم البيض « باي شان » على رؤوسهم في أثناء الثورة وما ان وصلت القوات الامبراطورية حتى انحاز اليها هو واعوانه بعد ان اغري بمنصب رفيع في الجيش وتلقب بلقب القائد العام وصار أداة بيد نائب الامبراطور تسو تسونغ تانغ ٠ وتمكن هذا القائد الذي ادعى الاسلام من القاء القبض على القائد ماهو الونغ(*) الذي فر من جنجيباو بعد سقوطها بيد القوات الحكومية بعد سنة من الحصار وذلك سنة ١٨٧١ وتم تسوية المدينة بالارض وابادة سكانها بمذبحة عامة وتم اعدام ماهو الونغ والزعيم مايا تسياو ردعا للثوار وتم احتلال مدن هوشيو وسينينغ ٠

كان الاوربيون يعتقدون ان تونغ فو شيانغ كان مسلما تظهر انه من أشد أعداء الاسلام ، سعى لضرب المسلمين بعضهم ببعض من خلال التقرب لقادتهم وبمساعدته تمكن المنشوريون من احتلال المدن التي سيطر عليها الثوار المسلمون(٨٢) الواحدة بعد الاخرى ٠

(*) فاز بهذه المناسبة بأراض واسعة اضافة لمنصب القائد العام للجيش في المنطقة وسخرته الحكومة للقضاء على ثورة المسلمين في فانصو ١٨٩٥ — ١٨٩٦ وعلى الحركة الاصلاحية التي بدأت في الصين سنة ١٨٩٨ وعلى ثورة البوكسرز سنة ١٩٠٠ وعاش في فانصو حتى وفاته سنة ١٩٠٨ بعد انجمع ثروة طائلة وكان يحيطه حرس قوامه ٥٠٠ جندي ٠

وقبل اعدام ماهو الوثغ نصح اتباعه بالهجرة الى بيتغ ليانغ جلوبي فانصو فهاجر اليها نحو عشرة آلاف مسلم ، وباعدامه تلاشت المقاومة وتمكن المنشوريون من اسقاط آخر قلعة بيد المسلمين وهي مدينة سوتشو (كيوشان الحالية) في اقصى شمال غرب فانصو في تشرين الثاني ١٨٧٣ بعد حصار استمر ثلاث سنوات وتم ابادة المسلمين فيها بعد ان فر الزعيم الديني باي ين هو (محمد أيوب) مع عدد قليل من اعوانه الى تركستان(٨٣) ليساهم في ثورة يعقوب بك هناك وانتهت الثورة في شينسي وفانصو سنة ١٨٧٥ وعاد اليها الهدوء بعد ان استمرت ثورتها أكثر من اثني عشر عاما .

وتم تنفيذ حملة تصفية شاملة للمسلمين . وطبقا لما يقوله الذين زاروا المنطقة بعد القضاء على الثورة مباشرة فان الجنود دمروا ونهبوا القرى ويؤكد هؤلاء « ان عدد سكان فانصو انخفض من ١٥ مليون الى مليون واحد فقط . ومن كل عشرة صينيين قتل تسعة ومن كل ثلاثة مسلمين قتل اثنان »(٨٤) . وعلى الرغم من عنصر المبالغة في هذه الارقام لكن الرحالة شاهدوا اثار الدمار الذي عم المنطقة لعدة أميال وفي جميع النواحي .

ويؤكد المؤرخ الصيني Fan wen Lan ان بضعة ملايين من العسكريين والمدنيين قد ابيدوا أثناء تلك الحملات(٨٥) . اما Piassetski العالم الطبيعي والطبيب الروسي الذي حل بالمنطقة سنة ١٨٧٥ مشاهد التدمير والقمع الوحشي الذي حل بالتونكان « لقد تهدمت كل القرى الواقعة على الطريق والتي كان بامكان الفرد مشاهدتها سابقا ، وهدمت كل المنازل حتى اننا لم نعد نرى اثرا لشجرة أو انسان بين

الانقاض ... حيث دفع الناس الى بيوتهم والى مساجدهم وثم اشعال النار فيها لحد ان القتل المفرط في النساء والشيوخ والاطفال المسلمين اثار استنكار البلاط في بكين وان السكان الذين نجوا من الموت باعجوبة قد فروا الى تركستان والى روسيا(٨٦) . والشيء نفسه أكدته بعثة اولون الفرنسية في أواخر القرن والتي استقت معلوماتها من أحد أدباء لانشيو ولاحظت النقص الذي لحق بالسكان وان الكثير من المسلمين لا زالوا تحت المراقبة(٨٧) ولم يعد يسمح لهم بامتلاك الاملاك منذ عام ١٨٦٩ وتحولت ملكية جميع الاراضي الى الدولة(٨٨) .

ثورة قانصو ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ :

ظلت الاوضاع في قانصو تسير من سيء الى اسوء فحكومة المانشو لم تدرك معنى التغيير الذي حصل في العالم ، فحتى نهاية القرن التاسع عشر ظلت منطوية على نفسها وانقسم البلاط على نفسه الى فريقين فريق يتزعمه الامبراطور الشاب كوانغ شوي ويسعى لاقامة دولة عصرية وادخال الاساليب والافكار الاوربية الى البلاد وتحقيق رغبة الامبراطور في تسلم السلطة من عمته المعروفة بالامبراطورة الوالدة . والفريق الآخر تتزعمه تلك العجوز تسي شي التي يدعمها الوزراء وكبار قادة الجيش الذي كانوا يسعون للتمسك بالسلطة والحفاظ على مصالحهم ويجدون في تحديث الجيش والادارة والتعليم ودخول الافكار الغربية الى البلاد تهديدا لمراكزهم فوقفوا بوجه أية محاولة(٨٩) للاصلاح .

والمسلمون بدورهم لم يتعضوا بما حل بهم بعد ثورة ١٨٦٢ ـ ١٨٧٥ وظلت الصراعات الطائفية تمزقهم . فانصار ماهو الونغ من اتباع المذهب الجديد (هسين تشياو) تكاثر عددهم خاصة بعد ان صار ماهو الونغ

في نظرهم شهيداً واعطي لاقاربه حق قيادة المسلمين في فانصو على الطريقة الجهرية(٩٠) . وصاروا يشددون هجومهم على أنصار المذهب القديم « لاو تشياو » أو الخفية فاشتدا الصراع بينهما وفي الوقت نفسه بدأت الافكار الاصلاحية التي شهدها العالم الاسلامي في الغرب تجد لها طريقا الى الصين بواسطة الحج . وخاصة الدعوة الاصلاحية التي نادى بها محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية . قام بنقل هذه الافكار الشيخ نوح ماكويوان (الحاج بستاني) وهو أحد أبناء قرية كويوان من فانصو والذي حج الى مكة سنة ١٨٩٤ وراقت له تلك التعاليم ووجد فيها مخرجا لانقاذ الإسلام في الصين مما علق به من بدع وشوائب فأخذ يدعو للعودة الى الدين(٩١) الخالص .

حصل هذا التطور في الوقت الذي استمرت فيه السلطات الصينية في ملاحقة المسلمين واضطهادهم كلما اقترب حكما من نهايته . فلم تمض سوى عشرون سنة عن الثورة السابقة حتى اندلعت ثورة أخرى في فانصو عام ١٨٩٥ .

كان السبب المباشر للثورة هو الصراع بين أنصار المذهب الجديد من السلار وأنصار المذهب القديم في قرية كايتسيكونغ غربي فانصو فتدخلت السلطات المحلية في المدينة المجاورة لها في النزاع مما أدى الى مقتل أحد المسلمين عندئذ وحد اتباع المذهبين جهودهما لمواجهة القوات الحكومية وشنوا حملة واسعة ضد العدو المشترك . فبادرت قيادة الجيش في المنطقة الى اصدار بيان يدعو لاقامة مذبحة عامة للسلار المسلمين . وعلى الرغم من صدور بيان آخر يدعو لابطال مفعول هذا البيان لكنه جاء متأخرا(٩٢) . وبعد ان اخذت الثورة تسرى الى المناطق الاخرى

من الاقليم ٠

كانت الحكومة الصينية في ذلك الوقت مشغولة بالحرب مع اليابان (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥) حول كوريا ورغبة كل منهما تثبيت سيادتها عليها ٠ ففي آب ١٨٩٤ اعلنت كل منهما الحرب على الاخرى ومنيت القوات الصينية بهزيمة منكرة على أيدي القوات اليابانية المسلحة تسليحا حديثا واضطرت الصين لتوقيع معاهدة شيمونسيكي المهينة في ١٧ نيسان ١٨٩٥ التي أعترفت بموجبها باستقلال كوريا وتنازلت عن عدد كبير من الجزر والموانيء الصينية لليابان ودفع غرامة(٩٣) حربية كبيرة ٠

واستغل رجال الدين المسلمون من الذين يقال لكل منهم الاهونغ (أي الامام) فرصة انشغال الحكومة الصينية بالحرب وسحب الجنود الصينيين والمسلمين من الداخل لمواجهة الغزو الياباني واعلنوا الثورة على سلطات المانشو في سينينغ والقرى المجاورة وسرعان ما امتدت الثورة الى هوتشيو والمدن الاخرى(٩٤) من الاقليم ٠

وبسبب انشغال الحكومة فقد عهدت بمهمة القضاء على الثورة الى القائد تونغ فو شيانغ وهو من قادة المذهب الجديد لكنه انحاز الى جانب الحكومة لاسباب شخصية محضة وطمعا في الحصول على المكاسب ٠ وكان قبل ذلك قد ساهم في القضاء على الثورة السابقة في شينسي وفانصو بين ١٨٧٠ و١٨٧٥ ٠ وفي خلال بضعة أشهر من الصراع بين المسلمين وبين القوات الحكومية التي يقودها تونغ فوشيانغ تم تدمير عدة قرى غربي فانصو وشاهد المبشرون الاشجار على جانبي الطريق وهي مزينة برؤوس المسلمين وعاش السكان في مدينة سينيغ فترة من الرعب امتدت عدة أشهر ٠ وفي خلال شهر واحد تم قطع رؤوس آكثر من ثمانمئة مسلم

داخل سينينغ على أيدي السلطات المحلية والقائدتونغ فو شيانغ وصارت الاضطرابات تهدد باحتمال تدخل المسلمين في تركستان الصينية في الصراع(٩٥) • ولم يعد الهدوء الى الاقليم الا بعد بضعة أشهر من التوتر والمجازر الدموية • وكانت مدينة سينينغ أكثر المدن التي عانت من تلك المذابح ، خاصة بين انصار المذهب القديم « لاوتشيو » وحالما عاد الجنود من الحرب الفاشلة مع اليابان انتهت الثورة في صيف ١٨٩٦ معوضي عن تلك الهزيمة بقمع ثورة المسلمين الذين اضطر الكثير منهم الى الهرب الى التركستان واستقروا في الواحات القريبة من بحيرة لوب نور في حين وضع المستسلمون انفسهم تحت رحمة القائد العام(٩٦) الذي كافأته الحكومة بأراض واسعة وعدد من الحصون وحرس قوامه خمسمئة جندي وعاش في فانصو حتى وفاته في شباط ١٩٠٨ •

ج – ثورة تركستان الشرقية ١٨٦٤ – ١٨٧٨ :–

كانت ثورة المسلمين في الواحات الغربية لاقليم تركستان من اوسع الثورات وأكثرها دقة وتنظيما بفضل قيادتها الكفوءة والظروف الجغرافية للاقليم وتواجد المصالح الاجنبية في المنطقة •

تقع تركستان الشرقية التي تتمم تركستان الغربية الروسية بين روسيا وافغانستان غربا والتيبت والهند جنوبا واقليم فانصو شرقا ومنغوليا وسيبيريا شمالا • استولت عليها الصين بين ١٧٥٧ – ١٧٥٩ وكانت مساحتها في ذلك الوقت نصف مليون ميل مربع وعدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة(٩٧) معظمهم من المسلمين • وهم مزيج معقد من الاتراك والمغول العرب منهم الاويغور والازبك والقرغيز والقازاق والطاجيك (صيغة مفرسة لقبيلة طي العربية) وقليل من الصينيين والروس

والافغان ومعظمهم لا يعرفون القراءة والكتابة(٩٨) ·

يقسم تيان شان (جبل السماء) هذا الاقليم الى قسمين شمالي ويعرف بزونغاريا او دونغاريا وتسكنه قبائل الدونغان أو الدونغاريين (نسبة الى دونغاريا) ويمتد بين مدينة ارومجي (ليهوا الحالية) وبحيرة بلكاش ومركزه مدينة خولجا حيث مقر الحاكم المنشوري قرب الحدود الروسية · ويتوفر هذا القسم على ممرات تجارية نحو الغرب · اما القسم الآخر وهو الجنوبي والذي يضم حوض تاريم وصحراء تاكلاماكان فيعرف في الكتب الصينية بأرض المسلمين وفي كتب الغربيين باسم الكاشغرية وكانت مركزه مدينة يارقند منذ عهد خانات المغول ثم تحولت الى كاشغر (شوفو في الوقت الحاضر) وبهذا فأن المنطقة تتمتع بموقع ستراتيجي بين منغوليا والصين والتيبت وروسيا والهند ومنها يمر طريق الحرير العظيم الذي يصل الصين بالغرب ·

كانت الكاشغرية تحت حكم اسرة الخوجات التركية التي تنتمي لفرقة الجبليين البيض عندما وصلتها القوات الصينية فتمكنت من دحرهم واخضاع المنطقة لحكمها سنة ١٨٥٩ وعينت عليها نائبا للامبراطور مقره كاشغر ويتولى ادارة بقية المدن بالنيابة عنه وكلاء سياسيون يتم اختيارهم من قبل السكان المحليين يقال لكل منهم « اعظم بيك » أي كبير البكوات وكانت هناك احدى عشرة مدينة للمسلمين يتبعها عدد من القرى والواحات ·

وهكذا اجازت حكومة بكين لمنطقة الكاشغرية نوع من الاستقلال الذاتي ضمن الامبراطورية الصينية وصار لها نقد خاص ودار للضرب · غير ان الحكام الجدد منعوا المسلمين من الزواج بغ)هم ، وخصصت لغير

المسلمين اماكن خاصة للسكنى في المدن الاسلامية بحيث صارت كل مدينة تتكون من قسمين : قسم قديم للمسلمين وآخر حديث لغيرهم • ولما كانت الحكومة الصينية تتوخى من هذا الاجراء فرض رقابة شديدة على المسلمين فقد عززت سلطاتها في المنطقة بعدد من القلاع والحاميات العسكرية(٩٩) بلغ تعدادها ٦٠ الف مقاتل •

ان النظام الاداري الجديد الذي دشنته السلطات الصينية لم يستمر طويلا اذ سرعان ما دب فيه الفساد وتدخلت المحسوبية والرشاوى في اختيار الاعظم بك وتولى هذا المنصب اناس لا كفاءة لهم وصارت الوظيفة مصدرا لجمع المال وتعسف الحكام وزادوا الضرائب وتعرض المسلمون للظلم والملاحقة مما دفعهم للثورة من خوقند في فرغانة التي كانت تعترف بتبعيتها للصين عام ١٨٢٥ بقيادة زعيمهم جهانكير ابن شاموك بن الخوجه الكبير بعد ان تمكن من جمع القبائل المحيطة بأطراف خوقند واستولى في السنة التالية على كاشغر لكن القوات الصينية وحرته وقضت على ثورته سنة ١٨٢٨ وعادت منطقة كاشغر الى سيطرة الحكومة الصينية التي تركت فيها حامية(١٠٠) مقدارها ثمانية آلاف جندي •

وعلى الرغم من عودة المنطقة الى الحكم الصيني المباشر فانها عانت تفككا سياسيا وانقسمت الى ثلاث مناطق يحكمها الامراء المحليون (بكوات) الاولى في هامي احدى الواحات في شرقي الاقليم وتسمى كومول الآن والثانية هي الكاشغرية في الجنوب والثالثة في اورومجي جنوبي سهل زونغاريا ، هذا التفكك نجم عن ضعف الحكومة الصينية وعجزها عن مواجهة الغزو الاجنبي وقيام الثورات وضعف قوات الحراسة المرابطة في المنطقة وظهور الطامعين في الحكم تحت حماية كل من روسيا القيصرية

وبريطانيا التي كانت كل منهما تسعى لتاسيس نفوذها في التركستان(١٠١) هذا الوضع مكن المسلمين التونكان من السيطرة على كل مدن الاقليم باستثناء يارقند وكاشغر ويانغحصار لوجود حاميات حكومية فيها • وحتى هذه الحاميات لم تعد قادرة على الحصول على دعم الحكومة المركزية فأخذوا يحصنون قلاعهم على سبيل الاحتياط وفي محاولة من حاكم يارقند لتجدب قيام الجنود التونكان الذين يشكلون نصف مجموع قواته بالانضمام الى اخوانهم المسلمين حاول التخلص منهم بقتلهم وحين شعر هؤلاء بما يدبره الحاكم تمردوا أثناء الليل وقتلوا الفين من اتباعه وفتحوا أبواب القلاع ودخلوا المدينة واوجدوا فيها حركة مستقلة • ولم يجد الحاكم وبقية الجنود الذين ظلوا معه بدآ من الانتحار(١٠٢) • هذه الثورة رافقت الثورة في الاقاليم المجاورة شينسي وفانصو التي مرت بنا قبلا فتقدم ثوار تركستان لدعمهم والالتحام معهم في ثورة شاملة قادها يعقوب بك قوشبجي أحد الامراء التابعين لاسرة الخوجات الحاكمة في خوقند •

ولد يعقوب بك الذي نسب نفسه الى آل تيمور (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) من جهة الام سنة ١٨٢٥ في بيشقند من ضواحي خوقند التي كانت تعترف بتبعيتها للصين في ذلك الوقت • وتزوج من اخت امير طشقند الخاضعة لحكم اسياده قبل استيلاء الروس عليها(١٠٣) في سنة ١٨٦٥ •

حصل على تعليمه في مدارس سمرقند ونال شهرة من خلال التعليم في كبريات مدارس بخارى وانغمر خلال ذلك في الامور السياسية وصار على اطلاع واسع على التيارات السياسية في المنطقة التي كانت ساحة للصراع بين البريطانيين والروس في محاولة للسيطرة عليها وسلخها من الصين •

هذا اضافة الى كفائته العسكرية التي برز فيها خلال المعارك التي خاضهـا ضد روسيا عند حوض سيمون الادنى وذاعت شهرته التي اعترف بهـا الروس انفسهم بسبب ما اظهره من بطولة وجـراة في قيادته لحصن آق مسجد سنة ١٨٥٣ مما اهله لان يكون مشيرا وساعدا ايمن لعالم قولي حاكم خوقند الذي شاركه في صد هجمات الروس على منطقة وادي ايلي شمالي تركستان (بينها وبين روسيا) وتمكـن مـن تحقيق انتصارات اكسبته شهرة بين أوساط المسلمين(١٠٤) ٠

وكانت كاشغر في ذلك الوقت تعاني اضطرابا سياسيا ورغب السكان في اقامة حكومة قوية تحفظ النظام وتحقق امالهم تحت زعامة احد امراء اسرة الخوجات وبناء على طلبهم بعث عالم قولي امير خوقند والذي كان في ذلك الوقت في طشقند منشغلا بوضع الخطط لصد الروس الذين هاجموا حدود مملكته من الشمال بعث لهم الامير بزرك خـان بن جهانكير وابن اخي ولي خان حاكم كاشغر سابقا وانتدب معه سنة ١٨٦٤ الامير يعقوب بك(١٠٥) ليساعده على تأسيس حكمه في الكاشغرية ٠

بعد ذلك بقليل وصلت الاخبـار باندحار عالم قولي امام الروس وسقوطه قتيلا في المعركة امام طشـقند سـنة ١٨٦٥ وان الروس احتلوا المدينة (التي صارت فيما بعد عاصمة لولاية تركستان الروسية) وانه قد تم تنصيب حاكم جديد على خوقند بمساعدة امير بخارى مظفرالدين بن نصرالله(١٠٦) (١٨٦٠ ـ ١٨٧٠) ٠ لكن يعقوب بك رفض البقاء في خدمة خدايار الحاكم الجديد لخوقند (١٨٦٥ ـ ١٨٧٥) فواصل سيره في صحبة بزرك خان الى كاشغر وانضم اليهما بعض المسلمين وتمكنا من دخول كاشغر في السنة نفسها (١٨٦٥) وتنصيب بزرك خان حاكما عليها

اما يعقوب بك فقد تولى سلطات عسكرية واسعة يهدف تثبيت النظام الجديد وبسط سيطرته على المدن والواحات المجاورة مثل كوشار وآقصو واورومجي وطرفان وغيرها واخذت الخاميات الصينية تستسلم واحدة بعد الاخرى وتم احتلال يانغحصار ويارقند بعد ان انضم اليه الكثير من الجنود البذخشيانيين (الافغان) حتى صار في أواخر ذلك العام ملكا مطلقا على الكاشقرية بعد ان تخلص من بزرك خان بارساله حاجا الى مكة المكرمة ووضع اساسا بمملكة واسعة جنوبي تيان شان شملت كل حوض تاريم (صحراء تاكلاماكان) من الباميرغربا حتى بحيرة لوب نور شرقا واتخذ لنفسه لقب السلطان يعقوب بك(١٠٧) واستمر يحكمها اثنى عشر عاما •

ثم شرع بتوسيع نفوذه خارج المنطقة فأقام حلفا مع مظفرالدين أمير بخارى الذي انعم عليه بلقب « اتاليك غازي » وهو من القاب التشريف عند حكام بخاري وخوقند (ومعناه من يقوم مقام الاب وتطلق على النبلاء الذين يعملون كمستشارين أو وزراء) وكان مظفرالدين يواجه أيضا الخطر الروسي الذي أخذ يزحف بسرعة نحو بخارى • فكانت مصالح الطرفين مشتركة اذ كانت القوات الروسية ترابط عند نقطة نارين على مسيرة أيام قليلة من كاشغر حيث قامت بتشييد حصون فيها(١٠٨) منذ سنة ١٨٦٨ • وفي حركة مضادة قام يعقوب بك بوضع استحكامات شديدة عند مدينة آقصو •

كذلك توسع يعقوب بك باتجاه زونغاريا واحتل المناطق المجاورة لمدينة اورومجي وعين عليها حاكما من قبله وتعززت قدرته في المنطقة بعد فشل ثورة المسلمين التونكان في شينسي وفانصو حين هرب محمد ايوب

باي ين هو عام ١٨٧٣ مع سبعة آلاف مقاتل الى ارومجي واستقر فيها(١٠٩) ملتحما مع ثورة يعقوب بك ٠

الحق انه لا الطموح الشخصي ولا التعصب الديني كانا كفيلين بتحقيق هذا النجاح لولا حالة التذمر والسخط بين أوساط المسلمين في التركستان وهي العوامل ذاتها التي دفعت الصينيين الى الثورة ضد سلطات المانشو والتي لم تكن تخلو ولاية صينية منها يؤكد ذلك K. Skatchkov (١١٠) القنصل الروسي في Tchougoutchar في ذلك الوقت بقوله « ليس هناك تعصب ديني يدفع التونكان الى الثورة ضد المانشو بل انه السبب نفسه الذي من أجله ثار الصينيون مدة خمسة عشر عاما في كل الاقاليم الامبراطورية الا وهو الاستياء العام من الامتيازات الكثيرة التي ينعم بها المانشو ومن جشعهم وطمعهم » ٠

والواقع ان هذه الثورة كانت تمتلك مقومات النجاح والاستمرار أكثر من غيرها من ثورات المسلمين في الصين ، بفضل كفاءة قيادتها العسكرية وامكاناتها البشرية وموقعها الجغرافي وبعدها عن مركز الامبراطورية وعدم توفر المواصلات مع العاصمة اضافة الى الظروف الدولية التي تحيط بالمنطقة ووقوعها بين أطراف دولية متنافسة سارعت كل منها لكسب ودها وتوثيق علاقتها مع السلطان يعقوب ٠

فروسيا القيصرية التي استغلت ضعف الصين لتنفذ الى مناطق تركيستان الشرقية ارسلت قواتها الى منطقة وادي ايلي في القسم الشمالي في حركة مضادة لبريطانيا (التي كانت تخطط هي الاخرى لحماية امبراطوريتها الهندية) فأحتلتها واحتلت بعدها مدينة خولجا البوابة المؤدية الى زوتعاريا سنة ١٨٧١ وكانت هذه المدينة على أهمية كبيرة

للتجارة والمواصلات مع اواسط آسيا فقامت روسـيا بتحصينها(١١١) ومن أجل التودد الى يعقوب بك اسرع الروس الى توقيع اتفاقية تجـارية معه في العاشر من حزيران ١٨٧٢ واتفقوا بموجبها على الاعتراف بسيادته على الكاشغرية وان يرسل ممثلا له من بلاط القيصر في بطرسبورغ ويقال ان الروس بذلوا لسه المال أيضا غير ان الاتفاقية لم تكـن كافيـة لتطمين الروس خاصة بعد ان وصلت كاشغر بعثـات انكليزية من الهنـد تطلبت روسيا تتهيأ للقيام بعمل عسكري فأرسلت المؤن والتعزيزات الى نقطـة نارين غير ان ثورة داهمتها عام ١٨٧٥ في خوقند أكبر مدن اقليم فرغانه والتي سبق ان احتلتها روسيا في محاولة للفصل بين أمير بخارى ويعقوب بك وصارت تلك الثورة تهدد تركستان الروسية نفسها مما اضطرها لسحب قواتها(١١٢) من أجل التفرغ لتلك الثورة ٠

واضاع يعقوب بك فرصة ثمينة هيأتها ثورة خوقند والتي اطاحت بحكم خدايار سنة ١٨٧٥ وكان بامكانه ان يقدم دعمه للخوقنديين ويشترك معهم في قتال روسيا العدو المشترك ٠ لكنه لم يحرك ساكنا * ولقد فسر البعض هذا الموقف من جانب يعقوب بك بانـه كان بفضل الاموال التي بذلها الروس له ٠ وأكثر من ذلك فقد سرت اشاعات بان يعقوب بك سلم بعض المواقع للروس(١١٣) غدراً ، مما أدى الى تصدع العلاقة بينه وبين أمير بخارى وانخفاض شعبيته ٠ بينما فسر المؤرخون الصينيون هـذا الموقف بانه كان على سبيل الاحتياط لمواجهة الموقف الناشيء من اسقاط حكـومة الشينغ لحلفـائه التونكان في شينسي وقانصو وتمركز القوات الصينية في هذين الاقليمين(١١٤) ، استعدادا لمهاجمة الكاشغرية ٠

ومهما يكن الحال فان يعقوب بك استطاع استغلال الظروف الدولية

لصالح استمرار الثورة - فمن الجنوب جاء الدعم من بريطانيا التي كانت سلطانها في الهند وبورما تضغط على الصين باتجاه التبت ويونان من أجل اقامة دولة حدودية تحمي امبراطوريتها الهندية ، وصارت على استعداد للتغلغل في التركستان بهدف اقتطاع كاشغر عن الصين واتخاذها قاعدة بوجه التوسع الروسي(١١٥) فاسرعت هي الاخرى لاقامة علاقات ودية مع السلطان يعقوب ٠

ومن ناحية يعقوب بك نفسه فأنه ادرك منذ وقت مبكر مزايا الدعم البريطاني وقيمة التحالف معهم في انقاذ مملكته من الخطر الروسي فأجرى اتصالات مع اللورد لورنس نائب الملك البريطاني في الهند (١٨٦٤ - ١٨٧٦) بشأن اقامة تحالف عسكري ضد روسيا وضد الصين أيضا غير ان نائب الملك رفض الدخول في مفاوضات حول الموضوع ٠

وبعد ان اقام يعقوب بك سلطته الواسعة التي امتدت الى حدود روسيا بدأ لورد مايو حاكم الهند الجديد سنة ١٨٦٦ يوطد علاقته معه بناء على تعليمات تلقاها من حكومته ٠وأخذ يمهد لعقد معاهدة صداقة بينهما ٠ وبناء على ذلك وصل كاشغر سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٤ وذلك للمرة الثانية السير دوكلاص فورسايت D. Forsyth على رأس وفد رسمي ٠ وخلال هذه الزيارة لاحظ فورسايت ان ادارة مملكة يعقوب بك كانت تسير على درجة كبيرة من الضبط والنظام وان المجرمين واللصوص والعصاة لا وجود لهم ، وتم التوقيع على معاهدة ودية بين السلطان يعقوب ونائب الملك البريطاني في الهند اعترفت بريطانيا بموجبها بسيادة يعقوب بك على الكاشغرية ومقابل ذلك تم فتح أسواق هذه المناطق للتجارة البريطانية والسماح للرعايا البريطانيين بالتنقل بحرية ومنحوا حصانة دبلوماسية(١١٦) ٠

وكانت للانكليز مصلحة في ان يروا تركستان الشرقية تتحول الى دولة مسلمة تخضع لهم وفي اطار علاقتهم المعادية للروس ساهموا بالتقارب بين يعقوب بك والدولة العثمانية • وما عدا ذلك فانهم لم يتعهدوا بتقديم الدعم العسكري ضد روسيا أو الصين وهو ما كان يعقـوب بك يسعى لتحقيقـه •

ويوضح لنا بولغر D. Boulger كاتب سيرة يعقوب بك أسباب ذلك بقوله ان الغرض الاصلي لبعثة شورسايت هو تقدير الوضع السياسي في تلك البقعة من العالم ، وقد وجد يعقوب بك ان وجود السير فورسايت في كاشغر عاملا مشجعا له لانه كان في ذلك الوقت مهددا بهجوم عسكري من قبل روسيا غير ان المندوب البريطاني لم يتعهد ليعقوب بك بشيء عملي • وكان السبب واضحا لانه وجد ان مصالح بريطانيا في الهند في مأمن من الناحية الشمالية بفضل وجود جبال هملايا الفاصلة بين الهند وتركستان فاكتفى فورسايت بالتوقيع على معاهدة الصداقة دون التعهد بالدفاع العسكري المشترك •

وطبقـا للمعاهدة وارضاء ليعقوب بك عمدت بريطانيا الى الضغط على الصين بواسطة وزيرها المفوض في بكين من أجل التخلي عن ثمانيـة مدن وهي المدن الرئيسة في الكاشغرية لسيادة يعقوب بك اي الاعتراف باستقلاله في تلك المنطقة • وفي الوقت نفسه أخذ الوزير الصيني المفوض في لندن يحث حكومته على اتخاذ مثل تلك الخطوات هذا اضافة الى وجود عدد من المستشارين في البلاط الصيني ممن كانوا يفضلون منح يعقوب بك حكما ذاتيا بسبب تدهور الوضع في الامبراطورية وتكاليف الحملات الباهضة(١١٧) على مثل تلك المنطقة النائية •

ومن اقصى الغرب جاء الدعم من الامبراطورية العثمانية التي كانت هي الاخرى في صراع مع روسيا القيصرية عشية الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧ – ١٨٧٨ فأسرعت الى تبادل البعثات مع يعقوب بك فوصل كاشغر عدد من الضباط الاتراك للمساعدة على تنظيم الجيش وتدريبه على فنون الحرب والصناعات الهندسية ومقابل ذلك اعترف يعقوب بك بالسلطان العثماني (توفي السلطان عبدالعزيز سنة ١٨٧٦ وخلفه السلطان عبدالحميد الثاني) خليفة للمسلمين وصار يعقوب بك اميرا(١١٨) ، على الكاشغرية .

غير ان الدعم المعنوي لم يكن ذا فاعلية في مثل تلك الظروف ان لم يكن مصحوبا بالدعم المادي والعسكري ، فقيام دولة في مثل هذا الاقليم الفقير والمعزول عن العالم يتطلب أموالا كثيرة وبريطانيا لم تعد بشيء من ذلك . وحتى الدولة العثمانية التي كان سلطانها شديد الرغبة في ان يرى نفوذه قد امتد على مسلمي الشرق لكنه لم يكن قادرا على تقديم المساعدات المطلوبة بسبب ظروف الحرب مع روسيا وبعد المسافة عن الصين والاوضاع المتردية للدولة العثمانية .

وفي محاولة من يعقوب بك لتوفير المال وشراء السلاح لادامة الثورة اعتمادا على الطاقات الذاتية المحدودة لجأ الى فرض ضرائب كثيرة لم يعتادها السكان خاصة بعد ان تدهورت اوضاعهم المعاشية بسبب انقطاع التجارة التي هي المصدر الاساسي لمدخولاتهم مما ادى الى تناقص شعبيته(١١٩) واذا اضفنا الى ذلك الاتهامات التي وجهت اليه لعدم دعمه للثوار الخونديين ضد روسيا عام ١٨٧٥ وتسليم بعض المواقع للروس فان ذلك من العوامل المساعدة على انتشار التذمر وشعور السكان بان الاستمرار في الثورة لم يعد يحقق مصالحهم .

ومن جهة بريطانيا وروسيا فانهم بقـدر ما كانوا راغبين في رؤية الصين ضعيفة ممزقة ، فانهـم لم يعودوا راغبين في قيام دولة قـوية في تركستان تحول دون اطماعهـم ، وصـاروا يفضلون عودتها الى الصين الضعيفة بدلا من بقائها بيد يعقوب بك هذا في الوقت الذي تمكنت فيه الجيوش الامبراطورية الصينية من تصفية حساباتها مع معظم الثورات والحركات المناوئة بفضل مسـاعدة الاجانب ٠ وان احتفاظ يعقوب بك بسلطته على كاشغر لم يعد يمكن السكوت عنه ٠

فبعـد ان فـرغ القائد تسـو تسونغ تانغ (٦٥ عاما) من ثورات المسلمين التونكان في شينسي وفانصو سنة ١٨٧٣ رفع مذكرة الى البلاط المنشوي يحثه على اتخاذ عمل عسكري ضد يعقوب بك « ان الاضطرابات والثورات ستتوالى الى ما لا نهاية ان رفعنا ايدينا عن الامور في تركستان من الآن ٠٠٠ اذا كانت بريطانيا مخلصـة في اقتراحهـا – منح تركستان الاستقلال ـ وتريد كسب صداقة يعقوب بك حقا فلتتنازل له عن جزء من الهند(١٢٠) ٠

هـذا الموقف الصلب الذي اتخذه تسو تسونغ تانغ كان عاملا في افشال خطط بريطانيا حول استقلال تركستان فقد صدرت الاوامر سـنة ١٨٧٥ بتعيينه قائدا عامـا لاعـادة سلطة الصين وسيادتها على المنطقة ، فوصل في السنة التالية الى سوتشو غربي فانصو واتخذها مقرا لعملياته العسكرية ٠ ومن أجل تأمين نجاح الحملة وتمويلها فقد عقد قرضا مع الاجانب مقداره ٠٠٠ر٧٥٠ر١٣ مثقال فضة(١٢١) ٠ ويقـال ان الحملة كلفت الحكومة الصينية ثلاثين مليون باون استرليني ٠ ثم قـام بتوزيع قواته وتقسيمها الى ثلاث فـرق للزحف على تركسـتان من ثلاثة طـرق

وتمكنت هذه القوات من احتلال اورومجي وهامي مفتاح الغرب سنة ١٨٧٦ واضطرت قوات يعقوب بك الى اخــلاء مواقعها وقلاعها وتراجعت نحـو كاشغر . كما تمكنت القوات الحكوميــة من احتــلال طــرفان المؤدية الى جنوب تركستان التي تراجع قائدها محمد أيوب باي ين هو نحو كاشغر . واخذت المدن تتساقط الواحدة بعد الاخرى ووجد يعقوب بك ان قواته لا تتمكن من الصمود بوجه هذا الجيش المسلح تسليحا حديثا وتناقص اعوانه فاقدم على الانتحار في كورلا في الاول من ايار ١٨٧٧ وتم دفنه في كاشغر ، بعد ان استمر حكمه ثلاثة عشر عاما . ودب الشقاق بين أولاده فتمكن أكبرهم وهو تولي بك من قتل أخيه الاصغر خيرالله ونادى بنفسه ملـكا على الكاشغرية وانتشـر الشقاق بين الرؤســاء والقادة في مـدن الولاية .

وفي الوقت الذي أخذت فيه مقاومة المسلمين تتضائل كانت قوات المانشو تزحف نحو كاشغر وفر محمد أيوب نحو روسيا مع عدد قليل من اتباعه وسقطت المدينة في ١٧ كانون الاول ١٨٧٧ ثم سقطت يارقند وختن ويانغحصار وتم اعدام زوجة يعقوب بك وثلاثة من ابنائه وقتل معهم ١٢٦٦ مسلم وتم تدمير مئات القرى(١٢٢) .

وفي السنة التالية تم احتلال بقية المدن وعادت تركستان مرة أخرى تحت الادارة الصينية ويقال ان روسيا القيصرية كانت تدعم سراً الحكومة الصينية في القضاء على هذه الثورة وانها وعدت منذ احتلالها خولجا عام ١٨٧١ بالانسحاب منها حالما تتمكن الصين من اســتعادة سلطتهــا في المنطقة(١٢٣) وقد ادركت في الاخير ان نهاية يعقوب بك قريبة وان من الافضل لها ان تقيم علاقة طيبة مع جارتها الصين .

وبعد عودة الادارة الصينية الى تركستان تم تعيين حاكم صيني عام على كاشغر التي صارت مقرا للقنصلين الروسي والبريطاني ، وحاكم على كل مدينة من المدن الاحدى عشر التي تتألف منها المنطقة يساعد كل منهم قائد عسكري وقاض وفي عام ١٨٨١ ارسلت الصين وفدا الى روسيا تمكن من عقد معاهدة ايلي التي تخلت روسيا بموجبها عن منطقة وادي ايلي ٠ وبعد سنتين اعطت الحكومة الصينية تركستان استقلالا ذاتيا وصارت تسمى سنكيانغ(١٢٤) أي الولاية الجديدة ٠

خلاصة ونتائج :ـ

ان النجاح الذي حققه المسلمون في الصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد دفع بالكثير من الغربيين الى اتخاذ نظرة متشائمة حول مستقبل الصين وتوجسهم من ان الاسرة الجديدة التي ستحكمها بعد المانشو ستكون مسلمة مما يهدد بتغيير وجه العالم ٠

فالاستاذ الروسي Vasilev يحذر سنة ١٨٦٧ في كتابه « مسلمو الصين » من مستقبل الاسلام والاخطار التي تتهدد الصين واحتمال تحولها الى دولة اسلامية كبرى ٠ وقد شاركه هذا الرأي كل من الدكتور Anderson عندما كتب عن يونان بعد انتهاء ثورتها وكذلك A. Wylie الذي نشرت آراءه مجلة ادنبرة Edinburyh Review ١٨٦٧(١٢٥) ٠

وعلى الرغم من تلك النجاحات فقد واجهت انتفاضات المسلمين وثوراتهم انتقادات شتى ولوماً كبيرا باعتبار انها كانت سببا لاضعافهم وفقدان أكثر من ربع عددهم اضافة الى أنها فرقت صفوفهم وعملت على تأخير مستواهم الثقافي بالنسبة للفئات الاخرى من المجتمع الصيني(١٢٦) ٠

والواقع من الصعوبة بمكان تقدير حجم الخسائر التي تعرض لها المسلمون بسبب تلك الثورات وقد قدرتها بعض الجهات خلال الفترة ١٨٦٢ ـ ١٨٧٨ بحوالي عشرة ملايين شخص وأدت الى تقييد حريتهم ولم يعد يسمح لهم بالسكنى داخل الكثير من المدن أو التملك أو فتح المتاجر(١٢٧) فتعطلت اعمالهم وتناقص عددهم بشكل واضح .

هذه التضحيات تتلاشى امام الوقائع التي تم استعراضها في الصفحات السابقة فتلك الثورات كان لابد منها ان اراد مسلمو الصين الحفاظ على هويتهم الاسلامية وشخصيتهم المتميزة التي حاولت حكومة المانشو طمسها . ولقد اتصفت تلك الثورات بطابعها الوطني اضافة الى نهجها الديني فلم يكن تختلف بحال من الاحوال عن ثورات الصينيين انفسهم والتي لا يكاد يخلو منها اقليم من أقاليم الصين الثمانية عشر . هذه الثورات كانت تمثل في حقيقتها ثورة الاقليات ضد التفرقة العنصرية والاضطهاد وتعسف الجهاز البيروقراطي للمانشو وسعيهم لمصادرة الاراضي واثقال كاهل السكان بالضرائب .

ان ادعاءات بعض الكتاب الصينيين والغربيين على السواء من ان التعصب الديني كان الباعث لتلك الحركات تتلاشى أمام الوقائع السابقة فلقد توفرنا على عدد من النصوص التي تدحض تلك الادعاءات . فعلى سبيل يذكر كوردية Cordier ان تسعة أعشار المسلمين في يونان واعداد كبيرة منهم في المناطق الاخرى لا يعرفون من العربية سوى « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله اكبر »(١٢٨) مما يدل على عدم تعمقهم في الدين وفهمهم له فهما سطحيا جعلهم يتساهلون في الكثير من أوامر

لا يفكـرون ابدا في انشــاء حكـومة ولا يريدون الا الذود عنن حياتهـم الشريعة • يؤكد ذلك أيضا الاب داود(١٢٩) بقوله « ان مسلمي شينسي وممتلكاتهم • وان كانت الثورة قـد اشتدت وامتدت ذاك الامن عسف العسكرية ونهبهم للاهالي • وليس مسـلمو الصين متعصبين كمسلمي الغرب وجميع اسلامهم الاعتقاد ببعض المبادي الاسلامية » • ويذهب جون اندرسون(١٣٠) الى ان ثورة يونان كان سببها ظلـم ولاة الصـين وهـو الشيء الذي أكده بروموهال •

والقنصل الروسي سكانشكوف(١٣١) يؤكد « ليس هناك تعصب ديني يدفع التونكان الى التمرد ضد المانشو ولكن السبب نفسه الذي من أجله ثار الصينيون مدة خمسة عشر عامـا في كل اقاليم الامبراطورية الا وهو الاستياء العام من الامتيازات التي ينعم بهـا المانشيـو ومن جشعهم وطمعهم » وغير ذلك من النصوص •

ولكن مما يؤخذ على تلك الثورات هو طابعها المحلي وفقدان التعاون والتنسيق فيمـا بينهـا وعـدم توفرها على أهداف سياسية واضحة على العكس مما يوجهه اليها البعض من انتقادات وتهم في انها تهدف الى اقامة دولة اسلامية عالمية • هذا اضافة الى جهل بعض قادتها وعدم اطلاعهم على تيارات السياسة الدولية وافتقارهم الى الكفاءة والى الاجهزة الادارية • بل ان بعضهم لم يكن قد اطلع على جوهر الاسلام الحقيقي بشكل مباشر مما أدى الى تسلل الكثير من العناصر المعادية للاسلام والمرتبطة بالاجانب وبالتالي فقـدان تلك الثورات عنصـر الانسجام بين قادتهـا ممـا سبب انشقاقات خطيرة كانت سببا في تصفية تلك القيادات جميعا دون استثناء والحاق افدح الخسائر بالمسلمين •

ومن ناحية أخرى استغل الاجانب تلك الثورات لتحقيق اطماعهم في

الصين التي كانوا يرومون اضعافها وتقطيع أوصالها وقد هيئت لهم تلك الثورات فرصة التدخل . واعتقد المسلمون ان هؤلاء كانوا صادقين معهم فمدوا لهم ايديهم بهدف الحصول على الدعم المادي والعسكري . ولما شعر الاجانب بخطورة تنامي الحماس بين صفوف المسلمين والنجاحات التي حققوها مما يهدد بالقضاء على مصالحهم في الصين بادروا الى دعم الحكومة الصينية في القضاء عليها وتصفيتها .

وفي اية حال فان تلك الثورات نبهت المسلمين في الخارج الى ضرورة ابداء اهتمام اكبر بحالة اخوانهم في الصين . وقد خطر للسلطان عبدالحميد الثاني ان يتصل بهم واوفد احد رجاله « انور باشا » سنة ١٩٠٠ بقصد نشر الدعوة له بالخلافة كما انه اوفد بعد ذلك عالمين الى بكين قاما بانشاء بعض المدارس لكن شكوك الحكومة الصينية في نوايا الدولة العثمانية(١٣٢) افشل تلك الجهود .

الهوامش :ــ

(١) استفدت مما نقله عنه محمد فريد وجدي في دائرة معارف القــرن العشرين م٥ الصين •

(٢) محمد مكين الصيني ، الاسلام في الصين ، ضمن كتاب حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٧١ ـ ٢٨١ •

(3) W. Eberhard, Ahistory of China, (Lon. 1950) p. 313.

(٤) استفاد البحث مما نقلته دائرة المعارف الاسلامية عن هــذه الكتب والتقارير م١٥ وكذلك كتاب حاضر العالم الاسلامي الجزء الثاني •

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٦ ـ ١٦ •

(6) Eberhard, op. cit. p. 279-290.

(7) N. Peffer, The Far East, Amoderm History (Michigan 1958) p. 60-80, 120-127.

(٨) مملكة تايبنيغ ، سلسلة كتاب تأريخ الصين الحديث الصادرة عن دار الشعب بشنغهاي (دار النشر باللغات الاجنبية ـ بكين ١٩٧٧) صفحات متعددة •

(٩) كتاب الحركة الاصلاحية ، سلسلة كتب تأريخ الصين الحديث ، الصادرة عن دار الشعب بشنغهاي (دار النشر باللغات الاجنبية بكين ١٩٧٨) ص ٢٨ ، ١٠٣ •

(10) M. Broomhall, Mohammedan poputation of China, in The Mos. Wor. Vol. I, 1911, p 32-34.

دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١ ـ ٣ ، دائرة معارف القرن العشرين ٥/٦١٩ •

(11) Chinese Year. Book, Chungking 1948. Muslims in China p. 34-36.

(١٢) بدرالدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٠ ـ ٢٤ .

(١٣) قيصر أديب مخول ، الاسلام في الشرق الاقصى ، ترجمة نبيل صبحي (بيروت ١٩٦٦) ص ١٧ و

Peffer, op cit, p 42.

(١٤) دائرة المعارف الاسلامية ١٤/٤٧١ .

(15) M. Broomhall, Isham in China, Aneglected problem Shanghai 1910, p. 18-27.

(١٦) بدرالدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين ص ٣٦ ـ ٢٨٧ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٨ ،

Broomhall, Islam p. 167-176.

(١٧) توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام (القاهرة ١٩٧٠) ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(١٨) بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين في الصين (بيروت١٩٧٤) ص ٣٣ ـ ٣٥ .

(١٩) بدرالدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين ، ص ٢٨٧ .

(20) Eberhard, op cit, p. 309.

(21) Broomhall, Islam p. 228-231.

(٢٢) نص المرسوم في كتاب آرنولد ، الدعوة الى الاسلام ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

(23) M. Broomhall, in The Mos. Wor. Vol. I, 1911, p 34-35.

(٢٤) آرنولد ، المصدر السابق ، ص ٣٤١ .

(٢٥) آرنولد ، المصدر نفسه ص ٣٤٤ ، بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(26) Jean Chesneaux, Le mouvement Paysan Chinois. ed. du. Seuil 1978, p 41.

(27) Isaac Mason, in The Mos. Wor. Vol X, 1920 p. 164.

(28) James Huston, in The Mos. Wor. Vol X, 1920 p 252-254, Broomhall. Islam p. 224-225.

(٢٩) محمد مكين الصيني المصدر السابق ص ٢٧٢ .
Eberhard. op cit p. 313.

(30) Eberhaad op cit p 313.

(31) Broomhall. in The Mos. Wor. Vol, I, 1911, p. 46-47.

(32) Bromhall, Islam p. 124-127.

(٣٣) بدرالدين حي الصيني تاريخ المسلمين ص ٨٧ ـ ٨٨ نقلا عن المؤرخ الصيني
Shiao yi-shan

(34) De Thiersant, le mahometisine en chine p 122. quoted in Broomhall, Islam p. 129.

(35) De Thirsant, op cit p. 129.

(٣٦) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨٩ ـ ٩٠ ،

(37) Broomhall, Islam p. 129-131.

(٣٨) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٩٠ ـ ٩١ ،
Broomhall, Islam p 131-132

(٣٩) نص البيان في مجلة
Edinburyh Review, Vol. XXVII 1968
حول ذلك انظر :

Broomhall Islam p, 132.

(40) Jean Chesneaux, Marianne Bastid, Marie-Claire Bergere. China From The Opium Wars To the 1911 Revolution, Trans. From the French by Anne Destenay, (New york 1976) p 113-114.

(٤١) مملكة تايبينغ ص ١١٤ .

(42) Broomhall. op cit, p. 133-134.

(٤٣) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٢٨ .

(٤٤) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(45) Broomhall, Islam p. 136-137,

(46) Chesneaux and Other, China p. 114.

٤٧ـ فهمي هويدي ، المصدر السابق ص ١١٣ .

(٤٨) محمد بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار بمستودع الامصار (مصر ١٣٥٢) ١/٢٥ .

(49) Broomhall, Islam p 138.

(٥٠) صفوة الاعتبار ١/٢٤ .

(٥١) آ. ابشتاين ، مولد الصين الشعبية ترجمة حسين تمام (القاهرة ١٩٥٧) ص ٣٤ .

(٥٢) دائرة معارف القرن العشرين ٥/٦١٨ ـ ٦١٩ .

(53) Broomhall, Islam p. 140.

(54) Broomhall. Islam p 138-139.

(55) Rocher. La Province Chinoise du yunnan (paris 1880) quoted in Brooinhall. Islam p. 139-140.

(56) Op. Cil, p. 140.

(٥٧) مقتبسة عن :

(57) Broomhall, Islam p 142-143.

S. Tikhvinski
Histoire de La chine les temps moderns! Moscou 1983, p. 259,

(58) Bromhall, Islam, p 131, 143.

(٥٩) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٤٦ ٠

(60) Chesneaux. China p, 114.

(61) Bromhall. Islam p 144,

(62) Brbomhall. Mohammeran population in The Mos. Wor. Vol I, 1901, p. 36-37,

(٦٣) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٤ ــ ٨ ، حاضر العـالم الاسـلامي ٢/٢٢٠ ، ٢٤٧ ٠

(64) M. E. Botham, Islam in Kansu in the Mos. Wor. Vol X. 1920, p 377-390,

(65) De Thiersaut, le Mahometisme en Chihe, p 233 quoted in Broomhall, Islam p 148.

(66) FU Thong-hsien, Chinese Muslim History. p, 140-141.

نقلا عن بدرالدين الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٦٥ ــ ٦٦ ٠

(٦٧) بدرالدين الصيني تاريخ المسلمين ص ٦٧ ــ ٦٨ ٠

(68) Broomhall, Islam p 150

(69) Tikhvinski. op cit p 259.

(70) Chesneaux, China, p 114.

(٧١) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٦ ، حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٨ ٠

(٧٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١٥ ــ ١٧ ، حاضر العالم الاســلامي ٢/٢٤٠ ٠

(73) Tikhvinski, op cit, p. 259.

(٧٤) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٦٨ ــ ٧٠ ٠

(٧٥) المصدر نفسه ص ٧٠ ٠

(76) Broomhall, Islam p. 154.
(77) Chesneaux, China p 115.
(78) Tikhvinski op cit. p. 261.

(٧٩) بدرالدين حي الصيني : تاريخ المسلمين ص ٧١ .
(80) Chesneaux China, p 115.

(٨١) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٧١ .

(٨٢) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٥ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١٠ .
(83) Tikhvinski, op cit p 259.
(84) Broomhall, Islam p 155.
(85) Chesneaux. China p 115.
(86) Tikhuinski, op cit p 260.

(٨٧) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٤ .
(88) Broomhall, in the Mos. Wor. Vol. I, 1911 p 36.

(٨٩) الحركة الاصلاحية ، مصدر سابق ص ٢٨ — ٢٩ .

(٩٠) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٤ .

(٩١) فهمي هويدي ، الاسلام في الصين ص ١١٦ — ١١٧ عن دراسة غير منشورة للباحث الصيني (ل.ه) وانظر كذلك :
H. D. Hayward, The Kansu Moslems in the Mos. Wor. Vol, XXIV 1934, p 75-77.

(92) Broomhall. Islam p 161.
(93) Peffer, op cit p 149-152.
(94) French Ridley, Moslemes of China and the Republic in the Mos. Wor. Vol, III 1913 p 386.
(95) Broomhall, Islam p 162.
(96) G. K. Harris, The Rebelion in Kansu, in the Moslem World Vol, XIX 1929 p 291; F. Ridley op cit, p 386.

(٩٧) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٣٥ .

(98) G. W. Hunter, The Chines Moslems of Turkestan in the Mos. Wor. Vol X, 1920 p 168.

محمود شاكر تركستان الصينية (بيروت ١٩٧٩) ص ٣٣ .

(٩٩) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٥٤ ـ ٥٨ .

(100) Tikhvinski, opcit p 260.

(101) Chesneaux. China p 191.

(102) Broomhall. Islam p 156-157.

(١٠٣) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٧٤ .

(١٠٤) محمد بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ١/٢٤ .

(١٠٥) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(١٠٦) ارمينوس فاميري ، تاريخ بخارى ، ترجمة احمد محمود السامرائي (القاهرة د٠ت) ص ٤٦٥ .

(١٠٧) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(١٠٨) فاميري ، المصدر السابق ص ٤٧١ .

(109) Tikhvinski op cit p 261.

(110) IBID. p 260.

(111) F.C.H. Clarke, Kuldja, in the Royal Geographical Society Vol, II 1880 p 491.

(١١٢) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٧٧ ـ ٨٠ .

(١١٣) فاميري : المصدر السابق ص ٤٧١ .

(١١٤) المؤرخ الصيني Pei Shao-yi نقلا عن بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨٠ .

(١١٥) آبشتاين ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(116) Sir D. Forsyth, Report and General Desciption of Kashgar (Lon 1865) Quoted in Tikhvinski, op cit p, 260 and in Broomhall. Islam p 158.

(117) D. G. Boulger, The life of yakoob Beg (Lon. 1878).

كما وردت عند بدرالدين الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨١ .

(١١٨) محمد بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ١/٢٤ .

(119) EBERHARD. op cit p. 314.

(١٢٠) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨٢ .

(121) Chesneaux China p. 165.

(١٢٢) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨٢ ــ ٨٥ .

(123) F. C. H. Clarke, Kuldja in The Roy, Geo, Soc, Vol II 1880 p 491.

(124) EBERHARD, op cit p 315; Chesneaux Chino p 116.
Bromhall, Islam p 158.

(١٢٥) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٢٩ ، ٢٤١ ،

(١٢٦) محمود شاكر : تركستان الصينية (الشرقية) ص ٤٦ .

(127) Broomhall Islam p 162-163.

(١٢٨) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٥١ .

(١٢٩ ، ١٣٠) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٤٨ .

(131) Tikhvinski. ou cit p 260.

(١٣٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١٩ ، حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٨ ، ٢٤٠ .


إمبراطورية الصين
١٧٥٠ - ١٩٠٠
كشمير
افغانستان

الولايات المتحدة ومسألة ملء الفراغ بعد انسحاب القوات البريطانية من الخليج العربي

الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد / كلية التربية

١ ـ تمهيـد :

ظل الوجود البريطاني السياسي والعسكري والاقتصادي قائما في الخليج العربي أكثر من مائـة وسبعين عاما وذلك استنادا الى معاهدات الحمـ ية التي فرضتها بريطانيـا على امارات ومشايخ هـذه المنطقـة ، واعتبرت نفسها بموجبها مسؤولة عـن علاقاتها الخارجية وحمايتها ضـد أي خطر آخر(١) • وفي خلال هذه الفترة ، وبالذات منذ ثلاثينيات هذا القرن ، ازدادت أهمية منطقة الخليج في الموازين الاقتصادية والاستراتيجية البريطانية بسبب اكتشاف النفط ، مما جعلها تتشبث بالبقاء فيهـا . خصوصا وانها كانت تحصل على معظـم حاجتها من النفط من منطقـه الخليج ، وان شركاتها ـ الى جانب الشركات الامريكية ـ كانت تقـوم بمجمل عمليات انتاج النفط وتسويقه(٢) •

ومع هـذه الاهمية أعلنت حكومة العمال البريطانية في أوائل عام ١٩٦٨ عن قرارها بانسحاب القوات البريطانية من الخليج العربي بحلول نهاية عام ١٩٧١ • ترى ما هـو السبب وراء الانسحاب البريطاني من الخليج ، وهل سيترك هذا الانسحاب فراغا سياسيا وعسكريا ، واذا

كان الامر كذلك ، فهل ستقوم الولايات المتحدة بملىء هذا الفراغ ، أم أن بمقدور القوى المحلية في المنطقة أن تملأه ؟ للاجابة على هذه التساؤلات يجدر بنا ان نتعرف أولا على السبب أو الاسباب التي دفعت بريطانيا عام ١٩٦٨ الى ان تعلن عن نيتها في الانسحاب من منطقة الخليج العربي ٠

وجدير بالذكر ان هذا البحث قد اعتمد على عدد غير قليل من البحوث والمقالات الانكليزية الحديثة ، التي قد لا يعرف كثير من القراء العرب شيئا عنها ، ومن بينها تلك التي كتبها مسؤولون بريطانيون كان بيدهم الحل والعقد في شؤون منطقة الخليج (مثل السترولیام لوس) وهذا مما يعطي لتلك الاراء وزنا خاصا ، لكونها تعبر عن وجهات نظرهم أو بمعنى آخر - وجهات نظر الحكومة البريطانية ٠ هذا والبحث ليس أكثر من محاولة لرصد جذور ودوافع الانسحاب البريطاني ، وموقف الولايات المتحدة من ذلك ، سواء قبل عملية الانسحاب أو بعدها ٠

٢ - الانسحاب البريطاني من الخليج العربي : دوافعه وإسبابه :

لم يكن التغير الذي طرأ على السياسة البريطانية وتبدل اهتماماتها من الشرق الاوسط الى الجنوب والخليج العربي قد حدث بصورة عفوية ، وانما يرجع الى التدهور السريع الذي لحق بالنفوذ البريطاني في المنطقة ككل ، بخاصة بعد فشل العدوان الثلاثي (البريطاني - الفرنسي - الاسرائيلي) على مصر عام ١٩٥٦ ٠ وعندئذ اعتمدت بريطانيا في سياستها الدفاعية على القواعد العسكرية في شرقي السويس - .وتعني المنطقة الواقعة بين عدن وكينيا غربا وسنغافورة شرقا بما في ذلك الخليج العربي(٣) ٠ وقراءة لاحداث التاريخ فان هذه الخطوة الباهضة بدت نوعا

من المفارقة ازاء انهيار بريطانيا السريع بسبب أحتدام مشاكلها الاقتصادية في الداخل مع نفقات الدفاع ما وراء البحار . ولما كانت الاعباء الملقاة على بريطانيا ، باهضة للغاية فانه مع تقلصها تمت تعرية تأثير بريطانيا لدى العديد من دول المنطقة ، ومن بينها دول الخليج العربي .

في خلال هذه الاحداث والتغيرات ازدادت أهمية عدن في السياسة البريطانية في الستينات ، وجرى التأكيد على ضرورة الاحتفاظ بها مهما كان الثمن ، لانها تخدم كقاعدة حيوية في ارسال المساعدات والامدادات الى كل من الخليج العربي ، وشرق افريقيا وجنوب شرق اسيا وهونك كونك(٤) . الا ان الوجود العسكري البريطاني واجه صعوبات كبيرة في عدن والجنوب العربي ، وذلك بفضل نمو الروح القومية المعادية للاستعمار وقيام الحركات الوطنية التحررية في الجنوب العربي ، مما دفع بحكومة العمال البريطانية الى اصدار عدة تصريحات تشير الى اعتزامها الانسحاب نهائيا من عدن والمحميات في موعد لا يتجاوز عام ١٩٦٧(٥) ، وقد تضمنت تلك التصريحات ــ على حد قول ديفيد لونك الاشارة الى القول « بأنه من الافضل لبريطانيا مغادرة المنطقة قبل ان توضع أمام الامر الواقع من قبل الحركات التحررية التي تطورت بشكل كبير في المنطقة » .

وفي ضوء ذلك أصبحت بريطانيا تعير مسألة زيادة قواتها العسكرية في الخليج العربي أهمية خاصة ، اذ لم تربط وجود هـذه القوات بقضية دفاعية فحسب وانما ربطتها بمسألة المحافظة على المصالح النفطية هناك . اذ كانت بريطانيا في منتصف الستينيات تمتلك حوالي ثلث حجم الاستثمارات النفطية في منطقة الخليج ، وتحصل على حوالي ألف مليون باون سنويا ، وتستورد نصف حاجاتها من النفط من المنطقة نفسها(٦) .

ولذلك فقد ادعت بريطانيا بأن انسحابها من الخليج سيزيد من حدة الصراع الداخلي بين امارات الخليج العربي من جهة ، وبينها وبين جاراتها الاكبر منها حجما من جهة أخرى ، وهو أمر قد يحول المنطقة الى حالة شبيهة بتلك التي أصبحت عليها عدن قبل انسحاب القوات البريطانية منها(٧) . والسؤال الذي يبرز هنا : كيف زادت بريطانيا من عدد قواتها في الخليج العربي وما هو سر تراجعها المفاجيء عن هذا الامر ؟

ان زيادة الوجود العسكري البريطاني في منطقة الخليج العربي قد جاء استنادا الى الكتاب الابيض الذي أصدرته وزارة الدفاع البريطانية في عام ١٩٦٦ ، والذي تضمن الاقتراح بالتخلي عن قاعدة عدن وزيادة عدد القوات البريطانية المرابطة في الخليج(٨) . وقد كان لهذا القرار أثره الواضح في مضاعفة عدد القوات البريطانية الموجودة في منطقة الخليج ، بحيث أصبحت تتراوح ما بين سبعة آلاف الى ثمانية آلاف رجل ، وذلك بعد اضافة ثلاثة آلاف رجل من قاعدة عدن في نهاية عام ١٩٦٧(٩) . وفي غضون ذلك قامت الحكومة البريطانية بعدد من الاجراءات والترتيبات لضمان بقاء قواتها في الخليج منها قيامها بعقد عدد من الاتفاقيات مع بعض حكام منطقة الخليج ، زادت بموجبها مساعداتها المالية لهم ، وذلك مقابل استمرار وزيادة عدد القوات البريطانية ، وبقاء القواعد البرية والجوية في المنطقة(١٠) .

بيد ان بريطانيا سرعان ما تراجعت عن سياستها هذه ، وذلك في الكتاب الابيض الذي أصدرته وزارة الدفاع البريطانية في عام ١٩٦٧ ، ودعت فيه الى تخفيض القوات البريطانية من شرق السويس ومن ضمنها الخليج العربي ، واوضحت بان سبب ذلك هو الضغوط السياسية

والاقتصادية التي كانت تعاني منها بريطانيا(١١) • ولعل السبب في هذا التحول المفاجيء في سياسة بريطانيا في الخليج ، والذي كان الاساس لاعلان الانسحاب البريطاني في عام ١٦١٨ ، هو ان الحكومه البريطانيه ادركت ان وجودها العسكري أصبح لا مبرر له ، وذلك لما يؤديه من اثارة الروح الوطنية المناهضة لها • ولهذا رأت أنه من الافضل المحافظه على مصالحها بأسلوب جديد ، كاستبدال معاهدات الحمايه القديمه بمعاهدات صداقة مع حكام المنطقة وامرائها ، أو التخلص من الحكام الذين يقفون عقبة في سبيل تنفيذ مخططها ، كما هو الشأن عند تنحيتها للشيخ صقر ابن سلطان القاسمي حاكم امارة الشارقة في عام ١٩٦٥ لتمشيه مع التيار القومي العربي ، أو تشجيع وصول بعض الحكام الاكثر استنارة كما هو الحال مع السلطان قابوس بن سعيد سلطان مسقط الذي خلف والده سعيد بن تيمور(١٢) •

ووفقا لهذا التصور فقد أصبح واضحا بان الوجود العسكري البريطاني في الخليج العربي سيكلف بريطانيا الكثير من الخسائر وسيسبب لها الكثير من المتاعب ان هي قررت البقاء فيه ، وكانت تلك هي النتيجة النهائية التي توصلت اليها حكومة العمال البريطانية عندما اعلنت اعادة النظر في سياستها الدفاعية في كانون الثاني عام ١٩٦٨(١٣)• ولهذا فقد اعلن هارولد ويلسون ، رئيس الوزراء البريطاني آنذاك ، أمام مجلس العموم البريطاني في السادس عشر من كانون الثاني ١٦٩٨ الآتي :

« لقد قررنا الاسراع بسحب قواتنا من مواقعها من الشرق الاقصى في نهاية عام ١٩٧١ • كما قررنا أيضا ان نسحب قواتنا من الخليج في نفس الوقت » •

وعلى آية حال ، فان المبرر العام لتلك السياسة ، كما اعلنتها حكومة العمال ، هي الصعوبات الاقتصادية التي كانت تواجهها بريطانيا ، وامكانية توفير أكثر من ١١٠ مليون باون سنويا(١٤) ٠

وعندما جاءت حكومة المحافظين الى السلطة في بريطانيا في حزيران عام ١٩٧٠ ، حاولت اعادة النظر في قرار حكومة العمال بالانسحاب ، وذلك عن طريق تمديد الوقت الى ما بعد عام ١٩٧١ ٠ لكن حكومة المحافظين نفسها سرعان ما أدركت بأن الرأي العام في المنطقة كان يعارض بشدة اي تأجيل لانسحاب البريطانيين ، وان اللحظة المناسبة لمثل هذا الارجاء قد فات أوانها(١٥) ٠

ان المتفحص لطبيعة السياسة البريطانية هذه لا يمكنه فهمها الا اذا ما أخذ بنظر الاعتبار المتغيرات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية ذلك لان اتخاذ مثل هذا القرار المهم الذي أنهى الوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي لا يمكن ان يكون لاسباب اقتصادية محضة بل هناك العديد من الاعتبارات الاخرى ٠ وكان من أولى هذه الاعتبارات ادراك بريطانيا ان وجودها العسكري التقليدي لم يعد له قيمة نتيجة لتطور الاسلحة وامكانية اقامة قواعد للصواريخ بعيدة المدى وحاملات الطائرات اضافة الى التطورات التقنية الاخرى التي تجعل المنطقة ضمن المخطط الشامل للاستراتيجية الامريكية وليس من الضروري الاصرار على التمسك بقواعد عسكرية تثير مشاعر السكان المحليين ونفقات لا داعي لها لحماية مصالح دول أخرى شريكة لبريطانيا في نفط الخليج كالولايات المتحدة الامريكية وفرنسا واليابان ، تلك النفقات التي وجد الراي العام البريطاني بأن لا مبرر لها ما دامت هذه المصالح لا تهم بريطانيا وحدها(١٦) ٠

والاعتبار الآخر هو ان الانسحاب البريطاني كان جزءاً من خطة عامة وشاملة لاستراتيجية حلف شمال الاطلسي التي حددت لبريطانيا دور الدفاع عن وسط أوربا(١٧) ، وهذا يعني بالضرورة انهاء الوجود العسكري البريطاني في منطقة الخليج بأعتبار ان ذلك الوجود سيكون عرضة لضغوط خارجية وداخلية بسبب نمو نفوذ الاتحاد السوفيتي في المنطقة وظهور الانظمة والحركات القومية في منطقة الخليج والتي ستنظر بعين الريبة والحذر لأي نوع من أنواع الوجود العسكري الاجنبي هناك ، وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا لانها لم تعد راغبة في ان تورط نفسها في قتال بينها وبين سكان المنطقة كما سبق وان حدث لها من قبل في عدن والجنوب العربي(١٨) .

أما الاعتبار الاقتصادي المطروح من قبل حكومة العمال وحكومة المحافظين فيما بعد ، والذي ربط مسألة الانسحاب بالنفقات الباهضة التي تصرف على التواجد العسكري البريطاني في الخليج ، فلم يكن اكثر من مجرد سبب ظاهري مقبول من قبل الرأي العام البريطاني وربما يضمن أصوات الكثير من الناخبين الانكليز له لانه يعطي الانطباع بامكانية تحسين مستوى الحياة المعاشية والتوسع في سياسة الانفاق على الخدمات في بريطانيا . والحقيقة ان نفقات الوجود العسكري البريطاني في الخليج لم يتعدى اكثر من ١٧ مليون باون سنويا ، وهو امر ضئيل بالقياس الى المردودات الاقتصادية والاستثمارات البريطانية في المنطقة والتي لم تكن تقل بأي حال من الاحوال عن الف مليون باون سنويا ، وهذا ما يظهر عدم صحة التبريرات البريطانية الخاصة بالجانب الاقتصادي(١٩) .

وبهذا يبدو من المؤكد بان الانسحاب البريطاني من الخليج لم يكن مجصورا بسبب واحد ، كما اعلنته حكومة العمال البريطانية ، بل انه كان نتيجة لمتغيرات دوليــة ومحلية عديدة ، وهــذه المتغيرات هي التي اسهمت بصورة أو بأخرى في عملية الانسحاب ٠

٣ ـ الولايات المتحدة وملء الفراغ في الخليج العربي :

كان اعلان الحكومة البريطانية في كانون الثاني عــام ١٩٦٨ عــن عزمها على انسحاب قواتها من الخليج العربي في نهاية عام ١٩٧١ يمثل مرحلة كبيرة ليس في السياسة البريطانية تجاه المنطقة فحسب(٢٠) ، بل في السياسة الامريكية وفي مجمل السياسات الخارجية لدول الخليج العربي ، ذلك لانــه اثار ما يسمى (بالفــراغ الســياسي والعسكري Political and Military Vacuum (٢١) الــذي سيتركه ذلــك الانسحاب صــار موضع اهتمام هــذه القوى جميعا ، وأصبح السؤال المطــروح ترى من سيملأ ذلك الفــراغ ، وهل ستملئه الولايات المتحــدة الامريكية ؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال نرى من المناسب ان نعرض لعلاقــة الولايات المتحــدة بمنطقــة الخليج ، تلك العلاقــة التي خضعت لتغير وتكييف مستمرين سواء قبــل الانسحاب أو بعــده وذلك وفقــا لجملة من المتغيرات في السياسة الامريكية المعاصرة في المنطقة ٠ فقد ارتكزت علاقة الولايات المتحدة بالخليج قبل الانسحاب في المحافظة على مصالحهــا

واستثماراتها النفطية ، ولم تعمل على اضعاف دور بريطانيا السياسي والعسكري في حماية المصالح الغربية في المنطقة ، كما لم تقبل المشاركة فيه(٢٢) ، وقد يصح هذا الامر على منطقة الشرق الاوسط حتى قيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، حيث بدأت العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا تتخذ شكلا آخر ٠ وظلت علاقة الولايات المتحدة بالخليج بهذه الصورة تقريبا ، اذ ارادت الولايات المتحدة ان تبقى بريطانيا في الخليج لمساعدتها ازاء مسؤولياتها الدولية ، الا ان هذه العلاقه اخذت طابعا جديدا بعد اعلان الانسحاب البريطاني من المنطقة ، فما هو وجه هذا التغير ؟ وما هي أشكاله وصوره ؟ هذه هي التساؤلات التي سنحاول الاجابة عنها في هذا الجزء من البحث ٠

لقد انقسم الكتاب والباحثون حول علاقة الولايات المتحدة بالانسحاب البريطاني من الخليج الى قسمين ٠ فقسم أشار الى ترحيب الولايات المتحدة بانسحاب بريطانيا من المنطقة في فترة لا تتجاوز الثلاث سنوات « وبأن الولايات المتحدة عملت على تسريع عملية الانسحاب مستهدفة وضع الخليج العربي تحت سيطرتها »(٢٣) ٠ وأشار القسم الثاني الى « ان الولايات المتحدة لم تحبذ سياسة الانسحاب بل لقد حاولت بمختلف الوسائل الضغط على الحكومة البريطانية لتعدل من سياستها أو على الاقل ارجاء تنفيذها »(٢٤) ، وذلك لان الظروف التي تحيط بالمنطقة لا تسمح بقرار كهذا ، خصوصا وان النفوذ السوفيتي في المحيط الهندي والخليج العربي يتنامى بسرعة بعد ان حصل الاتحاد السوفيتي على تسهيلات عديدة في المنطقة(٢٥) ٠

وفضلا عن ذلك فان الرأي العام الامريكي في هذا الوقت ، الذي

كان ما يزال منقسما بشكل واضح حول فشل الجهود الامريكية في حرب فيتنام ، سوف لن يؤيد أي مبادرة سياسية للمساهمة في امن الخليج بشكل فعال . وقد يكون هذا الامر سببا في التصريح الذي أدلى به مايك منسفيلد Mike Mansfield ، المتحدث باسم الاغلبية في مجلس الشيوخ الامريكي ، في اليوم التالي لاعلان بريطانيا الانسحاب من الخليج واعرب فيه « عن أسفه لشعور البريطانيين بأنهم مجبرون على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، وانه على ثقة بانه سيطلب من الامريكيين ملأ الفراغ الى الشرق من السويس ، ولكنه لا يظن بانه لدى الولايات المتحدة الرجال ولا المصادر الكافية لذلك » .

والحقيقة ان الولايات المتحدة لم تكن وراء هذا الرأي أو ذاك وانما وراء فكرة جديدة تدعو الى ضرورة ايجاد قوة محلية تشغل الاوضاع في الخليج بعد انسحاب بريطانيا ، التي أصبح وجودها مكروها من قبل القوى الوطنية العربية ، فما هي اذن هذه القوة ؟

لقد أكد متحدث باسم وزارة الخارجية الامريكية على هذا السؤال وهو يعقب على قرار بريطانيا بالانسحاب قائلا « ان الولايات المتحدة ليس لديها أي استعداد لملء الفراغ الذي سيتركه الانسحاب البريطاني ، وبدلا عن ذلك فانها ستعتمد على الاجراءات الامنية المحلية التي ستوفرها القوى الاقليمية التي ستحل محل بريطانيا »(٢٦) . وبناء على ذلك يظهر بأن الولايات المتحدة كانت ميالة الى ضمان مصالحها في الخليج بطريقة غير مباشرة ، معتمدة في ذلك على القوى الاقليمية التي ستقوم بهذا الدور ، ومن ثم فقد ركزت الولايات المتحدة جهودها في هذا المضمار ، وكان ذلك يمثل جوهر سياستها في منطقة الخليج .

وعلى ذلك فان التغير الكبير الذي طرأ على الموقف الامريكي تجاه المنطقة العربية عامة ، والخليج خاصة ، قد حدث في مطلع إدارة الرئيس السابق نيكسون ، التي طرحت رؤية عريضة لسياسة الولايات المتحدة في منطقة الخليج ، وقد بقيت تلك الرؤيه منهاج عمل للسياسة الامريكيه لمدة ليست بالقصيرة • لقد رأت ادارة نيكسون وجوب تشجيع المبادرات المحليــة في المنطقــة وتطويرها عــن طــريق تقــديم المعونات العسكرية والاقتصادية لدول المنطقة ، لانها ستغني الولايات المتحدة عــن التدخل العسكري المباشر في منطقة الخليج وستجنب تورط القوات الامريكية في صراعات المنطقة مطبقا لهذا التصور فان الولايات المتحدة سوف لا تتحمل الا عبــأ قليــلا في هــذه الحــالة وســتظل محتفظة بعلاقاتهــا مع دول المنطقة(٢٧) •

هذا وقد بلغت تلك السياسة ذروتها في تشرين الثاني عام ١٩٧٠، بمصادقة الرئيس نيكسون على ما أصبح معــروفا « بسياسة الدعامتين Two — Pillar » • وقــد عكست تلك الســياسة نظــرة الولايات المتحــدة في تعليقهــا امالا عريضة على الاستراتيجية والمصالح الاقتصادية مع كل من ايران والمملكة العربية السعودية ، بالاضافه الى الاعتقــاد بأن بريطانيا ما يزال بامكانها ان تلعب دورا سياسياً فعــالا ومؤثرا في أمن المنطقة •

ولقد توضحت السياسة الامريكية هذه في التصريح الذي أدلى به وزير الدولة للشؤون الخارجية جوزيف سيسكو Joseph Sisco أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونكرس الامريكي في أيلول عام ١٩٧٢ حيث وصف الموقف الامريكي ازاء منطقة الخليج بقوله :

« اذا كانت هناك ثمة منطقة درسناها بتدقيق واهتمام في السنوات الاربع الماضية فهي منطقة الخليج ، وذلك لاننا توقعنا الانسحاب البريطاني وسألنا انفسنا ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل انسجاما مع مبدأ نيكسون من أجل ان تساهم في الحفاظ على استقرار المنطقة بدون أن تتورط بشكل مباشر ، لانه من الواضح أن لنا فيها مصالح اقتصادية وسياسية هامة جدا جدا • ولقد قررنا ان نسعى لتنشيط ومساعدة الدولتين الرئيسيتين في المنطقة ، الا وهما ايران والسعودية ، وذلك لانه بقدر ما ننجح في تشجيع التعاون بين هاتين الدولتين فانهما تصبحان عنصرين هامين من عناصر الاستقرار بعد خروج البريطانيين »(٢٨) •

وفي ضوء ما جاء في التصريحات الرسمية الامريكية يبدو بأن الولايات المتحدة ، لا دول المنطقة ، كانت تخطط لمسألة تشجيع التعاون بين قوتين اقليميتين كبيرتين في الخليج العربي وهما ايران والسعودية ، وذلك لاعتقادها بأن هذا التعاون سيحقق الاستقرار في المنطقة وسيمنع اي تدخل أجنبي بعد الانسحاب البريطاني •

الا ان هذا التخطيط من جانب الولايات المتحدة كان يلتقي مع أهداف ايران في زمن الشاه محمد رضا بهلوي ولا يلتقي مع أهداف المملكة العربية السعودية • ذلك لان شاه ايران قد أظهر استعداده حتى قبل ان تنسحب القوات البريطانية من الخليج ـ بأنه يتحمل وحده عبء الدفاع عن أمن الخليج(٢٩) • وهنا برزت سياسة أخرى وطرحت نفسها على مسرح الاحداث الا وهي ان ايران من الممكن ان تلعب « دور الشرطي في الخليج » ، ولذلك فقد عمدت الولايات المتحدة الى تزويدها بكل متطلباتها من الاسلحة والمعدات الحديثة ، واعارت طلباتها العسكرية

اهتماما خاصا على غيرها من دول المنطقه بما يمكنها من ان تكون أقوى دولة فيها(٣٠) ·

وهكذا انبثقت ايران كدعامة رئيسية من دعامتي السياسة الامريكية في الخليج ، وقد انعكس ذلك في الاتفاقات الامريكية مع ايران منـذ عام ١٩٧٢ ، وحتى نهاية حكم الشاه في مطلع ١٩٧٩(٣١) ·

أما بالنسبة للدعـامة الثانية في السياسة الامريكيـة ، الا وهي المملكة العربية السعودية ، فقد رفضت الاخيرة ومنذ البداية المشاركة المباشرة في تحمل أي دور عسكري اقليمي بعد انسحاب القوات البريطانية ذلك لان طموحات السعودية وقدراتها كانت محدودة ومتواضعة ، وهي وان سعت الى تحديث قواتها العسكرية ، الا أن أهدافها من ذلك وعلاقاتها مع غيرها من الدول ـ بخاصة العربية ؛ كانت مختلفة تماما عن أهداف وعلاقات ايران(٣٢) ·

هكذا كانت طبيعة السياسة الامريكية في الخليج على ضوء الانسحاب البريطاني ، وها هي مخططاتها للامن فيه ، وهي مخططات أثبتت الاحداث التاريخية فشلها ، وذلك لانها اقيمت على اسس تهدف الى تقوية وتغليب طرف على آخر ، ولهذا لم يكتب لها النجاح ولا الدوام ، حتى مع ايران ·

الهوامش :

1 — William Luce. "Aneval Force For the Gulf: balancing inevitable Russian Penetration". The Round Table. Vol. 5, (1969), pp, 347-8.

2 — William Luce, "Britain in the (Persian) Gulf: mistaken timing over Aden", The Round Table, Vol. 57 (1967), p. 280.

3 — Donald Maclean, British Foreign Pollcy Since Suez 1956-1968 (London, 1970), pp. 179-80.

4 — Maclean, op. cit, p. 170.

5 — C. J. Barlett. The Long retreat: ashort history of Britrsh defence policy, 1945-70 (London, 1972), pp. 215-8.

6 — Barlett, op. cit, p. 222; See also Geoffery williams, The Permaneut alliance: The European-American Partuership 1945-1984 (leyden, 1977), p. 201.

7 — Anthony Verrier "British mihtary Policy in Arabia: Some lessons for the Future". Journal of the Royal united Service Institution. vol. 648 (1967), p. 355; See also Barlett, op. cit, p. 218.

8 — Maclean, op. cit, p. 183.

9 — Sir William Luce, "Britain's Withdrawal From

the Middle East and the (Persian) Gulf", Journal of the Royal United Service Institution, Vol. Cxiv (March, 1969), p. 7.

10 — Maclean, op. cit, p. 183.

11 — Harold Wilson, The Labour Government 1964-1970, apersonal record (London, 1971), p. 213; See also J. frankel, Fast of suez, The Aftermath, The year Book of World Affairs, 239 (1969), p. 20, 24.

١٢ـ للتفاصيل انظر الدكتور جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ ـ ١٩٧١ (القاهرة ، ١٩٧٤) ص٣٢٣ ، انظر أيضا د. صلاح العقاد ، نظرية الفراغ والخليج العربي ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٣٤ (اكتوبر ، ١٩٧٣) ص‌ص ٣-١١٤ .

13 — Parliamentary Papers. Statement of the Defence estimates 1968, Cmnd. 3240, p. 2.

١٤ـ لقد ناقش كريستوفر ماثيو قرار حكومة العمال من وجهة النظر الاقتصادية انظر في ذلك كتابه الاتي :
Christopher Mathew, Britan's role tomorrow (London, 1966) pp. 39-40.

15 — David ‡. Loug, United states Policy toward the (Persian) Gulf, Curreut History, Vol. 68. No. 402 (Feb. 1972), p. 20.

١٦ـ غسان ابراهيم حسين ، مستقبل العلاقات الدولية في الخليج العربي دراسة سياسية عسكرية ، رسالة ماجستير غير منشورة في العلوم السياسية (بغداد ، ١٩٧٨) ، ص ١٨١ •

17 — Robert R. Sullivan, "The Architecutre of Western Security in the (Persian) Gulf", Orbis, 14 (Spring, 1970), pp. 82-3.

18 — D. C. Watt. "The decislon to Withdraw From the Gulf", Political Quarterly, 39 (July. 1968), pp. 316-9;

انظر أيضا حسين ، المصدر السابق ، صص٢ـ١٨٣ •

19 — David Holden, "The (Persian) Gulf: after The British Raj", Foreign Affairs, 4 (July, 1971), p. 725.

٢٠ـ لقد نوقشت قضية التغير في السياسة البريطانية تجاه منطقة الخليج أعلاه •

٢١ـ لمزيد من التفاصيل عما يسمى (بالفراغ) في الخليج العربي يراجع : العقاد ، المصدر السابق ، ص١١٣ وما بعده ، انظر أيضا :
Jihn J. Ruszkiewicz "The Power Vacuum in the (Persian) Gulf". Military Review, (october, 1973), pp. 84-91.

22 — Alasair Buchan, "Britain in the Indian

Ocean", International Affairs, 42 (April, 1966), p. 186.

٢٣ـ انظر في هذا الجانب الدكتور محمود علي الداود ، الخليج العربي والعمل العربي المشترك (بغـداد ، ١٩٨٠) ص ٢٢٨ ، انظـر أيضا :

Fred Holliday, Arabia Without Sultans (1972) p. 456.

٢٤ـ انظـر عـن الجانب الاخر : الدكتور فيليب ستودارد ، سياسة الولايات المتحـدة في منطقة الخليج العـربي وابعادها المستقبلية ، بحث غير منشور القي في « الندوة الدولية للخليج العربي والعالم الخارجي » ، بغداد ٢٩ نيسان ـ ١ مايس (١٩٨٤) ص٢ ، قاسم ، المصدر السابق ، ص٣٥١ .

(٢٥) انظر عن ذلك :

J. C. Hurewitz, "The (Perslan) Gulf: British Witharawal and Western Security", The Annals of the American Accademy of Political and Social Science. 401 (May, 1972), p. 107.

٢٦ـ انظر ذلك في :

Sullivan, op. cit, p. 71.

27 — Richard Nixon. U.S foreign Policy for the 1970 (1971), pp. 184-5.

نقـلا عـن حسـين ، المصـدر السـابق ، ص ص ٩٠ ـ ٣٩٣ ،

ستودارد ، المصدر السابق ، ص ٣ ·

(٢٨) انظر عن ذلك التصريح المصادر الاتية :

Barry Ruybin, "Sub - Empires in the (Persian) Gulf". The Progressive, (January. 1972), p. 30;

عبدالله محمد خالد ، تكديس الاسلحة والسياسة الامبريالية في الخليج العربي (بيروت ، ١٩٧٨) ص‌ص ٢ـ٣٣ ·

29 — Ann T. Schulz, "Aleadership role for Iran in the (Persian) Gulf", Current History, (Jan. 1972), p. 25,

30 — Schulz, op. cit, p, 28; seealso: Emile A. Naichelh, Arab - American relations in the (Persian) Gulf (U.S.A. 1975), p. 51; H,A, Bazzaz, The Arab Gulf in the 1970: Stability, and turmoil, unpublished ph. D Dissertation (Claremant, 1980), p. 25.

٣١ـ الدكتور اسماعيل صبري مقلد ، أمن الخليج وتحديات الصراع الدولي : دراسة للسياسات الدولية في الخليج منذ السبعينات (شركة الربيعان للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٤) ص ٢٩ ·

٣٢ـ مقلد ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ١٠٤ ·

معاهدة الحلف الالماني ـ الروسي الفاشلة
لسنة ١٩٠٤

الدكتور يقظان سعدون العامر
كلية التربية ـ جامعة البصرة

كان العقد الاخير من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٠٢ فترة اعادة ترتيب في العلاقات الدولية • ولقد لعبت فرنسا دورا ملحوظا في تحقيق ذلك بخاصة بعد الهزيمة التي تلقتها على يد بريطانيا في فاشوده عام ١٨٩٨ • فقد ايقنت فرنسا انه طالما ان المانيا لن تعيد الالزاس واللورين اليها ، فانه ليس بمقدورها مواجهة المانيا وهي أكبر قوة برية في العالم وبريطانيا التي هي أكبر قوة بحرية في العالم(١) •

و « طالما ظلت الالزاس واللورين المانية ••• فان الامـة الفرنسية ستعتبر المانيا عدوتها الدائميـة »(٢) • لذا أصبحت غـاية السياسية الخارجية الفرنسية بعد فاشوده هو العمل على اضعاف الحلف الالماني ـ النمساوي ـ الايطالي لعام ١٨٨٢ وعلى تعزيز حلفها الذي توصلت اليه في عام ١٨٩٤ مع روسيا التي شجعتها هي الاخرى للتوصل الى تفاهم مع بريطانيا حول مشاكلهما الاستعمارية في افريقيا(٣) • وبذلك يكون هدف فرنسا العمل على تطويق المانيا • ففيما يتعلق بأضعاف الحلف الثلاثي فقد كثفت فرنسا جهودها السابقة التي كانت قـد اثمرت عن توقيـع

اتفاقيتين : الاولى عام ١٨٩٦ حيث منحت فرنسا بموجبها الايطاليين في تونس بعض الامتيازات مقابل اعتراف ايطاليا بالحماية الفرنسية على تونس ، والثانية في عام ١٨٩٩ حيث أنهت الحرب الاقتصادية التي بدأت بين الدولتين في عام ١٨٨٨ وذلك بتوقيع معاهدة تجارية بينهما • وفي كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٠٠ تم التوصل الى « الاعلان التونسي ـ الايطالي » الذي تضمن اعلان ايطاليا بانه ليس لديها مصالح أو اهتمام في المغرب مقابل اعلان فرنسا بانه ليس لديها مصالح أو اهتمام في ليبيا • ونجحت فرنسا في التوصل الى اتفاقية سرية مع ايطاليا وذلك في حزيران ـ يونيو ١٩٠٢ حيث اتفقت بموجبها الدولتان على الوقوف على الحياد في حالة تعرض احداهما الى هجوم من قبل دولة أو أكثر(٤) • واستغلت فرنسا استياء حليفتها روسيا من مواقف المانيا تجاه مصالح روسيا وسياستها نحو الدولة العثمانية(٥) ، وكذلك موقف المانيا من الاقتراح الروسي الرامي الى نزع السلاح في العالم(٦) • ومما زاد من هذا الاستياء هو التغلغل الالماني في الدولة العثمانية المتمثل في حصول شركة سكة حديد الاناضول الالمانية في عام ١٨٩٩ على امتياز لمد سكة حديد برلين ـ بغداد(٧) وبناء على رغبة كلا الدولتين ، فقد اتفقت فرنسا وروسيا على ادخال تعديلات على بنود معاهدة الحلف لعام ١٨٩٤ بحيث أصبحت غاية الحلف أيضا الحفاظ على التوازن الاوربي(٨) • اضافة الى ذلك حاولت فرنسا منذ عام ١٨٩٩ على تحسين علاقتها مع بريطانيا ايضا من خلال مفاوضات جرت بينهما • وعلى الرغم من ان هذه المفاوضات لم تسفر عن التوصل الى اتفاقية في عام ١٩٠٢ الا انها مهدت الطريق امام الدولتين للتوصل الى اتفاقيات الوفاق الودي عام ١٩٠٤ • وبسبب مشاكل بريطانيا

العالمية المتعددة وكذلك المشاكل التي واجهتها بريطانيا جراء تبني المانيا سياسة « السياسة العالمية » تحالفت بريطانيا مع اليابان في عام ١٩٠٢ . صحيح ان هذا الحلف كان موجها ضد روسيا ، الا ان بريطانيا واليابان كانتا تواقتين في التوصل الى اتفاقية مع روسيا فيما يتعلق بمشاكلها الاستعمارية وليس الدخول في حرب ضدها(٩) . وبالفعل توصلت روسيا واليابان الى تفاهم حول منشوريا(١٠) ، واعتقدت بريطانيا ان هذا التفاهم سيمهد الطريق الى التوصل الى اتفاقية بريطانيا - روسية بشأن مشاكلها الاستعمارية في آسيا(١١) .

يحاول هذا البحث دراسة العلاقات الالمانية - الروسية خلال الاعوام ١٩٠٣ - ١٩٠٤ عندما حاولت المانيا جاهدة الى التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا . وسيحاول البحث استجلاء الاسباب التي دفعت المانيا الى التقرب من روسيا من أجل التوصل الى معاهدة الحلف هذه . فهل ان محاولة التوصل الى هذه المعاهدة او التقرب من روسيا كانت مبدأ واساسا اعتمدت عليه سياسة المانيا الخارجية ام أنها تمثل مبادرة شخصية سرية ؟ وهل ان المسؤولين الاثنان كانوا يرون ضرورة التوصل الى حلف مع روسيا ، أم التقرب من بريطانيا لاهداف اخرى ؟ وما هي الوسائل التي اتبعتها المانيا من أجل توثيق علاقتها مع روسيا ؟ هل ان الاهداف التي كانت تتوخاها المانيا من وراء هذه المعاهدة عسكرية ام سياسية ؟ هل ان حاجة المانيا الى قوة روسيا العسكرية هي التي كانت وراء المحاولة الالمانية ، ام كانت اهدافا سياسية لتكوين عصبة قارية ضد بريطانيا عن طريق القضاء على الحلف الفرنسي - الروسي والوفاق الودي البريطاني - الفرنسي ؟ ولماذا رفض القيصر الروسي التوقيع على هذه المعاهدة الا

بعد اطلاع فرنسا على بنودها ؟ هل ان نيقولا الثاني كان يشك في النوايا الالمانية ؟ ثم لماذا رفضت المانيا الاصرار الروسي على اخبار فرنسا بالمعاهدة ؟ واخيرا ماذا يعني فشل المحاولة الالمانية والتوصل الى معاهدة حلف مع روسيا ؟

كانت المانيا تحبذ توصل بريطانيا واليابان الى اتفاق بشأن الشرق الاقصى . وذكر بان المانيا كانت السبب وراء انشاء الحلف البريطاني الياباني . ويبدو ان هذا الرأي مبالغ فيه(١٢) . صحيح ان المانيا كانت تقترح على بريطانيا باستمرار التوصل الى حلف مع اليابان(١٣) ، وان بريطانيا قد أخبرت المانيا بصورة سرية عند التوقيع على الحلف في السابع من شباط - فبراير عام ١٩٠٢ ، لان بريطانيا تدرك ان الامبراطور الالماني ومستشاره وكبير مستشاري وزارة الخارجية يرحبون بالحلف(١٤) . وفي الواقع ، حاولت المانيا منذ عام ١٩٠١ توريط روسيا واليابان في حرب بسبب منشوريا وكوريا لانها تريد القضاء على أية فرصة تنهي خلافات الدولتين في الشرق الاقصى . لقد كان هدف الامبراطور الالماني هو توريط روسيا في الشرق الاقصى . فقد حث القيصر الروسي على ان تكون روسيا قوة عظمى في منطقة المحيط الهادي . وفيما يتعلق بكوريا فقد اخبر الامبراطور الالماني القيصر الروسي بانها « على شكل لسان من الارض يمكن ان تصبح نوعا جديدا من الدردنيل اذا وقعت بيد الاعداء . ويجب الا يهدد هذا الدردنيل طرق مواصلاتكم . ومن الواضح لكل ذي روية بان كوريا يجب ان تكون روسية »(١٥) وكان المسؤولون الالمان يشجعون بصورة غير مباشرة أعداء بعض المسؤولين الروس الذين كانوا ينادون بضرورة التوصل الى تفاهم مع اليابان بشأن الشرق الاقصى ، من

امثال الكونت لامسدورف Lamsdorff وزير الخارجية الذي كان يريد تجنب الحرب الذي كان مهتما بالقضايا الاوربية أكثر من اهتمامه بالشرق الاقصى ، والكونت وايت Witte وزير المالية الذي كان يريد تجنب الحرب أيضا ، على الرغم من طموحه في تحقيق سيطرة روسية على تجارة وموارد شمال الصين الاقتصادية ولكن بطرق سليمة ، والجنرال كوروباتكين Kuropatkin وزير الحرب الذي كان هدفه منع تورط وسيا في حرب في الشرق الاقصى والحفاظ على قوة روسيا العسكرية لمواجهة المخاطر التي قد تواجهها روسيا في اوربا(١٧) ٠

وفي الوقت نفسه كانت المانيا ترمي الى اقامة علاقات وثيقة مع روسيا من أجل محاربة الاتجاهات الفوضوية والفكرية(١٨) ٠ ومع ذلك فان معاهدة الحلف البريطاني ـ الياباني تعتبر الخطوة الاولى من خطوات التغيير الذي بدأ يطرأ على الوضع الاوربي الذي اخذ يميل في غير صالح المانيا(١٩) ٠ بل انه يمكن القول ان هذا الحلف يمثل « بداية مرحلة جديدة في الدبلوماسية الدولية ، وهي بدء سياسة احتواء المانيا كرد فعل لسياسة السياسة العالمية الالمانية »(٢٠) ٠ لكن المسؤولين الالمان لم يدركوا ذلك ، بل ان الامبراطور الالماني ووزراءه هنأوا انفسهم « بأنهم قد افلتوا من الفخ البريطاني وانهم يشعرون بالارتياح من تعهد بريطانيا والتزامها تجاه اليابان »(٢٠) ٠ لذلك رحبوا بالحلف البريطاني ـ الياباني فكانوا يرون ان بريطانيا وروسيا قد نفرتا بعضهما البعض والى الابد(٢٢) ، وان بريطانيا بدلا من ان تنظم الى الحلف الفرنسي ـ الروسي وتكون عضوا فيه فانها اختارت ان تكون عدوا لهذا الحلف ، لذلك كانوا واثقين من تزايد احتمال نشوب حرب بين بريطانيا وروسيا ،

والتي ستكون لصالح المانيا لان هـذه الحرب ستقضي على أية محاولة للتوصل الى تفاهم بريطاني ـ روسي(٢٣) أو بريطاني ـ فرنسي(٢٤) ٠ وطالما انشغلت بريطانيا في شؤون الشرق الاقصى فان مقاومتها لخطط المانيـا الرامية الى تقـوية اسطولها البحري وبخاصـة في بحـر الشمال ستضعف(٢٥) وبالتالي سيزداد اعتمـاد بريطانيا في الامد البعيـد على المانيا(٢٦) بل ان بيلوف : المستشار الالماني كان واثقا من ان البريطانيين سيجدون انفسهم مضطرين الى الاعتراف بحاجتهم الى صداقة المانيا(٢٧) ٠ فالبريطانيون مرتبطون مع اليابانيين بحلف ، والفرنسيون مرتبطون مع الروس بحلف ايضا ، في حين لم يرتبط الالمان بأي منهما ، وفي الحقيقة ان هذا الوضع كان مشـابها لوضع المانيـا خلال فترة حكم مستشاريه بسمارك(٢٨) ٠ فقد سبق للمستشار السـابق ان ذكـر بيلوف خـلال الثمانينات من القرن الماضي انـه « يوجـد في روسيا اضطراب وهيـاج كبيرين قد ينجم عنهما وبسهولة انفجار فانه من الاحسن للسلام العالمي اذا حدث الانفجار في آسيا وليس في اوربا ويجب علينا ان نكون حذرين وان لا نقف عقبة أمامها ، والا فقد نتحمل نتائجها »(٢٩) ٠ وهكذا كانت سياسة المانيا هي عدم مقاومة مشاريع روسيا في الشرق الاقصى بل تأييدها وتشجيعها ٠ اما الامبراطور الالماني فانه اتبع منـذ عام ١٨٩٥ سياسة توريط روسيا في الشـرق الاقصى حتى لا تثير الاضطرابات على حـدود المانيا الشرقية ، وانه قد وعد القيصر الروسي نيقولا الثاني بان المانيـا ستحمي حدود روسيا الغربية اذا بقيت روسيا مهتمة بشؤون آسيا ٠ ومن الجدير بالذكر ان الامبراطور الالماني قد جدد هذه الوعود من دون علم وزارة الخارجية الالمانية(٣٠) ٠ لكن هذا لا يعني انها كانت تعارض

التوسع الروسي في الشرق الاقصى ، بل على العكس فانها كانت تعارض التوسع الروسي في الشرق الاقصى ، بل على العكس فانهـا كانت تريد توريط روسيا في تلك المنطقة ولا تعارض توسعها طالما كان هذا يلفت انتباه روسيا من اوربا الى آسيا · لكن موقف وزارة الخارجية الالمانية من اتجاهات الشرق الاقصى · فعندما طلبت بريطانيا من المانيا « الايفاء » بالتزاماتها في معاهـدة اليانغتسي المعقـودة في تشرين الاول ـ سبتمبر ١٩٠٠ وذلك بتقديم ضمان بريطاني ـ ألماني مشترك ضد روسيا أعلن بيلوف وبوضوح ان الاتفاقيـة « لا تتعلق بمنشـوريا »(٣١) وان المانيـا لا تبالي بأية أهمية لمصير منشوريا · ويتزامن هذا الاعلان في الوقت التي وضعت فيه بريطانيا مسودة معاهدة الحلف مع اليابان ضد روسيا ومن دون علـم المانيا(٣٢) · بينما ردت الخارجية الالمانيـة وعلى لسـان هولشتاين بان المعاهدة المذكورة تلزم الطرفين بأحترام حرية التجارة في وادي نهر اليانغتسي وانها ليست موجهة ضد روسيا ، وان المانيا لم تتعهد لبريطانيا بأن تقف ضد روسيا · اما فيما يتعلق بمسودة معاهدة الحلف البريطاني ـ الياباني فقد اصر هولشتاين على رأيه السابق والذي أكد فيه على انهـا « تتناقض بصورة مباشرة مع مصالحنا · وبذلك سـتجد انكلترة نفسها غير مجبرة على ربط نفسها بمعاهدة عامة مع المانيا أو مع الحلف الثلاثي » اي مع الحلف الالماني ـ النمساوي ـ الايطالي · لذا كان رأي هولشتاين واضحا وهو : انه ما لم تنظم بريطانيا الى الحلف الثلاثي فانه يجب عدم تصديع علاقات المانيا مع روسيا · لذا فان معاهدة اليانغتسي يمكن اعتبارها وفاقا بريطانيا ـ المانيا في الشرق الاقصى(٣٣)· واخبرت المانيا اليابان انها ستلتزم بالحياد التام في حالة حدوث ازمة في

الشـرق الاقصى(٣٤) ٠ وفي الوقت نفســه رفضت الخارجية الالمانية ان تستخدم روسيا المانيا من أجل الحفاظ على المصالح الروسية في الشـرق الاقصى ٠ فبعد ان اعتبرت روسيا الحلف البريطاني ـ الياباني تحديا له ، عملت جاهدة على اعادة التعاون الالماني ـ الفرنسي ـ الروسي الذي شهده عام ١٨٩٥ والذي وضع حدا لليابان ٠ فحاولت روسيا في هـذه المرة الحصول على تأييد المانيا وانضمامها مع حليفتها فرنسا ومعها من اجل تكوين عصبة قارية ضد بريطانيا ٠ فأقترح لامسدروف تكوين حلف ثلاثي يكون ميدان تطبيقه الشـرق الاقصى بحيث تتولى فرنسا والمانيـا الاسطول البريطاني ، بينمـا تقـوم روسـيا باحتلال شمال الصين متى تشاء(٣٥) ٠ رفضت المانيا المحاولة الروسية واقتراح لامسدورف لاسباب عديدة ٠ فاعتقدت المانيا ان روسيا تريد استخدامها ضد بريطانيا وهذا ما ترفضه المانيا ٠ فقد أكـد بيلوف ، وأيده في ذلك الامبراطور الالمـاني « بأنني ارى ، وأحاول ان يكون المبدأ الرئيس للدبلوماسية الالمانية بان لا يكون لنا سياسة شرقية ٠ والا فسوف نكون كبش فـداء لاية قوة في العالم »(٣٦) ٠ ولم تكن مصالح المانيا في الشرق الاقصى كبيرة لدرجة تتحالف المانيا مع روسيا وفرنسا ٠ اضافة الى ان المانيا لا زالت تنتهج سياسة « اليد المطلقة »(٣٧) وانها لا تريد الاقلاع عن هذه السياسة الا اذا حصلت على تعويضات مهمة ٠ فقد اخبرت المانيا روسيا بانها لاتستطيع تأييدها طالما لم تتخل فرنسا عن مقاطعتي الالزاس واللورين(٣٨) ٠ هـذا وان انضمام المانيا الى روسيا وفرنسا في الشرق الاقصى سيغلق السوق الياباني أمام البضائع الالمانية ٠ وأخيرا فان المانيا خشيت انه في حالة انضمامها الى روسيا وفرنسا في الشرق الاقصى فان الولايات المتحدة

الامريكية ستنضم الى الحلف البريطاني ـ اليذباني(٣٩) ٠

ولم تكن فرنسا ترغب التعاون مع المانيا أو رؤية حليفتها روسيا تعتمد أو تتعاون مع المانيا في الشرق الاقصى او في اي مجال آخر وبخاصة ان المانيا سبق وان اكدت موقفها السابق بعدم اعادة مقاطعتي الالزاس واللورين الى فرنسا ٠ لذا كان على فرنسا ان تساند روسيا وتقدم لها القروض لكي تمنع أي تقارب روسي ـ الماني ٠ فهي بحاجة الى الحلف مع روسيا حتى تضمن استقلالها في اوربا ٠ لقد كان موقف فرنسا حرجا ، فقد ادركت ان ردود الفعل الروسية نحو الحلف البريطاني ـ الياباني كانت غاضبة ، وكانت تخشى من اندلاع حرب بين روسيا حليفتها وبين اليابان حليفة بريطانيا في الشرق الاقصى ٠ وازداد التوتر بين بريطانيا وروسيا الى درجة كبيرة بحيث أصبحت الحرب بينهما وشيكة وانها ستجبر فرنسا على الايفاء بالتزاماتها تجاه روسيا الامر الذي سيؤدي الى عرقلة الهدف الذي يرمي اليه دلكاسيه T. Delcasse وزير الخارجية الفرنسية التوصل اليه وهو التقارب بين فرنسا وبريطانيا ٠ وبما ان العلاقات الالمانية ـ البريطانية قد تردت الى درجة لم يسبق لها مثيل وبخاصة بعد الخطب اللاذعة والتي تبادلها تشامبرلن J. Chamberlain وزير المستعمرات البريطانية وبيلوف حيث تهجم كل واحد على حكومة الاخر الى درجة ان الامبراطور الالماني شكا من الوزير البريطاني ، وهدد ملك بريطانيا ادورد السابع Edward VII بدوره المانيا بالغاء الزيارة المزمع ان يقوم بها امير ويلز الى المانيا لحضور احتفال عيد ميلاد الامبراطور الالماني « لانه من الاحسن له عدم الذهاب اينما يكون عرضة للاهانة »(٤٠) ٠ لكل ذلك ، كان امام فرنسا خياران ،

الاول التوصل الى مصالحة بين روسيا واليابان لمنع اندلاع حرب في الشرق الاقصى أو ، وهو الخيار الثاني ، ان تتقارب فرنسا من بريطانيا من أجل التوصل الى تفاهم بريطاني ـ فرنسي تكون من نتائجه تحييد موقف بريطانيا من حليفتها اليابان اما بالابتعاد عنها أو عدم تقديم المساعدة لها . ويبدو ان فرنسا كانت قد اجبرت على اتخاذ موقف معين من بريطانيا . أو بعبارة أخرى ، ان الحلف البريطاني ـ الياباني قد جعل موضوع التوصل التوصل الى تفاهم بريطاني ـ فرنسي امرا حتميا(٤١) .

وكان أول خطوة خطتها فرنسا هو حصولها على تأكيد من بريطانيا في ١٢ شباط ـ يناير يتضمن ان موقفها المتشدد من روسيا لا يعدو ان يكون الا تحذيرا ، وان بريطانيا تحاول التوصل الى اتفاقية مع روسيا وستعمل حتى النهاية من أجل تحقيق ذلك(٤٢) . وفي الواقع ان جهود المسؤولين البريطانيين كانت منصبة على منع اندلاع حرب مع روسيا على الرغم من ان مصلحة بريطانيا كانت تقضي رؤية روسيا ضعيفة في الشرق الاقصى طالما كانت الخلافات البريطانية ـ الفرنسية قائمة . ولكن في الوقت نفسه ، انه ليس في مصلحة بريطانيا انزال الهزيمة بروسيا لان ذلك سيعزز من قوة ومكانة المانيا وبخاصة بعد الفشل في تحقيق تفاهم بريطاني ـ الماني ، وان المانيا بدأت بتحقيق برنامج انشاء اسطول بحري طموح وكذلك حصلت على امتياز مد سكة حديد استراتيجية في الامبراطورية العثمانية ، وبذلك أخذت تهدد المصالح البريطانية في الشرق عاما . لذلك أصبح من الضروري على بريطانيا ان تحقق تقاربا مع فرنسا وتكبح روسيا باليابان وان تكون علاقتها ودية مع ايطاليا ، حتى تشعر بريطانيا المانيا بقوتها من أجل الحد من تسلحها البحري وان لا تهدد مصالح بريطانيا في العالم(٤٣) .

وهكذا بدأ الوضع الدولي في عام ١٩٠٢ لصالح فرنسا ضد المانيا . فبعد صدور الاعلان الفرنسي - الروسي في العشرين في اذار - مارس ١٩٠٢ بشأن الصين ، وقعت روسيا وبسبب ضغوط من بعض الدول(٤٤) ، اتفاقية في نيسان - ابريل من نفس العام مع الصين تعهدت روسيا بموجبها الانسحاب من منشوريا على مراحل على ان يتم اكمال الانسحاب في تشرين الاول - اكتوبر ١٩٠٣(٤٥) . ولم يكن موقف المانيا والنمسا - المجر موحدا من هذه الاتفاقية . ففي الوقت الذي اعلنت فيه النمسا - المجر تأييدها للاتفاقية عارضتها المانيا بشدة(٤٦) لانها لا تريد رؤية انفراج الوضع في الصين ، بل انها كانت تعمل ما بوسعها من أجل تعقيده . وعلى كل حال ، فقد توجت فرنسا في حزيران - يونيو من العام نفسه اتفاقيتها السابقة التي وقعتها مع ايطاليا عام ١٩٠٠ ، والتي حلت مشاكل الدولتين الاستعمارية في المغرب وليبيا ، باتفاقية سرية توصلت اليها في حزيران - يونيو عام ١٩٠٢ والتي بموجبها اتفقت الدولتان على الوقوف على الحياد في حالة اشتباك أحد الدولتين في حرب مع دولة أو أكثر . وتعتبر هذه الاتفاقية نقطة تحول مهمة فخطط ايطاليا الرامية الى التوسع في شمال افريقيا قد تعارضت مع سياسة المانيا التي تدعو قدر الامكان الى الحفاظ على كيان الامبراطورية العثمانية(٤٧) . اضافة الى ذلك ساعدت عوامل عديدة على استئناف المباحثات البريطانية - الفرنسية لايجاد حل وسط لمشاكلهما الاستعمارية المتنازع عليها . وبالفعل فقد بدأت هذه المحادثات التي مثلها عن بريطانيا وزير خارجيتها اللورد لانسداون Lansdowne وعن فرنسا سفيرها في لندن بول كامبون Paul Combon في تموز - يوليو عام ١٩٠٢ واستمرت

هذه المباحثات بصورة متقطعة حتى تم التوصل الى اتفاقيات عديدة في الثامن من نيسان ـ ابريل عام ١٩٠٤ حول مشاكلها الاستعمارية وبخاصة فيما يتعلق بمصر والمغرب(٤٨) · ومما عجل على التوصل الى هذه الاتفاقيات سببان : الاول ، تردي الاوضاع الداخلية في المغرب وخشية بريطانيا بانه ما لم يتم التوصل الى اتفاقية بريطانية ـ فرنسية بشأن المغرب فان تفاقم الوضع سيؤدي الى تعقيدات دولية · والسبب الثاني ، هو تردي الاوضاع في الشرق الاقصى بعد ان نقضت روسيا ، بسبب رجحان كفة جماعة يتزعمها وزير الداخلية V. K. Plehve والتي تعارض اتباع سياسة معتدلة(٤٩) · وكذلك نجحت هذه الجماعة في التأثير على القيصر الروسي · فبعد ان اكملت روسيا المرحلة الاولى من انسحابها من منشوريا في شهر تشرين الاول ـ اكتوبر عام ١٩٠٢ رفضت روسيا اكمال انسحابها عند حلول موعد المرحلة الثانية من انسحابها وهو شهر نيسان ـ ابريل ١٩٠٣ وطلبت ضمانات معينة من الصين بعدم منح أية دولة امتيازات في منشوريا(٥٠) واشترطت انه ما لم يتم الموافقة على هذه المطاليب فان القوات الروسية ستبقى في منشوريا · وللتعويض عن الاراضي التي انسحبت منها ، قامت روسيا باحتلال أراضي كورية · رفضت الصين التي كانت تدعمها بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، مطاليب روسيا(٥١) · فأعتقدت بريطانيا انها اذا حافظت على علاقاتها الودية مع فرنسا ، فان الاخيرة ستمنع حليفتها روسيا من اتخاذ أي اجراء ضد اليابان ربما يقود الى نشوب حرب بينهما حتى في حالة اندلاع حرب روسية ـ يابانية ، فان بقاء فرنسا على الحياد سيخلص بريطانيا من التزاماتها بموجب الحلف البريطاني ـ الياباني

والتورط في هذه الحرب . اما فرنسا فكانت هي الاخرى لا ترغب في التورط في مشاكل حليفتها ، روسيا ، في الشرق الاقصى . وكانت ترغب أيضا في تسوية المشكلة المغربية . فبعد الزيارات المتبادلة للملك البريطاني ادورد السابع لباريس والرئيس الفرنسي لوبو Loubet الى لندن في مايس ـ مايو عام ١٩٠٤ ، كثف وزيرا خارجية البلدين مباحثاتهما وناقشا في تموز ـ يوليو من نفس العام مسودة اتفاقيات بينهما تتضمن اعتراف بريطانيا بالهيمنة الفرنسية في المغرب مقابل اعتراف فرنسا بالهيمنة البريطانية في مصر ، وضمان المصالح الاستراتيجية البريطانية في طنجة ، وكذلك اتفاقيات حول نيوفاوند لاند وسيام و New Hebrides .

واظهر تردي العلاقات البريطانية ـ الروسية والعلاقات اليابانية ـ الروسية فيما يتعلق بقضايا آسيا الوسطى(٥٢) وقضايا الشرق الاقصى خلال عام ١٩٠٣ أهمية التوصل الى اتفاقية نهائية بين بريطانيا وفرنسا . فعلى الرغم من استمرار المباحثات بين بريطانيا وروسيا بشأن قضايا آسيا الوسطى والتي كان أمل التوصل الى تفاهم بين الدولتين لا بأس به ، فان المباحثات الروسية ـ اليابانية كانت تشير الى طريق مسدود . فمارست بريطانيا ضغوطا على اليابان من أجل قبول « عرض معقول » من روسيا فيما يتعلق بالشرق الاقصى . وحاولت اليابان جاهدة من أجل التوصل الى اتفاقية مع روسيا تتضمن اما اكمال الاخيرة انسحابها من منشوريا أو ان تطلق يد اليابان في كوريا . ولكن من دون جدوى . فالموقف الروسي أصبح متشددا الى درجة أن القيصر الروسي نيقولا الثاني اقال وزير خارجيته لامسدورف ووزير ماليته وايت في آب ـ اغسطس ١٩٠٣

لانهما كانا يرفضان سياسة التشدد مع اليابان ، فوزير المالية كان ضد مد سكك حديد استراتيجية في روسيا كما نصت عليه اتفاقيات القروض التي كانت تعقدها روسيا مع فرنسا وحاول استخدام هذه القروض في القطاعات غير العسكرية من الاقتصاد الروسي(٥٣) وعلى الرغم من التحذيرات المتكررة التي قدمها اليابانيون للروس الا انها لم تجد نفعا . ويبدو ان تأثير جماعة Plehve ، التي ترى من الحرب وسيلة للتخلص من المشاكل الداخلية(٥٤) ، على القيصر الروسي كان كبيرا . فقد اقنعت القيصر الروسي بانه يسود روسيا الان « هياج ثوري » وان نشوب حرب روسية - يابانية صغيرة تكون فيها روسيا المنتصرة سيؤدي الى تهدئة الوضع في روسيا(٥٥) . وهكذا بدأت روسيا واليابان بالاستعداد للحرب ، الا ان اليابانيين لم يمنحوا الروس الوقت لتعبئة قواتهم . فقد سبق لهم ان اعلنوا حالة التعبئة في قواتهم سرا . وبعد ان فشل اليابانيون خلال الفترة من آب - أغسطس عام ١٩٠٣ حتى كانون الثاني - يناير عام ١٩٠٤ في محاولاتهم الرامية الى التوصل الى تسوية مع روسيا ، قطعوا علاقاتهم السياسية مع روسيا في الخامس من شباط - فبراير ، وبعد ثلاثة أيام ومن دون اعلان حالة الحرب شنت سفن الطوربيد اليابانية هجوما مفاجئا ضد السفن الحربية الروسية الراسية في ميناء بورث ارثر حيث يتواجد معظم اسطول الشرق الاقصى الروسي(٥٦) .

ومن الجدير بالذكر ان من أسباب اقالة القيصر الروسي لوايت هو ان الاخير كان يدرك الدوافع التي كانت تقف وراء تشجيع روسيا في التورط في الشرق الاقصى ، ولذلك أراد ان تتبنى روسيا سياسة معتدلة

تجاه اليابان(٥٧) . وفي الحقيقة ان المانيا قد عملت ما بوسعها من أجل اندلاع الحرب بين روسيا واليابان في الشرق الاقصى . ففي الاجتماعات التي تمت بين الامبراطور الالماني والقيصر الروسي في ريفال Reval ودانزك في تموز ـ يوليو عام ١٩٠٢ حاول الامبراطور الالماني ، يساعده مستشاره بيلوف ، ان يقنع القيصر الروسي بان المانيا ستقف على الحياد عند نشوب حرب روسية ـ يابانية ، وان الحياد الالماني سيجبر بريطانيا على الوقوف موقف الحياد طبقا للحلف البريطاني ـ الروسي ، وبذلك تسدى المانيا خدمة كبيرة لروسيا(٥٨) . ولمح الامبراطور الالماني للقيصر الروسي بان المانيا ستحمي حدود روسيا في اوربا في حالة تورطها في حرب في الشرق(٥٩) . وارسل الامبراطور الالماني برقية الى القيصر الروسي بدأها بما يلي : « من أدميرال المحيط الاطلسي الى ادميرال المحيط الهادي . » ويبدو ان الامبراطور الالماني قد وعد القيصر الروسي أكثر من الحياد . ومع ان التوتر قد تعاظم بين روسيا واليابان في خريف عام ١٩٠٣ فلم تندلع الحرب بينهما مما اثار خيبة أمل الالمان وبخاصة الامبراطور الالماني وبيلوف(٦٠) .

وبسبب تردي العلاقات الروسية ـ اليابانية ، استفسر السفير الروسي في برلين من وكيل وزير الخارجية الالماني اوتو فون موهلبرغ Otto von Muhlberg في تموز ـ يوليو عام ١٩٠٢عن موقف المانيا في حالة نشوب حرب بين روسيا واليابان وهل ان المانيا ستقدم الدعم لروسيا في هذه الحرب . أكد موهلبرغ للسفير بان المانيا ستقدم « التأييد والدعم » لروسيا في حالة اندلاع حرب في الشرق الاقصى . لكن بيلوف كان له رأي آخر اوضحه في كتابه « المانيا الامبراطورية Imperial Germany » فقد ذكر :

« لقد اثار تنظيمنا للجيش وتاريخنا الحربي اعجاب هذه الامة المحاربة في الشرق الاقصى (اليابان) فبعد ان الحق اليابانيون الهزيمة بالصين ، أخذوا يتبجحون بانهم بروسيو الشرق . وتعرضت علاقاتنا معهم الى صدمة عنيفة عام ١٨٩٥ عندما قمنا نحن مع فرنسا وروسيا باجبار اليابانيين المنتصرين على تخفيف شروطهم على الصين . وهكذا فقد فقدنا الكثير من التعاطف الذي كانت تبديه اليابان لنا ولسنوات طويلة عندما تدخلنا ضدها ، ولم نحصل على أي عرفان بالجميل من فرنسا او روسيا » . ويستطرد بيلوف قائلا : « انه ليس من مصلحتنا ان نجعل من هذه الدولة الكفوءة الشجاعة عدوا لنا . فليس في نيتنا ان نسمح لليابان ان تستخدمنا ككبش فداء . وستصبح الامور سهلة جدا ليس لليابان فحسب بل لانكلترة أيضا ، اذا سمحنا لانفسنا ، ومن أجل مصالحهما في الشرق الاقصى ، بالاندفاع ضد روسيا ... وكما اننا لم نرحب بفكرة ان نغيظ او نبعد اليابان عنا من أجل فرنسا او روسيا ، فانه يجب ان لا تتردى علاقتنا مع روسيا من أجل مصالح الدول الاخرى في الشرق الاقصى » . لقد كان بيلوف متأثرا بموقف بسمارك من اهتمام روسيا في آسيا ، وهو انه بسبب أوضاعها الداخلية المتفجرة « فانه يجب ان يحدث هذا الانفجار ، ولصالح السلام في العالم ، في آسيا وليس اوربا . وبخلاف ذلك ، فاننا يجب ان نتحمل وطأتها . ولو كنا قد سمحنا لانفسنا ان نندفع ضد روسيا قبل الحرب الروسية ـ اليابانية ، فانه كاد من الممكن ان نتحمل الوطأة العظمى ، ولقد اخبرني (بسمارك) في احدى المناسبات : لو ان السيد ن (ربما يقصد القيصر الروسي نيقولا) اقترح عليك شيئا لمصلحته وليس لمصلحتك ، فان هذا لا يعني ان السيد ن

احمق ، بل انك أحمق فيما لو وافقته »(٦١) . لقد كان موقف بيلوف واضحا وهو يجب ان تتعامل ألمانيا بحذر ومهارة شديدين تجاه هذا الموضوع لكي لا تجد نفسها متورطة في حرب في الشرق الاقصى ، أو ان تجد روسيا نفسها مجبرة على التوصل الى تفاهم مع اليابان وبريطانيا(٦٢) لقد كان هدف بيلوف هو تفادي تورط المانيا في أية حرب « حتى تنتهي المرحلة الحرجة من البرنامج الالماني للتسليح البحري والتي حددها وزير البحرية الفريد تيربتز A. V. Tirpitz بنهاية عام ١٩٠٤(٣) .

واعتقدت المانيا انه في حالة اندلاع حرب بين روسيا واليابان ، فانه سينجم عنها تعقيدات اوربية فقد تصبح بحار البلطيق والشمال مسرحا للنزاع حيث يتوجب على السفن الحربية الروسية عبور الممرات الضيقة بين الدانمارك والسويد . وان الموقف الذي تتخذه الدانمارك تجاه الاطراف المتناحرة سيؤثر وبصورة مباشرة على المانيا حيث تفصل شبه جزيرة الدانمارك وجزرها سواحل المانيا المطلة على هذه البحار وكذلك أساطيلها . لذلك اخبر الامبراطور الالماني وزير بحريته في تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٠٣ بان موضوع حياد الدانمارك قد تمت مناقشته مع ملك الدانمارك ومع القيصر الروسي . وكان التساؤل هو : ما هو رد فعل الدانمارك اذا انضمت بريطانيا الى اليابان في حربها ضد روسيا ؟ لقد كان للحكومة الالمانية اهتمام مباشر في حياد الدانمارك وانها كانت مصممة على ان يفسر الدانماركيون هذا الحياد بطريقة مقبولة . ومن الامور التي يجب دراستها هو موقف الدانمارك بشأن توفير واعداد مرشدين للسفن العائدة الى الاطراف المتناحرة . أجابت الحكومة

الدانماركية بان عليهما تعهد بان تبقى ممرات Belts, Sound مفتوحة ، وان عليها اعداد مرشدين عند تقاضيها رسوم طبقا لاتفاقية عام ١٨٥٧ ، وفي حالة رفضها اعداد مرشدين وبخاصة الى السفن الحربية ، فان هذه السفن قد تجنح وتغرق وبذلك يغلق الممر المائي • الا ان المانيا اوضحت للدنمارك بان هذه الممرات هي أيضا حيوية لتطوير الاسطول البحري الالماني في بحر الشمال وبحر البلطيق • وفي حالة اشتباك المانيا في حرب مع بريطانيا فانها سوف لا تسمح للدانمارك باعداد مرشدين الى سفن الاعداء • واوضح الادميرال وليم بوشل Buchsel رئيس اركان البحرية الالمانية Admiralstab der Marine من الحياد الدانماركي ، وأكد بان موقف المستشار الالماني يجب ان يفهم بانه في حالة تورط المانيا في حرب « فان توفير واعداد مرشدين الى اعدائنا يتعارض مع الحياد الدانماركي » • ولم يكن هذا الرأي يمثل البحرية الالمانية • فقد كانت هناك ثلاث ادارات بحرية المانية وجميعها على اتصال مباشر مع الامبراطور وهي : وزارة البحرية الامبراطورية Reichs marinearnt والتي لها مسؤولية وزارية والتزامات برلمانية ، ورئاسة الاركان البحرية التي تمثل اداة لتنفيذ مهام القيادة العليا للامبراطور ، وأخيرا المجلس البحري الامبراطوري Marine Kabinett والذي هو المسؤول عن أمور امانة السر والافراد لقيادة الامبراطور ، وتعتبر هذه الادارة مهمة كالادارتين السابقتين • وان مهمة نشر السفن الحربية هي من أعمال رئاسة الاركان البحرية الالمانية • وكان اسطول من السفن الحربية الالمانية يرابط في الشرق الاقصى ، وكانت رئاسة الاركان البحرية الاللانية هي المسؤولة عن مراقبة حركات اساطيل روسيا واليابان وعن احتمالات الحرب بينهما،

والنتائج المترتبة على المانيا وعلى التوازن البحري ، فأصدرت رئاسة الاركان البحرية أوامرها الى اسطول السفن الحربية الالمانية الموجودة بالقرب من الصين أن يكون متهيأ ، وان يلتزم الحياد التام ولكن عليه ان يراقب تطور الاحداث وبخاصة مراقبة البريطانيين في وادي اليانغتسي وان يبلغوا حالا أي تغيير في الوضع · واقترحت رئاسة الاركان البحرية الالمانية انه من أجل الحصول على نتائج مهمة لخطط وتحركات المانيا فان الحاق ضباط بحريين المان في مراكز القيادات البحرية الروسية واليابانية سيكون ذي قيمة كبيرة · وهكذا صدرت الاوامر الى سفيري المانيا في روسيا واليابان بالطلب من الحكومتين السماح بمراقبين المان بالتواجد في مراكز قيادتهم من أجل الاتصال والمراسلة بمراكز قيادتهم أيضا لابلاغها عن تطور الاحداث وعندما هاجمت اليابان روسيا في الثامن من شباط ـ يناير عام ١٩٠٤ في بورت ارثر تم تنفيذ خطة البحرية الالمانية · فكانت المانيا هي الدولة الاوربية الوحيدة التي لديها مراقبين في هذا الميناء · وكذلك لديها اسطول حربي بالقرب من ساحة الصراع تراقبه منذ اندلاعه ، بينما كانت الدول الاخرى تراقب هذا الصراع من قبل ممثليها في الصين · وهذا مما جعل جميع الدول باستثناء روسيا تشك في الوجود الالماني في المنطقة وتعتقد بان الالمان ليسوا مقتنعين بتأجير كياوجو فقط بل انهم سيقومون بعمل في شانتونغ كما فعل الروس في منشوريا · وكان اليابانيون قد ابدوا شكوكهم من التواجد الالماني الى درجة انهم اخذوا يعاملون الملحق البحري الالماني في طوكيو بحذر شديد · في حين لم يشارك الروس اليابانيين الشكوك · بل على العكس فقد طلب رئيس المجلس البحري الروسي الامير اورلوف Orloff ، وبناء على

طلب القيصر الروسي ، من الملحق البحري الالماني في العاصمة الروسية P. Hintze ان يكتب مذكرات سرية عن تطور الاحداث . « وان القيصر يريد ان يكون هو ، كما هو شأن الامبراطور الالماني ، بتطور الاحداث »(٦٤) .

لقد كان رأي بيلوف وهو لشتاين هو ان تعمل المانيا ما بوسعها على تشجيع روسيا في التورط في الشرق الاقصى في حرب مع اليابان وان تقف على الحياد عند اندلاع الحرب بين هاتين الدولتين . فان ربحت روسيا الحرب فان المانيا ستقف الى جانبها عن طريق تقديم المشورة والنصيحة والتأييد . اما اذا منيت روسيا بالهزيمة على يد اليابان ، فستعاني من الضعف حتى تجبر بالنهاية الى توقيع معاهدة حلف مع المانيا(٦٥) . وفي كلا الحالتين فان الوجود الروسي في الشرق الاقصى يجب ان يلقى تأييد المانيا المطلق ليكون بمثابة منطقة عازلة ضد التغلغل البريطاني والياباني والاميريكي في الصين(٦٦) . وكتب الامبراطور الالماني الى القيصر الروسي يدعوه الى الدخول في حرب ضد اليابان وان يرفض أية تسوية معها . ولكن القيصر الروسي رفض هذه الدعوة لانه « كان يأمل في النهاية التوصل الى تسوية سليمة هادئة » مع اليابان . وقد اثار هذ الرد خيبة أمل الامبراطور الالماني(٦٧) ، الذي اخبر بيلوف بانه كان يأمل من ان الرسالة التي ارسلها الى القيصر الروسي « ستقنع القيصر باستخدام قواته ضد اليابان ... ويبدو انه لا يريد القتال وانه من غير المستبعد بانه سيسمح لليابانيين في النهاية أخذ منشوريا من دون اطلاق اطلاقة واحدة أو بعد مقاومة اسبوع واحد . ويجب منع مثل هذا الانعطاف في الاحداث بأي حال من الاحوال »(٦٨) .

ويبدو ان الامبراطور الالماني قد اتخذ على عاتقه سياسة المانيا الخارجية تجاه الحرب الروسية اليابانية . فقد سبق له وان أعطى روسيا ضمانات بالمحافظة على حدود روسيا الغربية مع المانيا ، ومارس ضغوطا كبيرة على النمسا – المجر بالكف عن أي عمل تنوى القيام به في منطقة البلقان(٦٩) . وعندما اعدت وزارة الخارجية الالمانية تصريحا رسميا يؤكد فيه حياد المانيا من هذه الحرب وعممته على مؤسساتها في الخارج في ١٧ شباط – فبراير ١٩٠٤ ، تضمن اغلاق قناة الامبراطور وليم بوجه السفن الحربية العائدة للدول المتحاربة . لكن هذا الاعلان أعطى هذه السفن حق الرسو في الموانيء الالمانية لمدة لا تزيد على أربع وعشرين ساعة ، وحق التزود بالوقود « ضمن بنود القانون الدولي » .

واصدر في العاشر من شباط – يناير أوامر الى الملحقين والمراقبين العسكريين بان يبعثوا تقاريرهم « كما يفعل قادة سفني الحربية المستقليين في الخارج ، وان يتم تداولها بين السلطات العسكرية – البحرية فقط » . وبدأت التقارير حول سير الحرب تترى على برلين . وكانت تقارير رئاسة الاركان البحرية الى الامبراطور خلال شهري اذار ونيسان / مارس وابريل قد اوضحت ضعف وعدم كفاءة الاساطيل البحرية الروسية . وهكذا لم يعد لبيلوف وهولشتاين أي دور في رسم السياسة الخارجية الالمانية تجاه الحرب الروسية – اليابانية عامة وروسيا خاصة فلو انهما عرفا بحقيقة الوضع العسكري لاتخذا سياسة اتسمت بالحذر الشديد في تعاملهما مع المساعدات التي كانت تطلبها روسيا(٧٠).

لقد سبب عدم اعلان التصريح بالحياد ، وتوجيه الامبراطور الالماني سياسة المانيا الخارجية بعض المشاكل . فأتهمت رئاسة الاركان البحرية

الالمانية وزارة الخارجية باهمال « بعض القضايا ذات الاهمية البالغة » ٠ ورفضت وزارة الخارجية الالمانيــة بدورها تأييــد الحكومة الروسية في تفسيرها لعمليات الغنائم والتهريب ، على الرغم ان التفسير الروسي كان يتطابق مع المبادىء والاسس التي تلزم بها الحكومة الالمانية وتزمع تطبيقها في حالة تورطهــا في حــرب ضــد بريطانيا ٠ وكان رأي وزارة الخارجية الالمانية ، وكما عبر عنه هولشتاين في ٢٢ شباط / فبراير ١٩٠٤ هو : « ما السبب الذي جعل المانيا ان تقف الى جانب روسيا بسهولة وتعرض نفسها للمخاطر ؟ ٠٠٠ ان المرء لا يجد الا ان يعبر عن اعجابه للشجاعة وللميزات التي يتحلى بهــا الجيش والبحرية الروسية ٠٠٠ ولكــن اذا اتخذت المانيا جانب أحد الاطراف ، فانها ستعرض تجارتها العالمية للخطر ٠ فلو ان احــدا اخــذ يداعب نمــرا فيجب عليه ان يتوقع بانه سيستخدم مخالبه » ٠ ولم يعجب موقف هولشتاين هــذا المتسم بالحــذر من قضايا القانون الدولي رئاسة الاركان البحرية التي وضحت موقف المانيا بما يلي : « ٠٠٠ اننا لا نعرف ماذا نريد ، ونحن نفترض باننا راضين عن الوضع الحالي ٠ وحقا انه امر لا يطاق »(٧١) ٠

لم يكن يخامر الامبراطور الالماني الشك من ان الروس سيلحقون الهزيمة باليابانيين ٠ الا ان التقارير التي وصلت منذ شهر اذار / مارس من رئاسة الاركان البحرية ومن الملحقين البحريين الالمان ومن المراقب الالماني في بورت آرثر الذي كان شاهد عيان على الضربة الاولى لليابانيين ضد الاسطول البحري الروسي الراسي في الميناء المذكور عن قوة الاسطول الياباني وعدم كفاءة الاسطول البحري الروسي وادارته الضعيفة والمعنويات الضعيفة والكفاءة الضعيفة للقــادة الروس ، كل هــذه المعلومات جعلت

الامبراطور يبدي استغرابه • فقد تعجب : « هل يخسر الروس اني لا اعتقد بذلك حتى في الحلم » • ومع ذلك فان المعلومات التي كانت ترى تؤكد ان الروس سيخسرون الحرب(٧٢) •

ومما زاد من حراجة موقف المانيا هو اعلان بريطانيا وفرنسا عن توصلهما الى اتفاقيات بشأن مشاكلهما الاستعمارية وبخاصة في المغرب ومصر(٧٣) • لقد كان الالمان يأملون بان اندلاع الحرب بين روسيا واليابان سيمنع من توصل بريطانيا ، حليفة اليابان ، وفرنسا ، حليفة روسيا ، الى الوفاق • لقد كانت هذه الخطوة واضحة للمسؤولين البريطانيين والفرنسيين الذين اتخذوا اجراءات احترازية وتم اعلان الوفاق(٧٤)• وبما ان الوفاق لم يقلل من احتمال تورط بريطانيا وفرنسا في الحرب الدائرة في الشرق الاقصى ، لذلك توصلت الدولتان الى قناعة كما عبر عنها رئيس وزراء بريطانية ارثر بالفور A. J. Balfour (١٩٠٢ – ١٩٠٥) ان التدخل في هذه الحرب « سيورط نصف أو أكثر من نصف العالم في حرب يكون المستفيد الاخير منها الدول المحايدة وعلى رأسها المانيا »(٧٥) لذا اعلنت الدولتان حالة الحياد عند اندلاع الحرب الروسية – اليابانية • وبعد التوصل الى الوفاق مع فرنسا ، كانت بريطانيا تأمل بان هذا الوفاق ، ومن خلال توسط فرنسا التي ترتبط مع روسيا بحلف والتي هي طرف في الوفاق الودي مع بريطانيا ، سيؤدي الى التوصل الى اتفاق بريطاني – روسي • وهكذا وعلى الرغم من الحرب المشتعلة في الشرق الاقصى ، فلم تفقد بريطانيا أملها في التقرب من روسيا بهدف التوصل الى اتفاقية مشتركة لحل مشاكلهما الاستعمارية(٧٦) • واتخذت بريطانيا اولى الخطوات لتحقيق ذلك • وتم تعيين السير تشارلس

هـارد نك C. Hardinge المتحمس لتحسين علاقات بريطانيا مع روسيا ، سفيرا لبريطانيا في سان بطرسبورغ في مايس / مايو عام ١٩٠٤ • ولقد نجح السفير الجديد ، حال وصوله الى مقر عمله ، في التوصل الى اتفاق مبدئي مع القيصر الروسي لحل مشاكلهما الاستعمارية(٧٧) •

ويبدو ان الرأي الذي يرى بان المسؤولين الالمان لم يدركوا النتائج المترتبة على توقيع الوفاق الودي تعوزه الدقة(٧٨) • فقد ادى اعلان التوصل الى الوفاق الودي الى حدوث انتكاسة كبيرة في السياسة الخارجية الالمانية بحيث اعتبر هذا الحدث بانه احد اسوء الهزائم التي منيت بها السياسة الالمانية منذ توقيع الحلف الفرنسي - الروسي(٧٩) • اما هولشتاين فانه لم يستبعد تكوين الوفاق الثلاثي البريطاني - الفرنسي - الروسي(٨٠) • اضافة الى ذلك ، فقد تلقت امال المانيا في الهيمنة على اوربا صفعة قوية بعد توقيع الوفاق البريطاني - الفرنسي الذي شكل انحيازا بريطانيا واضحا نحو الحلف الفرنسي - الروسي(٨١) • صحيح ان بيلوف قد اخبر الرايخشتاغ بعد ايام قليلة من توقيع اتفاقيات الوفاق الودي بان هذا الوفاق ما هو الا اتفاقية تتعلق بالقضايا الاستعمارية التي تتعلق ببريطانيا وفرنسا ، وليس موجها ضد المانيا • ونفى المستشار الالماني الرأي الذي يرى بان من نتائج الوفاق الودي عزل المانيا • فقال : « فيما يتعلق بالمغرب ، والذي يشكل جوهر الاتفاقية ، فان لنا مصالح اقتصادية في ذلك البلد كما هو في باقي منطقة البحر المتوسط • ولنا هناك وبالدرجة الاساس مصالح تجارية ، ولذا فانه من مصلحتنا ان يسود النظام والقانون في المغرب • ولا يوجد سبب يجعلنا نعتقد بان دولة ما

ستلحق ضررا ما او تتجاهل مصالحنا في المغرب » . لكن اعلان بيلوف هذا كما اعتقد كل من سفيري فرنسا والنمسا – المجر في برلين ، كان نوعا من الاحتجاج الالماني ضد توقيع الوفاق ، وان الغاية من وراء هذا الاعلان هو اخفاء حالة الاخفاق والاستياء الذي سببه توقيع الوفاق الودي في المانيا . وقد ذكر السفير النمساوي ان سياسة المانيا والتي انتهجها بسمارك واتبعها من حلفه في زرع الشقاق وتعميقه بين الدول الاوربية قد تلقت اقوى صفعة بعد التقارب الروسي – النمساوي والتقارب الفرنسي – الروسي . اما الامبراطور الالماني فانه لم يخف قلقه منذ الوهلة الاولى لسماعه التوصل الى الوفاق الودي . فأبرق الى بيلوف في ١٧ نيسان / ابريل واخبره بأن من أهم نتائج توقيع الوفاق البريطاني – الفرنسي هو ان بريطانيا ، بعد ان تأكدت من موقف فرنسا ، ستعمل الكثير من أجل ان تتجاهل المصالح والقضايا التي تخص المانيا ، وستعطيها اعتبارات ثانوية . لقد نظر الامبراطور الالماني الى الوفاق الودي على انه نجاح فرنسي في كسب صداقة بريطانيا دون ان تضحي بحليفتها روسيا(٨٢) . اعترف بيلوف بان « الاتفاقية الفرنسية – الانكليزية تبدو لي وبالدرجة الأولى على انها ضمان متبادل ضد اشتراك أي من الدولتين في الشرق الاقصى . وعلى كل حال فان هاتين الدولتين وبموجب هذه الاتفاقية والتقارب قد كسبا ، وبدون شك ، أهمية دولية وحرية العمل »(٨٣) . واعتقد هولشتاين بان الوفاق سيؤثر على الطموحات الالمانية في افريقيا(٨٤) .

ومع ذلك فقد كانت وجهة نظر بيلوف في السياسة الخارجية التي يجب على المانيا ان تنهجها وهي تجنب « اولا تصدع علاقتنا مع روسيا

بسبب الحرب ... ومن جهة أخرى عدم السماح لانفسنا بان نزج من قبل روسيا ضد اليابان والاهم من هذا ضد انكلترة »(٨٥) . بعبـــارة أخرى يجب على المانيا تجنب الحرب حتى يزف اليوم الذي تنهي فيه الفترة الحرجة من برنامج المانيا للتسلح البحري والذي حدده تيربتز بنهاية عام ١٩٠٤ وبذلك سيزول خطر قيام بريطانيا بالهجوم على المانيا ، وستصبح البحرية الالمانية قوية لدرجة تثير قلق البريطانيين الذين سيدركون ان الهجوم على المانيا عملية محفوفة المخاطر . وشارك هولشتاين رأي بيلوف هذا وكان يرى ان اكمال البرنامج البحري الالماني من دون التورط في صدام مع بريطانيا يعد نجاحا لالمانيا(٨٦) . ومع ذلك فقد طلب بيلوف من شليفن دراسة امكانية اقادة الحرب في حالة اندلاعها بين فرنسا والمانيا من دون ان تتدخل روسيا الى جانب حليفتها . رد رئيس الاركان الالمانية انه على الرغم من ان روسيا لم تسحب قواتهـــا من حدودها الغربية مع المانيا ، الا ان كفاءة هذه القوات قد قلت بسبب نقل عـــدد من الضباط والمتطوعين الى الشرق الاقصى . وعلى الرغم من ان روسيا تحاول تجنب الحرب مع المانيا ، لكنها اذا وجدت نفسها مضطرة للدخول في حرب الى جانب فرنسا أيضا بتعهداتها في الحلف الفرنسي الروسي ، فان قوة روسيا سوف لا تشكل خطورة على المانيا . لم يشجع تقرير رئاسة الاركان وزارة الخارجية الالمانية على القيام بحرب ضد فرنسا ، لانها كانت تريد استغلال تورط روسيا في حربها ضد اليابان من أجل التوصل الى معاهدة تجـــارية مع روسيا تكون بنودها لصالح المانيـــا وبخاصة ان مفاوضات المعاهدة سبق لها ان وصلت الى طريق مسدود في نهـــاية عـــام ١٩٠٣ وكانت وزارة الخارجية الالمانية تأمل في التوصل الى معاهدة تجارية مع

روسيا(٨٧) ٠

لم يشارك الامبراطور الالماني بيلوف الرأي بان مشاكل وشيكة ستثار بين بريطانيا وفرنسا بسبب الحرب الروسية ـ اليابانية ٠ فأغتنم فرصة افتتاح جسر على نهر الماين Main فلمح الى سياسة فرنسا التي نجحت في تحسين علاقتها مع ايطاليا وبريطانيا وحذر ان هذه السياسة قد اثارت قلق وخوف المانيا الشديدين ٠ وشعر الملك ادورد السابع ملك بريطانيا الذي قام بزيارة الى المانيا في شهر حزيران / يونيو عام ١٩٠٤ بان وليم الثاني وبيلوف كانا « قلقين جدا » لعلاقات بريطانيا الحميمة بفرنسا ٠ وأعطى السفير الفرنسي في لندن ، بول كامبون تفسيرا لهذا القلق عند مقابلته للملك ادورد السابع في ١١ تموز / يوليو فقال : « ان السبب الحقيقي لهذا القلق والذي يبدو بانه الم بوليم لعدة أشهر هو انه لم يكن يتصور مطلقا امكانية تكوين اتفاق انكليزي ـ فرنسي ٠ فقد استمر يراهن على عدم التفاهم الذي كان قائما بين القوتين ، كما عمل على تغذيته وتأجيج عوامل الاختلاف القائمة بينهما ٠ لقد حاول ما باستطاعته لكي يعتبره الاخرون بانه حكم اوربا المطلق والمدافع والضامن للسلام العام ٠ بكلمة أخرى ، كان يتوقع ان يلعب دورا قائدا في العالم ٠ اما الان فهو يرى وبأمتعاض أن هذا الدور قد انتقل منه الى سيادتكم » ٠ شارك ادورد السابع رأي السفير الفرنسي وقال : « نعم ، انه (الامبراطور الالماني) يجب ان يتكلم الاخرون عنه ٠ أن الاتفاقيات التي تباحثنا فيها من دون مشاركته وبدون ترخيص منه أو مساعدته ، قد صعقته ٠ ولقد جعلته (هذه الاتفاقيات) يشعر بالعزلة »(٨٨) ٠

وهكذا فان هدف السياسة الخارجية الالمانية ، كما ذكر السير كرو

E. Crowe مساعد وكيل وزير الخارجية البريطاني ، هو « احباط اي تحالف بين دولتين قد يؤدي بالاضرار بمصالح المانيا وهيبتها ، واذا اعتقدت بان مثل هذا التحالف قد تم تشكيله ولم يظهر تأيده الفعلي بعد ، فأن المانيا سوف لا تتردد في اتخاذ الخطوات اللازمة التي تعتقد بانها كافية للقضاء على هذا التحالف »(٨٩) ٠

لقد كان الامبراطور الالماني يحلم بقيادة الحلف الثلاثي الالماني ـ النمساوي ـ الايطالي والحلف الثنائي الروسي ـ الفرنسي ، وبذلك تضمن المانيا اوربا بحيث يتحسن وضعها حتى تتمكن من انتزاع السيادة البحرية من (انكلترة الخؤونة) Perfidious Albion ٠ وكان أمله ايضا ان يحاول تحسين علاقات المانيا مع روسيا وكذلك مع فرنسا بحيث تنسى جرحها السابق وتكسب المانيا صداقتها واعجابها وذلك باشغالها في المغرب حتى توجه انظارها من الالزاس واللورين ٠ واراد الامبراطور الالماني ايضا توثيق علاقة بلده باسبانيا ٠ فبعد ان التجأت الاخيرة الى المانيا طالبة مساعدتها(٩٠) ٠

نصح الامبراطور الالماني اسبانيا الى التوصل الى تفاهم مع فرنسا فيما يتعلق بشمال افريقيا(٩١) ٠ وهكذا وضح طموح الامبراطور الالماني بان يكون امبراطورا للعالم بأجمعه(٩٢) ٠

وعلى كل حال ، فان الامبراطور الالماني وجد في الحرب الروسية ـ اليابانية فرصة لتحقيق هدف المانيا في التحالف مع روسيا الذي سيؤدي الى ضم فرنسا الى هذا الحلف في وقت لاحق ٠ فعندما اندلعت الحرب في الشرق الاقصى ، بقيت فرنسا ، حليفة روسيا على الحياد بسبب محاولات دلكاسيه تحسين علاقات فرنسا مع بريطانيا والتي توجت بالفعل بتوقيع

اتفاقيات الوفاق الودي في نيسان / ابريل عام ١٩٠٤ ولان بنود معاهدة الحلف الفرنسي – الروسي لعام ١٨٩٤ لم تشترط على فرنسا ان تساعد حليفتها عسكريا الا اذا تدخلت بريطانيا الى جانب حليفتها اليابان . وبما ان بريطانيا قد اعلنت حالة الحياد عند نشوب حرب بين روسيا واليابان ، لذا بقيت فرنسا على الحياد عند نشوب حرب بين روسيا واليابان ، لذا بقيت فرنسا على الحياد . ولقد سبب وقوف فرنسا المحايد من هذه الحرب وكذلك توصلها الى الوفاق الودي مع بريطانيا استياء روسيا من حليفتها فرنسا . وبدأ الرأي العام الروسي يميل ضد فرنسا . ومع ذلك ، فان روسيا كانت تتوقع ان تساعدها فرنسا ماليا وذلك بتقديم القروض من أجل تغطية نفقات حربها مع اليابان .

لقد كان الوضع المالي في روسيا عند اندلاع الحرب مع اليابان في حالة من الفوضى والارتباك بل ان الحالة الاقتصادية على العموم كانت تعاني من الازمات فالمحاصيل الزراعية لعام ١٩٠٣ لم تكن وفيرة مقارنة بمحاصيل السنوات السابقة . وجابه وزير المالية فلاديميير كوكوفتسوف Vladimir Kokvtsov مشكلة توفير الاموال لتغطية نفقات الحرب. ففي تقريره الذي قدمه الى اللجنة المالية في ١٧ اذار / مارس ١٩٠٤ ، أكد وزير المالية على ضرورة توقيع قروض أجنبية من أجل تعزيز احتياطي روسيا من الذهب لتتمكن الحكومة من زيادة اصدارها من عملة الروبل الورقية ، وكذلك الى توقيع عقود محلية لمعالجة التضخم . فالميزانية الروسية لعام ١٩٠٤ قد اوضحت لوزارة المالية الروسية انه يتعذر على روسيا مواصلة الحرب من دون الحصول على قروض أجنبية . فقد بلغ تقدير العوائد بـ ٢٫٠٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠ مليار روبل ، بينما قدرت النفقات

بـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٩٠ر١ مليار روبل أي بفائض قدره ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٠ مليون روبل ٠ لذلك كان على روسيا ان تلجأ الى سياسة الاقتراض لمعالجة مستحقات القروض ونفقات الحرب ٠ ومما زاد من الوضع سوءاً هو ان الحكومة الروسية سبق لها ان خصصت أو أنفقت ٠٠٠ر٧٠٠ر٨٠٣ مليون روبل للنفقات الاستثنائية ٠ وبما ان الفائض الذي كان لدى الحكومه الروسية في شهر كانون الثاني / يناير عام ١٩٠٤ قد بلغ ٠٠٠ر٣٠٠ر٣٨١ مليون روبل ، فان العجز في الميزانية الروسية قد بلغ (٣٠٠) مليون روبل اضافة الى المبلغ الواجب دفعه في التعهد السنوي للقروض الاجنبية والذي بلغ (١٨٠) مليون روبل ٠ اي ان العجز كان قد بلغ (٤٨٠) مليون روبل ٠ لذا لم يكن لروسيا من سبيل آخر غير عقد القروض الاجنبية(٩٣) ٠ ولكن هل باستطاعة روسيا ان تحصل على قروض من فرنسا ؟

عندما طلبت روسيا في عام ١٩٠٢ من فرنسا قرضا جديدا ، دخلت الدولتان في مباحثات استمرت حتى عام ١٩٠٤ ، وافقت فرنسا في النهاية على منح روسيا قرضا شرط ان يتم استثماره في مد سكك حديد استراتيجية تكون موجهة ضد بريطانيا والمانيا ، وان لا يقدم الروس طلبا جديدا للحصول على قرض آخر لمدة ثلاثة أعوام ٠ وهكذا كان وضع روسيا محرجاً بحلول عام ١٩٠٤ عند اندلاع الحرب مع اليابان ٠ فليس باستطاعتها ان تحصل على قرض من فرنسا الا بحلول عام ١٩٠٧ ، وليس بمقدور روسيا ان تحصل على قروض من بريطانيا والمانيا طالما ان السكك الاستراتيجية كانت موجهة ضدهما(٩٤) ٠ لذا لجأ وزير المالية الروسي كوكوفتسوف الى اسلوب التعامل المباشر مع أصحاب البنوك الفرنسيين ، الامر الذي أدى الى امتعاض الحكومة الفرنسية التي اصرت

على ان تقوم الحكومة الروسية باعلامها قبل القيام بمفاتحة أصحاب البنوك الفرنسيين • وبعد ان رفض الاخيرون منح روسيا عقدا طويل الاجل قدره مليار فرنك فرنسي ، أو ما يعادل (٣٧٥) مليون روبل بدعوى عدم موافقة حكومتهم على مثل هذه الصفقة ، حذر وزير المالية الروسية بأن بمقدور روسيا ان تحصل على قرض من المانيا ، الا انه الح على ان تقوم فرنسا بمنح روسيا ما تستطيع من القروض • فذكر كوكوفتسوف انه اذا كان ليس باستطاعة فرنسا مساعدة روسيا عسكريا في الحرب مع اليابان ، فانه يجب ان تساعدها ماليا • وعلى الرغم من تلميحات وزير المالية الروسية بانه قد اوصى وزيرا الحرب والبحرية الروسيين بان تقتصر طلباتهم العسكرية من فرنسا فقط ، ظل أصحاب البنوك الفرنسيين على موقفهم السابق وهو منح روسيا قرضا قصير الاجل وبمبلغ (٨٠٠) مليون فرنك ما يعادل (٣٠٠) مليون روبل وبفائدة قدرها ٥٪ • لم يكن موقف الحكومة الفرنسية مؤيدا لموقف أصحاب البنوك الفرنسيين ، ومع ذلك لم يكن بمقدورها ان تعلن عدم موافقتها لتصرف الاخيريين ولاسباب سياسية • الا انها اوضحت موقفها وهو انه اذا نجم عن هذا القرض انخفاض كبير في قيمة الضمانات الروسية أو حدثت تغييرات في سوق باريس المالي فسيتم الغاء الصفقة • وحذرت روسيا ان طلباتها العسكرية من فرنسا غير واضحة لذلك طلبت تحديدها(٩٥) • ومع ذلك فقد تم التوصل الى اتفاقية بشأن القرض في ١٢ مايس / مايو ١٩٠٤ • ولم يف الروس بتعهداتهم بشراء معدات عسكرية من فرنسا • وفي الواقع لم تكن التجارة الفرنسية مع روسيا نشطة • فقيمة ما استوردته من طلباتها من السكك والعدد والتجهيزات العسكرية والبحرية من فرنسا خلال الفترة

١٨٩٤ ـ ١٩٠٤ قد بلغت (٨٦) مليون فرنك مقارنة بـ (٧٣) مليون فرنك قيمة ما استوردته اليابان من فرنسا . ولم تستلم صناعة السفن الفرنسية من روسيا الا طلبا واحدا خلال الفترة ١٨٩٧ – ١٩٠٤ . وان مجموع قيمة ما استوردته روسيا من الصناعات التعدينية الفرنسية خلال العشرين عاما (١٨٨٤ ـ ١٩٠٤) كان بحدود (١٨٠) مليون فرنك . اما صادرات فرنسا الكلية الى روسيا ، فقد كانت أقل بكثير من صادرات المانيا أو بريطانيا الى روسيا خلال الاعوام ١٩٠٢ و١٩٠٣ والجدول الاتي يوضح ذلك :

الدولة	عام ١٩٠٢	عام ١٩٠٣
فرنسا	٨١ر٥٠٠ر٠٠٠ روبل	١٠٤ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل
المانيا	٤٠٦ر٥٠٠ر٠٠٠ روبل	٤٦٨ر١٠٠ر٠٠٠ روبل
بريطانيا	٢٨٩ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل	٣٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل

وكانت الصادرات الفرنسية الى روسيا تشكل ٢٠٪ من الصادرات الروسية الى فرنسا . وبينما تراوحت نسبة استيراد روسيا من فرنسا الى المجموع الكلي لاستيرادها ٤ ـ ٥٪ ، كانت نسبة استيراد روسيا من المانيا الى المجموع الكلي تتراوح ٤٠ – ٥٠٪ . وهذا أدى الى استياء الحكومة الفرنسية وأصحاب الصناعة الفرنسية الذين قدموا التماسات الى حكومتهم تؤكد « بان الوقت قد حان ... للطلب من روسيا بان تخصص لصناعة التعدين الفرنسية قسما من طلباتها الخارجية » . وتوقع الصناعيون الفرنسيون طلبات روسية قيمتها (٢٠٠) مليون فرنك بسبب الحرب الروسية ـ اليابانية(٩٦) . وبناء على تعليمات حكومة

Emile Combes الفرنسية تكلم السفير الفرنسي في سان بطرسبورغ مع المسؤولين الروسيين حول الموضوع واخذ دلكاسييه الموضوع على عاتقه عندما بدأت المباحثات مع روسيا ٠ وعلى الرغم من ان الاخيرة قد اعترفت بان مجموع قيمة ما استوردته روسيا من فرنسا خلال الاعوام ١٨٨٤ ـ ١٩٠٤ قد بلغت (١٨٠) مليون فرنك ، الا ان روسيا رفضت ان تلزم نفسها بأية تعهدات(٩٧) ٠ وهكذا شهدت العلاقات الفرنسية ـ الروسية توترا الى درجة اصابها التدهور بحلول شهر مايس / مايو عام ١٩٠٤ ٠ فقد اخبر ممثل روسيا المالي في باريس في ٧ مايس / مايو حكومته بان موقف فرنسا لم يتبدل تجاه اليابان « لكنه تبدل نحونا نحو الاسوء »(٩٨) ٠

شجعت هذه التطورات الامبراطور الالماني ، الذي ايده بيلوف وهولشتاين(٩٩) ، على التقرب من روسيا بهدف اعادة عزل فرنسا من القارة الاوربية مرة أخرى ، وبذلك تحقق المانيا هدفين في آن واحد : القضاء على الحلف الفرنسي ـ الروسي ، وتحييد الوفاق الودي الذي تم التوقيع عليه حديثا بين بريطانيا وفرنسا ٠ ففي آب / اغسطس ١٩٠٤ ارسل الامبراطور الالماني مذكرة الى ممثلي المانيا في الخارج جاء فيها : « ان هذه (الحرب الروسية ـ اليابانية) معركة حاسمة بين المسيحية والبوذية ، بين الغرب المتحضر والشرق شبه المتحضر ٠ انها معركة ٠٠٠ حيث اجتمعت فيها اوربا متحدة كالولايات المتحدة الاوربية تحت القيادة الالمانية للدفاع عن ممتلكاتها العزيزة ، لاننا ملزمين بذلك ٠٠٠ لذا فان تعاطفنا بحق مع روسيا ، وعندما يكون الاسطول (الروسي) في البلطيق جاهزا ومدربا يجب ان يبحر لاخضاع السيادة على البحر

وينتزعها من اليابان ... ان مستقبل روسيا واوربا بصورة غير مباشرة في خطر . انني اعرف بان علينا ان نحارب يوما اليابان وحتى الموت ، وانني اعمل ما بوسعي لتحقيق ذلك . ان الروس سيساعدونا وبالتأكيد فيما بعد في صد اليابان ، ولكن من الافضل لو ان بمقدورهم ان يوجهوا لهم ضربة مميتة »(١٠٠) .

استغلت المانيا تردي العلاقات الفرنسية – الروسية والتي ساهمت فيها عوامل عديدة . فوقوف فرنسا على الحياد خلال الحرب الروسية – اليابانية ، وتردد فرنسا في منح روسيا قرضا جديدا لتغطية نفقات الحرب ، والحملة الشعواء التي شنتها الصحافة الفرنسية ضد روسيا والتي لم تنفع الرشوة التي قدمتها الاخيرة بناء على مشورة المسؤولين الفرنسيين ، الى هذه الصحف من تخفيف حدة هذه الحملة(١٠١) كل هذه العوامل دفعت كلا من روسيا والمانيا الى التقارب من بعضهما . فقد ذكر الملحق الفرنسي في سان بطرسبورغ في حزيران / يونيو ١٩٠٤ بان روسيا تخطط شراء معدات وأسلحة المانية وبخاصة مدافع Krupp وانه لا توجد أية طلبات روسية من فرنسا « لانه ليس في نية وزير الحرب الروسي طلب معدات (فرنسية) لاستخدامها في الحرب » . بل ان الملحق العسكري الروسي في باريس لم يستلم أية تعليمات من حكومته بشأن أية طلبات(١٠٢) . اضافة الى ذلك ذكر دبلوماسيون فرنسيون في برلين وسان بطرسبورغ انباء عن مفاوضات المانية – روسية بشأن التوصل الى معاهدة تجارية جديدة . وذكر السفير الفرنسي في برلين بول بيهورد Paul Bihourd ان المفاوضات أخذت تتعثر بسبب معارضة الروس لبنود المعاهدة المقترحة التي وصفوها بانها « قاسية »(١٠٣) . الا ان

الالمان ، الذين كان هدفهم هو جعل روسيا تعتمد اعتمادا كليا على صادراتها المصنعة(١٠٤) ، استغلوا تردد الفرنسيين في منح الروس القروض اللازمة لتغطية نفقات حربهم مع اليابان ، وكذلك استغلوا ظروف روسيا الداخلية الصعبة وموقفها الحرج في الشرق الاقصى(١٠٥) ، فوعدوا الروس انه في حالة قبولهم لبنود المعاهدة التجارية الجديدة والتوقيع عليها ، فان المانيا ستمنح روسيا قرضا ٠ وكان الروس يعتقدون من جانبهم بان عليهم قبول المعاهدة التجارية التي اعترفوا بانها لصالح المانيا لانهم كانوا يأملون الحصول على تأييد المانيا الدبلوماسي في حربها مع اليابان(١٠٦) ٠ وبذلك تمت الصفقة ، فمقابل قبول روسيا لبنود المعاهدة التجارية وافقت المانيا على منح روسيا قرضا ٠ وبعد ان تم التوقيع على المعاهدة التجارية في ٢٨ تموز / يوليو ١٩٠٤ بدأت المفاوضات لمنح قرض الماني لروسيا(١٠٧) ٠ وقد اثارت هذه الصفقة استياء فرنسا وادت الى تدهور العلاقات الفرنسية ـ الروسية(١٠٨) ٠

وفي الوقت نفسه وقع Albert Ballin المدير العام لشركة خط ـ هامبورغ امريكا Hamburg — Amerika Line وبتشجيع من الامبراطور الالماني ولكن من دون علم الحكومة الالمانية(١٠٩) ، عقدا مع الحكومة الروسية تتعهد الشركة الالمانية بتزويد الاسطول الروسي في بحر البلطيق الذي يعتزم التوجه الى الشرق الاقصى بكمية من الفحم تقدر بـ (٣٣٨) ألف طن خلال ابحاره من الساحل الشرقي للدانمارك وحتى جنوب شنغهاي ٠ وعندما نشرت Shipping Gazette الصادرة في لندن نص العقد في نشرتها الصادرة في الثاني عشر من ايلول / سبتمبر عام ١٩٠٤ احتجت اليابان وطلبت من المانيا الغاءه ٠ وحاول

بيلوف ، الذي خشي ان تتعرض سفن الوقود التابعة للشركة الالمانية لهجمات السفن الحربية اليابانية ، اجبار الشركة على ايجاد طرق ووسائل من أجل التخلص من هذا العقد • لكن جهود المستشار الالماني باءت بالفشل بسبب العلاقة الحميمة التي كانت تربط مدير الشركة بالامبراطور الالماني ، وبسبب موقف الاخير المؤيد لروسيا(١١٠) • وردا على الاحتجاج الياباني ، فقد اكدت المانيا انه طالما ان العقد هو (خاص وتجاري) ليس من حق الحكومة الالمانية التدخل • وفي الحقيقة ان الامبراطور الالماني كان مهتما بهذا العقد ويدعمه ، لذلك اعطى الاوامر بان لا تتم اعاقة اعمال شركة خط هامبورغ ـ امريكا » وان تعطى الحرية للقيام بأي عمل تشاء » ، لان هذا العقد وسيلة للتقرب من روسيا • ولو مارست الحكومة الالمانية ضغوطا على الشركة الالمانية واجبرتها على الغاء عقدها مع روسيا ، فان هذا ، وبالتأكيد ، سيؤدي الى استياء روسيا وبالتالي سيحبط خطط ارسال الاسطول الروسي الى الشرق(١١١) • فكان الامبراطور الالماني يهدف من وراء تشجيع روسيا على ارسال اسطولها في بحر البلطيق الى الشرق الاقصى والقضاء عليه في الحرب مع اليابان الى تحقيق هيمنة بحرية المانية في هذا البحر وبدون اي منافس ولعدة سنوات قادمة والى انعاش صناعة السفن الالمانية من خلال طلبات روسيا المقدمة لالمانيا لتشييد سفن حربية تحل محل سفن اسطول بحر البلطيق الذي سيتم تدميره في الحرب مع اليابان(١١٢) • وبذلك سيحصل الامبراطور الالماني على تأييد الصناعيين الالمان في الرايخشتاغ في معالجة تعاظم قوة حزب الاشتراكيين الديمقراطيين في الرايخشتاغ •

لقد عملت المانيا بشتى الوسائل تقديم « العون » الى روسيا • فبعد

الهزائم العسكرية التي منيت بها روسيا وبخاصة في شهر آب / اغسطس عام ١٩٠٤ فقد اتخذت المانيا اجراءات عديدة لمساعدة روسيا · فوافقت على رسو السفن الحربية الروسية في ميناء كياوجو الالماني والتزود بالوقود(١١٣) · وعندما احتجت اليابان عبر سفيرها في برلين ضد هذا الاجراء ، عبر الامبراطور الالماني عن غضبه واستياءه ضد الاحتجاج الياباني ، ولمح أيضا باشارات تهديد ضد بريطانيا(١١٤) ، التي كانت قد حذرت المانيا لتقديمها التسهيلات الى روسيا · وقد استغل الامبراطور الالماني هذه الفرصة وأرسل في ١٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٤ برقية الى القيصر الروسي هدفها توسيع الهوه بين فرنسا وروسيا واحداث الشقاق بين بريطانيا وفرنسا وبخاصة بعد التحذير البريطاني لالمانيا · فقد طلب وليم الثاني من نيقولا الثاني « ان تذكر حليفنكم بالالتزامات التي تعهدت تجاهكم في معاهدة الحلف الثنائي » · وكذلك أراد وليم الثاني تعميق الخلافات بين بريطانيا وروسيا · فقد اخبر الامبراطور الالماني القيصر الروسي ان بريطانيا قد زودت السفن الحربية اليابانية بالفحم منذ اندلاع الحرب الروسية – اليابانية ، وقامت أيضا ببيع (٣٠) ثلاثين سفينة بخارية(١١٥) ، وطلبت سفنا حربية من بريطانيا(١١٦) ·

اضافة الى ذلك حاولت المانيا التأثير في سياسة روسيا البحرية خلال الحرب من خلال الامبراطور الالماني وكذلك الملحق الالماني في العاصمة الروسية · فقد نصح الامبراطور الالماني القيصر الروسي في الثامن من تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٤ بان يقوم الاسطول الروسي المحاصر في بورت ارثر بالهجوم على الاسطول الياباني والقضاء عليه قبل وصول اسطول بحر البلطيق وبذلك « يمهد الطريق الى نجاح مظفر

لاسطول بحر البلطيق ... ويتمكن من تحقيق انتصار سهل على عدو متضرر غير قادر على اصلاح سفنه أو بناء سفن جديدة . وبذلك تعود السيادة البحرية اليكم وتصبح القوات البرية اليابانية تحت رحمتكم » . واوصى وليم الثاني بان تقوم روسيا بشراء سفن حربية من المانيا « لكي يكون لديك خلال سنة أو سنتين وفي خلال مفاوضات السلام احتياطي لفرض شروطكم وان يجعلكم مستقلين عن التدخل الاجنبي »(١١٧) . وعندما طلب بيلوف من تيربتز وزير البحرية في ١٩ ايلول / سبتمبر ارسال تعليمات الى الملحق البحري الالماني في سان بطرسبورغ يطلب منه ان ينصح الروس باخراج سفنهم الحربية من بورت ارثر ، وجد ان وزير البحرية قد سبقه في ذلك . لكن الاخير وجد ان الملحق البحري الالماني كان قد اسدى النصيحة للروس . ويبدو ان الملحق البحري الالماني قد قام بهذا العمل بناء على أوامر من الامبراطور الالماني الذي كان يتدخل في شؤون البحرية الالمانية باعتباره القائد العسكري العام الذي له علاقات مباشرة وشخصية مع الضباط والملحقين البحريين الالمان في الخارج(١١٨). وعندما قام الامير هنري شقيق الامبراطور الالماني بزيارة الى روسيا في شهر آب / اغسطس طلب القيصر الروسي من الامبراطور الالماني ان يقوم الاسطول الالماني بحماية الاسطول الروسي الذي ستقوم شركة خط هامبورغ ـ امريكا بتزويده بالفحم حتى الشرق الاقصى ، ضد هجمات الطوربيدات اليابانية في بحر البلطيق وبحر الشمال . ومن دون ان يستشير وزارة الخارجية امر الامبراطور الالماني وزارة البحرية ووزارة الداخلية في البحث عن يابانيين مشتبه بهم . فتم وضع الموانيء ووحدات البحرية الالمانية في حالة من اليقظة والتأهب ، وبدأت الدوريات البحرية

بمراقبة المياه(١١٩) • من جهة أخرى قامت المانيا بتزويد ثلثي احتياجات روسيا من المعدات العسكرية منذ اندلاع الحرب الروسية ـ اليابانية(١٢٠)

وهكذا ظهر التقارب الالماني ـ الروسي للمراقبين ، وبخاصة البريطانيين ، وكان اتفاقية سرية تم التوصل اليها بين روسيا والمانيا بشأن الشرق الاقصى كما ادعت جريدة التايمس اللندنية في عددها الصادر يوم ١٤ ايلول / سبتمبر • بل ان بعض المسؤولين البريطانيين اعتقدوا « وجود تفاهم وثيق بين روسيا والمانيا »(١٢١) •

وعملت المانيا في الوقت نفسه على تحريض روسيا ضد بريطانيا • فقد اخبر الامبراطور الالماني القيصر الروسي بان بريطانيا قد هددت بالتدخل الى جانب اليابان في حالة تقديم المانيا أية مساعدة لروسيا كتزويد اسطولها المتوجه الى الشرق الاقصى بالوقود • واخبر وليم الثاني نيقولا الثاني ايضا بان بريطانيا تستعد لارسال حملة الى افغانستان(١٢٢) • وحذر الامبراطور الالماني قيصر روسيا بان يكون الاسطول الروسي الذي ترك بحر البلطيق الذي يريد عبور بحر الشمال في طريقه الى الشرق الاقصى حذرا من وجود قوارب مجهولة الهوية ضمن قوارب صيد الاسماك البريطانية المتواجدة بالقرب من ميناء هل Hull الانكليزي(١٢٣) • وان عملاء لليابان قد زرعوا الغاما في بحر الشمال(١٢٤) • وفي ليلة ٢١ تشرين الاول / اكتوبر وبينما كان الاسطول الروسي يعبر منطقة Dogger Bank في بحر الشمال ظن الاسطول الروسي (القليل التجربة) بأن قوارب صيد الاسماك البريطانية طوربيدات يابانية ففتح عليها النار خطأ مما ادى الى اغراق سفينتين واصابة سفينتين اخريين بأضرار وقتل سبعة صيادين بريطانيين • وقد نجم عن هذا الحادث

ازدياد الشعور المادي ضد روسيا في بريطانيا ووصل التوتر بين الدولتين الى درجة بدت الحرب وشيكة(١٢٥) • ولم يقتصر التوتر بين روسيا وبريطانيا ووصل التوتر بين الدولتين الى درجة بدت الحرب وبريطانيا فحسب بل شمل كافة اوربا • فبموجب بنود الحلف الفرنسي - الروسي ، فان على فرنسا ان تساعد روسيا في حالة نشوب حرب روسية - بريطانية • وان المانيا اصبحت « متورطه » في مساعدة روسيا ، بل ازداد الاعتقاد بان المانيا هي حليفة روسيا • ففي حالة قيام بريطانيا بمهاجمة روسيا فانها قد تهاجم المانيا وبذلك تنتهز هذه الفرصة للتخلص من المنافسة التجارية والبحرية الالمانية • من جهة أخرى وجدت المانيا نفسها مهددة في الدخول في حرب لاجل روسيا التي لم تعد المانيا بشيء بعد • ومع ذلك فان قادة المانيا وبخاصة الامبراطور ومستشاره ، اعتقدوا بان عليهم ان يحاولوا التوصل الى حلف مع روسيا • فأغتنم الامبراطور الالماني فرصة التقارب بين روسيا والمانيا وبعث للقيصر الروسي برقية « شخصية » في ١٤ تشرين الاول / اكتوبر عام ١٩٠٤ اوضح فيها « بان الصحافة الانكليزية استمرت ولفترة من الوقت تهدد المانيا بسبب السماح بارسال الفحم الى اسطول البلطيق الذي هو الان في طريقه (الى الشرق الاقصى) • وانه ليس من المستبعد ان تقوم الحكومة اليابانية والبريطانية بالاحتجاج معا ضد تزويدنا لسفنكم بالفحم • وان الغاية من وراء مثل هذا التهديد في الدخول في حرب (الى جانب حليفتها اليابان) ستكون انزال الشلل التام باسطولكم البحري والعجز عن تحقيق غايته بسبب حاجته الى الوقود • وانه يجب مواجهة هذا الخطر الجديد بالاتفاق بين روسيا والمانيا معا .

ويجب تذكير حليفتكم فرنسا بالتزاماتها التي تعهدت بها بموجب معاهدة الحلف الثنائي معكم .. وانه من المستحيل ان تحاول فرنسا التهرب من واجبها الواضح تجاه حليفتها عند دعوتها . (وان) دلكاسييه ... يدرك بان الاسطول البحري البريطاني ليس باستطاعته مطلقا ان يحمي باريس . وبهذا الاسلوب ، سيتم تشكيل تجمع من أقوى ثلاثة قوى اوربية ، وبذلك سيهاجم التجمع الانكليزي ـ الياباني الذي سيفكر مرتين قبل الاقدام على عمل ما » . وأخير وليم الثاني نيقولا الثاني ان مجموعة شركات ايطالية تطلق على نفسها The Terni Shipbuilding Trust تقوم بتشييد ثلاثة سفن حربية مدرعة زنة كل واحدة منها (١٢) الف طن الى اليابان . لذلك كرر الامبراطور الالماني لزميله الروسي اقتراحه السابق بوجوب قيام روسيا طلب سفن حربية جديدة تكون جاهزة وقت انتهاء حربها مع اليابان « وان شركاتنا الخاصة ستكون سعيدة جدا باستلام العقود »(١٢٦) . وعندما استلم القيصر الروسي برقية الامبراطور الالماني كان استياءه ضد البريطانيين كبيرا بحيث ذكر لوليم الثاني « بانه ليس لدى الكلمات لاعبر فيها عن سخطي لسلوك انكلترة » في الحادثة التي وقعت في بحر الشمال . وعلى الرغم ان نيقولا الثاني اقترح على بريطانيا تشكيل لجنة دولية للتقصي عن هذه الحادثة الا انه اخبر الامبراطور الالماني في ١٦ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٤ « بانني اتفق تماما مع تذمرك من سلوك انكلترة حول قيام السفن الالمانية بتزويد سفننا بالوقود ، بينما تفهم هي (بريطانيا) وحسب طريقتها الخاصة اسس الوقوف على الحياد . وبالتأكيد فان الوقت مناسب لوضع حد لمثل هذا السلوك . وان الطريق الوحيد ، وكما تقول ، هو بضرورة توصل

المانيا وروسيا وفرنسا الى اتفاق لوضع ترتيب يهدف الى القضاء على التكبر والغطرسة الانكليزية ـ اليابانيـة ٠ فهـل ترغب في صياغـة الخطـوط الرئيسة لمثل هذه المعاهدة وتخبرني ؟ وحالما نوافق عليهـا فان فرنسـا ستكون ملزمة بالانضمام الى حليفتها ٠ ان مثل هذا التجمع كان يدور في خلدي ، وانه يعني السلام والامن للعالم »(١٢٧) ٠ رد الامبراطور الالماني : « اننا نعرف بان المتطرفين والجماعات المناهضة للمسيحية (في فرنسا) والتي هي الان قوية ، تميل الى انكلترة ٠٠٠ ولكنها تعارض الحرب ٠٠٠ وتكن الجماعة القومية والدينية الكراهية لانكلترة وتتعاطف مع روسيا الا انها لا تريد التدخل الى جانب روسـيا في الحـرب الدائرة ٠ وتقف الحكومة الجمهورية على الحياد بين هاتين الجماعتين وسوف لا تقدم على اي عمـل ٠ وتعتمـد انكلترة على هذا الحياد وعلى ما سينجم لروسيا من عزلة ٠ وحتى نطمئـن هؤلاء الجمهوريين فقـد اعطت انكلترة المغرب الى فرنسا ٠ وان الدافع وراء السياسة الانكليزية في اعطاء هـذا التأكيـد الصارم هو حصولها على تأكيد مطلق يضمن بقاء فرنسا على الحياد ويضمن اعطاء تأييدها الدبلوماسي لانكلترة ٠ ان هذا الوضع غير المعلن سيتغير نحو الاحسن حالما تجد فرنسا نفسها وجها لوجه امام ضرورة الاختيـار والاعلان صراحـة بالانضمام اما الى سان بطرسبورغ أو لندن »(١٢٨) ٠ وفيما يخص مسودة معاهدة الحلف الالماني ـ الروسي والتي صاغ بنودها بيلوف ووافق عليها الامبراطور الالماني ، فقـد تضمنت ان تدخل حيـز التنفيذ خلال الحرب الروسية ـ اليابانية وانه اذا تعرض أحـد أطراف الحلف الى هجوم من قبل دولة اوربية فان الطرف الاخر يساعد حليفـه وان على روسيا والمانيا العمل معا عند الحاجة لتذكير فرنسا بواجباتها

التي التزمت بها في معاهـدة الحلف الفرنسي – الروسي • واقترح وليم الثاني على نيقولا الثاني أيضا التوصل الى اتفاقية دائمية بشأن تزويد اسطول روسيا المتوجه نحو الشرق الاقصى بالفحم • وعلى الرغـم من ان الامبراطور الالماني كان يدرك ان فرنسا سوف لا ترحب بهذه المعاهدة الا انه اعتقد انه عندما يتم توقيعها من قبل روسيا والمانيا فان فرنسا ستجد نفسها مضطرة لان تقرر وبسـرعة اما الانضمام الى هـذه المعاهدة ضـد بريطانيا أو انهاء الحلف الفرنسي – الروسي وبالتالي مواجهة المانيا في المستقبل القريب(١٢٩) • وان فرنسا ستدرك أيضا بانه ليس بمقدورها الوقوف على الحياد في حالة نشوب حرب روسية – بريطانية ولذا فانهـا ستمارس ضغوطا كبيرة على بريطانيا قـد تؤدي الى القضاء على الوفاق الودي(١٣٠) •

وحاول وليم الثاني اثارة غضب نيقولا الثاني ضد بريطانيا وفرنسا، واثارة حماسته ورفع معنويات روسيا بعد الهزائم التي منيت بهـا على يد اليابان حتى تحارب الى النهاية • ففي ١٩ تشرين الاول / اكتوبر ذكـر الامبراطور الالماني للقيصر الروسي بان السفير الياباني في سان بطرسبورغ Kurino موجود في باريس لاقناع فرنسا وبريطانيا بالقيام بدور الوساطة لانهـاء الحـرب الروسية ـ اليابانيـة لصالح اليابان • وعلل الامبراطور الالماني التحرك الياباني بانه دلالة عجز اليابانيين عن مواصلة الحرب وانهم يحاولون انهاء الحرب على امل الحصول على منشوريا خلال مفاوضات السلام مع روسيا التي ستجري بعـد ايقـاف الحرب « وانني اعتقد انه من واجبي اخباركم ••• بما يجري وراء الكواليس »(١٣١) • وعلى الرغم ان القيصر الروسي كان يدرك غاية الامبراطور الالماني في زرع

الشقاق بين روسيا وفرنسا وبريطانيا ، فانه أكد له بان « روسيا ستخوض هذه الحرب حتى النهاية الى ان يتم طرد آخر ياباني من منشوريا وبعد ذلك يمكن التحدث عن مفاوضات السلام وعلى ان تكون بين الطرفين المتحاربين فقط »(١٣٢) . وابدى الامبراطور الالماني امتعاضه من موقف القيصر الروسي باحالة حادثة بحر الشمال الى المحكمة الدولية . فأكد للقيصر الروسي في الثلاثين من تشرين الاول / اكتوبر بان سمع من « مصدر خاص » بان صياوي الاسماك البريطانيين قد اعترفوا بوجود قارب بخاري مجهول الهوية ضمن قوارب الصيد العائدة لهم(١٣٣) . ثم اخبر القيصر الروسي في ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر بانه علم من « مصدر موثوق في الهند » بان بريطانيا تستعد الى ارسال حملة عسكرية الى افغانستان أوضعها تحت السيادة البريطانية . وأكد وليم الثاني ما ذكره سابقا بان اليابانيين بدءوا يشعرون بالتعب والملل من الحرب ، وان خسائرهم في بورث ارثر كانت خمسين الف قتيل . لذلك طلبوا من فرنسا وبريطانيا التوسط لانهاء الحرب والحصول على منشوريا وبورت ارثر ، وان هاتين الدولتين اوعزتا لصحافتهما ترويج فكرة الوساطة(١٣٤) . وبعد أيام اوضح وليم الثاني خطة الوساطة المزمع تبنيها من قبل فرنسا وبريطانيا . فذكر للقيصر الروسي ان لانسداون وزير خارجية بريطانيا قد طلب من اليابانيين ان يطلبوا من بريطانيا ان تقوم بعملية الوساطة وان يحددوا أيضا الشروط التي يجب على روسيا ان تقبلها من أجل انهاء الحرب . وقد ارسلت اليابان شروطها التي اعتبرها لانسداون قاسية ، فطلب تخفيفها . وذكر الامبراطور الالماني بان وزير خارجية بريطانيا قد أكد لليابانيين بانه يجب ابعاد روسيا من منشوريا وكوريا واعطائها

لليابان ، وانه تم اخبار فرنسا بهذه الخطط . واوضح وليم الثاني لنيقولا الثاني « بانهم سيقدمون لكم جزءا من بلاد فارس كتعويض ، ومن الطبيعي ان يكون بعيدا عن ساحل الخليج (العربي) ... الذي تريد انكلترة ضمه لنفسها ، لانها تخاف ان تحصلوا على منفذ في المياه الدافئة ، الذي يجب ان تحصلوا عليه لانه حقكم ، لان بلاد فارس على وشك السقوط تحت سيطرة الحكومة الروسية . وسيمنحكم هذا منفذا تجاريا عظيما لذلك تعمل انكلترة على منعكم من ذلك . وربما قد اخبركم دبلوماسيوكم بهذه المعلومات قبلي ، ولكن ، ومع ذلك فانني ارى انه من واجبي اخباركم بكل ما اعرفه من اخبار خطيرة وجديرة بالتصديق وانها من مصادر موثوقة تماما » . واختتم الامبراطور الالماني برقيته قائلا : « وهكذا ، فانكم ترون بان مستقبل جيشكم مشرق وسوف تتمكنون من تغيير النتيجة ضد العدو (اليابان) . وادعوا الله ان يكلل جهودكم بالانتصار التام . بينما سأستمر أنا في مراقبة كل شيء لصالحكم »(١٣٥) . وتأكيدا على الصداقة الالمانية لروسيا ، اقترح الامبراطور الالماني القيام بمظاهرة روسية ـ المانية مشتركة على الحدود الافغانية ـ الروسية(١٣٦) .

وعلى كل حال ، فقد جرت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر مفاوضات بين المانيا وروسيا وتم تبادل مسودة معاهدة التحالف بعد ان اقترحت روسيا اجراء عدة تعديلات عليها والتي وافقت المانيا على ادخالها(١٣٧) . الا ان « المباحثات » وصلت الى طريق مسدود . فقد اراد الالمان توقيع معاهدة التحالف والدفاع مع روسيا ليجبروا فرنسا بالتالي الى الانضمام الى هذا الحلف . في حين اعلن الروس عن استعدادهم التوقيع على المعاهدة شرط اخبار فرنسا بذلك والطلب منها الانضمام اليها(١٣٨) . فقد اخبر

نيقولا الثاني وليم الثاني في ٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر انه طالما ان معاهدة التحالف لم يتم التوقيع عليها فانه يمكن ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليها « في حين انه اذا صادقنا عليها فان هذا يبدو وكأننا نحاول ان نفرض المعاهدة على فرنسا . والفشل في مثل هسه الحالة سيكون سهلا .. لهذا السبب اطلب موافقتكم باخبار الحكومة الفرنسية بهذا المشروع وسوف اعلمكم برقيا حال حصولي على ردها »(١٣٩) . ان موقف القيصر الروسي هذا يعني « رفض صريح لاية فكرة للتوصل الى تسوية من دون معرفة فرنسا المسبقة »(١٤٠) . ويرجع التغيير الذي طرأ على الموقف الروسي الى عاملين الاول ، أن القيصر الروسي جابه معارضة وزرائه وبخاصة لامسدورف ، الذين يعرفون كيف يقنعون قيصرهم فأوضحوا له ان يكون حذرا في تعامله مع فرنسا وان لا يضعها في هذا الموقف خشية ان تتصرف بسلوك ليس في صالح روسيا كأن تضعف روابط الحلف الفرنسي ـ الروسي او ان توثق علاقتها مع بريطانيا ، عدوة روسيا(١٤١) . والثاني ان التوتر الذي كان قائما بين روسيا وبريطانيا والذي وصل الى درجة اعلان الحرب بين الدولتين قد زال . فلم تنشب الحرب بسبب حادثة اطلاق النار على قوارب الصيد البريطانية لان الدولتين لم تكن راغبتين في الدخول في حرب ، بل انهما اتفقتا الى الاحتكام الى محكمة العدل الدولية لتسوية الموضوع(١٤٢) . واعلنت روسيا أنها ستنزل العقاب بضباط الاسطول الروسي الذين اطلقوا النار اذا ثبت تقصيرهم . امتعض الامبراطور الالماني من موقف روسيا هذا ، وعبر عن دهشته . فقد همش على رسالة السفير الالماني في لندن والمرسلة الى وزارة الخارجية الالمانية بما يلي :

« يا للخـزي ! لا يمكن لاحـد ان يسمح للاجانب بمحاكمة ضباطه الذين قاموا بعمل أثناء تأديتهم الواجب المناط بهم »(١٤٣) ٠ اما فيمـا يتعلق بموقف القيصر الروسي من معاهدة الحلف الالماني ـ الروسي ، فقد كانت قناعة الامبراطور الالماني « الراسخة » هي « ان اخبار فرنسا بالمعاهدة قبل التوقيع عليها عملية خطـرة جـدا وان نتائجها تعـارض رغباتنا » ٠ وانه في حالة التوقيع على هذه المعاهدة « التي تلزم كل طرف تقديم المساعدة المتبادلة سـوف تجبر فرنسـا على الضغط على انكلترة لتلتزم الهدوء وان تحافظ على السلام خوفا من الحـاق الخطـر بمكانة فرنسا ٠ ولكن اذا علمت فرنسا ان المعاهدة الروسية ـ الالمانية هي قيد الشروع ، وان التوقيع عليها لم يتم بعد ، فانها ستخبر ذلك وبسرعـة صديقتها (ان لم تكن حليفتها السرية) انكلترة والتي ترتبط معها بوفاق ودي وان نتيجة هذا الاخبار سيكون بدون شك هجوما سريعا من قبـل القوتين المتحالفتين انكلترة واليابان على المانيا في أوربا وكذلك في اسيا ٠ وان سيطرتهم البحرية المطلقة سوف تعمل على تحجيم عمـل اسطولي الصغير ، وسيؤدي الى شل المانيا مؤقتـا ٠ وان هـذا سيؤدي الى قلب معادلة التوازن في العالم في غير صالحنا ٠ وبالتالي فانه عنـدما تبدأون مفاوضات السـلام فستجدون انفسـكم وحيـدين وتحت رحمـة اليابان وأصدقائها القريبين والمبتهجين ٠ انها رغبتي الخاصة ٠٠٠ في الحفاظ وفي تعزيز معادلة التوازن العالمي المهددة بالخطـر من خلال اتفاقيـة بين روسيا والمانيا وفرنسا ٠ ويمكن تحقيق ذلك فقط اذا أصبحت معاهدتنا حقيقية واذا توصلنا الى اتفاق بأي شكل كان ٠ ان اخبار فرنسا مسبقا سيؤدي الى كارثة ٠ ومع ذلك ، فاذا اعتقدت انه من المتعذر التوصل الى

معاهدة معنا من دون استحصال موافقة فرنسا المسبقة فان الخيار الامن هو عدم التوصل الى أية معاهدة مطلقا ... وستبقى علاقاتنا وشعورنا المتبادل كالسابق ، وسوف استمر في محاولتي ان أقدم لكم ما ينفعكم .. »

وهكذا توضح موقف الامبراطور الالماني : اما التوصل الى معاهدة سريه أو لا شيء(١٤٤) . ومهما يكن ، فان القيصر الروسي أكد للامبراطور الالماني في السابع من كانون الاول / ديسمبر عام ١٩٠٤ موقفه السابق والصريح من معاهدة الحلف المقترحة وهو انه سوف لا يوقع المعاهدة ما لم تعرض على فرنسا ، حليفته لمدة عشرة أعوام(١٤٥) ويتم استحصال موافقتها . وازاء الاصرار الروسي هذا اخبر وليم الثاني نيقولا الثاني في الحادي والعشرين من كانون الاول / ديسمبر انه بسبب الموقف الروسي فانه من الافضل الاكتفاء بتوقيع اتفاقية المساعدة المتبادلة التي تنص على وقوف المانيا وروسيا جنبا الى جنب في حالة اندلاع حرب مع بريطانيا كنتيجة لقيام المانيا بتزويد الاسطول الروسي في البلطيق بالوقود وهو في طريقه الى الشرق الاقصى(١٤٦) . وهكذا بات محاولة الامبراطور الالماني بفصل روسيا عن فرنسا بهدف القضاء على الحلف الفرنسي ـ الروسي بالفشل والتي هي « الاخفاق الشخصي الاول في حياتى وأمل ان لا يكون الاول في سلسلة من تجارب مماثلة »(١٤٧) .

ويبدو ان القيصر الالماني ومستشاره قد وقعوا في خطأ عند تقييمهم لطبيعة العلاقات الفرنسية ـ الروسية وانعكاساتها على المانيا ، فلم يفترض هؤلاء ان بنود الحلف الفرنسي ـ الروسي ، والتي لم يطلعوا عليها ، كانت موجهة ضد المانيا . اضافة الى ذلك فانهم كانوا يعتقدون بامكانية اقامة علاقات ودية بين المانيا وروسيا لانهم كانوا يتصورون بان

روابط الحلف الفرنسي ـ الروسي ضعيفة جدا بل ان اسباب تكوين هذا الحلف قد زالت . لذلك فعندما اقترحوا معاهدة الحلف مع روسيا كانوا يأملون انه اذا أصبحت فرنسا عضوا فيه فبذلك يتم تشكيل عصبة قارية ضد بريطانيا ، واذا رفضت فان هذا سيؤدي الى حل الحلف الفرنسي ـ الروسي . ففي حالة موافقة فرنسا على الانضمام الى معاهدة الحلف المقترحة ، فان هذا سيدعم سياسة المانيا العالمية وسيتم تشجيع الروس ضد البريطانيين في الهند ، وستلعب فرنسا دورا في اوربا حيث سيتحمل اسطولها عبئا كبيرا في المياه الاوربية . ولو جاءت المانيا لمساعدة روسيا في محنتها هذه ، لربما رحبت روسيا بمعاهدة الحلف . وهكذا وبعد ان وجدت روسيا نفسها عاجزة عن الدخول في نزاع مع بريطانيا ، قبلت الاقتراح البريطاني على عرض حادثة بحر الشمال الى الاحتكام الدولي ، وادعت بانها هي صاحبه الاقتراح هذا وليس بريطانيا من أجل رفع سمعتها وهيبتها . اضافة الى ذلك انه ليس من مصلحة روسيا رؤية تقارب فرنسي ـ ألماني . فطالما بقى النزاع بين فرنسا والمانيا بسبب الالزاس واللورين ، فان هذا يؤمن لروسيا حدودها الغربية مع المانيا ، اضافة الى تدفق القروض الفرنسية . علاوة على ذلك . ان غاية روسيا في ضم فرنسا الى معاهدة الحلف مع المانيا هو احياء التعاون الالماني ـ الفرنسي ـ الروسي لعام ١٨٩٥ والذي شهدته منطقة الشرق الاقصى . لذا كانت الاهداف الروسية والالمانية بشأن توقيع الحلف متضاربة . فقد ارادت روسيا تقوية موقفها في الشرق الاقصى دون ان تتسيد المانيا على اوربا ، وارادت المانيا ان تنعم في أمن في اوربا من دون التورط في الشرق الاقصى(١٤٨) . وبفشل المانيا التوصل الى معاهدة حلف مع

روسيا في عام ١٩٠٤ تلاشت والى الابد امكانية تحقيق هيمنة المانية على اوربا بالطرق السلمية(١٤٩) ·

ولم يكن جميع المسؤولين الالمان يؤيدون الاجراء الفردي الذي قام به الامبراطور والمستشار الالماني للتوصل الى معاهدة حلف مع روسيا · فبدأ هؤلاء يتساءلون عن قيمة هذا الحلف وما ستفعله روسيا من أجل المانيا وضد من · ففي الاجتماع الذي دعا اليه بيلوف جميع المستشاريين والعسكريين تمت مناقشة الموضوع من أجل التوصل الى سياسة موحدة وحضر الاجتماع تيربتز الذي كان يبدي معارضته لمشروع الحلف مع روسيا(١٥٠) · لان مثل هذا الحلف سيزيد من مخاطر قيام بريطانيا بشن هجوم على الاسطول البحري الالماني الذي لا زال ضعيفا بالمقارنة مع الاسطول البريطاني(١٥١) · ولم يكن وزير البحرية الالماني الوحيد الذي عارض معاهدة الحلف مع روسيا فقد عارضها كل من وزير الخارجية البارون اوزوله ريجنـــوفن Baron Oswald von Richthofen ورئيس أركان الجيش الكونت الفريد فون شليفن A. von Schlieffen ولقد ترك تيربتز الاجتماع قلقا · وفي اليوم التالي كتب الى وزير الخارجية يحثه فيه الى العمل من أجل افشال محاولة التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا · فيقول : « وكما قلت أمس ، ان الحلف مع روسيا ليس له أية قيمة عسكرية في حالة حدوث حرب في البحر فحسب بل ، وعلى ما اعتقد ، حتى في حالة حرب برية ، فان قيمته ضئيلة · وحتى في أحسن الاحوال وعندما يقرر الروس اعطاءنا عدة فيالق عسكرية ضد فرنسا فانه يبدو لي بان قيمة (١٠٠) أو (٢٠٠) الف جندي في حرب يتقابل بها ملايين الجنود تكون ضئيلة وربما لا تساوي الصعوبات التي تواجهنا عند اداء

أجهزتنا العسكرية والتي هي النتيجة الحتمية للفيالق الروسية • وأخيرا دعونا ننظر الى الموضوع من ناحية حاجتنا الاتية الماسة • نفترض ان تقوم انكلترة بشن هجوم علينا ، ثم تقرر روسيا ان تدخل الى جانبنا فان الحلف بين روسيا وفرنسا والموجه ضدنا سيعيق أي قرار تتخذه ضد فرنسا بينما سوف لا تكون للمساعدة الروسية أية نتيجة ••• واذا اعلن الحلف (بين المانيا وروسيا) فان الرأي العام البريطاني باجمعه سينقلب ضدنا ••• »(١٥٢) •

وهكذا يتضح الاختلاف الكبير بين وجهات النظر فيما يتعلق بمعاهدة الحلف الالماني – الروسي فقادة صنوف الجيش البرية والبحرية رفضوا قبول المعاهدة لاعتبارات عسكرية ، بينما أيد هولشتاين كلا من الامبراطور الالماني ومستشاره اللذين عملا ما بوسعهما من أجل توقيع هذه المعاهدة مع روسيا ، لاعتبارات سياسية هدفها اضعاف النفوذ الروسي في اوربا ، عن طريق القضاء على الحلف الفرنسي – الروسي أو تحييده ، أو تأييد الوجود الروسي في الشرق الاقصى كمنطقة حاجزه buffer بين النفوذ البريطاني والياباني والامريكي في الصين(١٥٣) •

وعلى كل حال ، فلم يحدث الصراع بين بريطانيا وروسيا الذي انتظره الالمان طويلا • فلم يكن البريطانيون أو الروس تواقيين الى هذا الصراع • فالشعور المعادي لروسيا في بريطانيا أصبح الان ضد المانيا • فساد الاعتقاد في بريطانيا بأن المانيا تعمل جاهدة من أجل توريط بريطانيا في حرب مع روسيا وبخاصة بعد ان اتهمت Vanity Fair الصادرة في ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٤ و Army and Navy Gazette الصادرة في ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر المانيا بانها تقف وراء حادثة بحر

الشمال(١٥٤) • وحرضت هذه المجلات على قيام بريطانيا بشن حرب وقائية ضد المانيا ، قبل ان يشكل تنامي الاسطول الالماني تهديدا لبريطانيا(١٥٥) • واتهم اللورد فيشر J. Fisher قائد البحرية البريطانية المانيا بانها تقف وراء الحادثة « وان الامبراطور الالماني يخطط كل ما يعرفه من أجل خلق حرب بيننا وبين روسيا »(١٥٦) • من جهة أخرى اخبر سفير المانيا في لندن المستشار الالماني بان البريطانيين يعتبرون المانيا عدوهم الحقيقي وانهم يعتقدون بان المانيا ستشن هجوما على بريطانيا عندما يصبح الاسطول البحري الالماني قويا وضخما • وذكر السفير لبيلوف بان البريطانيين يعتقدون أيضا بان المانيا « قد اعطت اشارات ... الى الحكومة الروسية حول المخاطر التي تهدد الاسطول الروسي عند خروجه من بحر البلطيق ... لكي يندلع صراع انكليزي – روسي »(١٥٧) وبدأ الرأي العام البريطاني يطالب بايقاف المانيا عند حدها ، وان يتم وضع حد لبرنامج التسليح البحري الالماني لان المانيا تنوي محاربة بريطانيا في المستقبل(١٥٨) • وخيم على القارة الاوربية في شتاء ١٩٠٤ – ١٩٠٥ شبح اندلاع حرب بين بريطانيا والمانيا • واتخذت بريطانيا استعدادات تهدف الى توزيع اسطولها البحري تحسبا لتدهور العلاقات مع المانيا(١٥٩) بل ان البحرية البريطانية درست امكانية القيام بعمل ضد الاسطول البحري الالماني على غرار عملية كوبنهاغن لعام ١٨٠٧ عندما وجه الاسطول البريطاني ضربة قاصمة للاسطول الدانماركي الذي كان راسيا في كوبنهاغن(١٦٠) •

اما في المانيا ، فان الامبراطور الالماني ، الذي أخذ يكن الكراهية والحقد لبريطانيا(١٦١) ، فقد عاش أياما قلقة • فكان يرى بان الحرب

ستنشب « هذا المساء ، أو الليلة ، أو فجر غد »(١٦٢) • واعرب قـادة البحرية الالمانية عن مخاوفهم من قيام بريطانيا بشن هجوم بحزي ضـد ألمانيـا • ووضعت المانيـا الخطط الحربية الكفيلة لمواجهة مثـل هـذا الهجوم(١٦٣) • وعلى الرغم من ان شبح الحرب بين بريطانيا والمانيا قد زال ، الا ان المستشار الالماني حذر السفير البريطاني في برلين انه اذا أصبح هدف تحقيق علاقات ودية بين بريطانيا والمانيا متعذرا فان المانيا « ستضطر بحكم الظروف الى اتخاذ جانب روسيا »(١٦٤) • وفي الواقع ان هذا مجرد تهديد • فالقصير الالماني ومستشاره كانا يدركان جيدا ان السبب الرئيس وراء عدم حماستهما المؤقتة في التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا هو قناعتهما بان مسودة المعاهدة المقترحة ستصل الى بريطانيا عن طريق فرنسا ، وبالتالي فان هذه المعاهدة ستعمل على ازدياد الخصومة بين بريطانيا والمانيا • وكتب بيلوف الى هولشتاين في ١٣ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٤ « ان النقطة الحاسمة دائما هي فيما اذا كان التوصل الى اتفاقية أو حلف أو أي نوع من المعاهدات مع روسيا سيقلل أو سيزيد من المخاطر التي تهددنا من جانب انكلترة ••• بينما الاتفاقية مع روسيا والتي تضمن السلام وترفع مكانتنا في العالم ستكون بمثابة نجاح عظيم لسياستنا الخارجية وسيتم الترحيب بها في جميع الدوائر وبصورة واسعة كعودة للسياسة البسماركية التقليدية ، فان أي علاقة مع روسيا والتي ستؤدي ••• الى جلب خصـومة انكلترة لنا ستشجبه وبالتأكيد الامـة بأكملهـا ••• »(١٦٥) ومع ان بيلوف كان يؤيد الامبراطور الالمـاني في التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا الا انه رفض سياسة الامبراطـور الالماني تجاه بريطانيا • فقد القى المستشار الالماني اللوم على الامبراطور الالماني في جلب عداوة الدول الاوربية وحكامها لالمانيا • لقد جلبت سياسة

الامبراطورية الالماني ، يؤيده في ذلك بيلوف الى حد ما ، عداوة روسيا وامتعاض قيصرها أيضا · فقد أدركت روسيا ان هدف المانيا في تشجيعها في الشرق الاقصى هو من أجل تحقيق هيمنة المانية على القارة الاوربية · فبدأت الاصوات تتعالى في روسيا بان « اي شخص يطالبنا بالاستمرار في الحرب هو ليس صديقا مخلصا لروسيا »(١٦٦) · وتم اغتيال Piehve زعيم الجماعة المؤيدة لاستمرار الحرب الروسية - اليابانية(١٦٧) · يضاف الى ذلك ان توتر العلاقات البريطانية - الالمانية كان لها تأثير على العلاقات الالمانية - الروسية أيضا · وعلى الرغم من توقيع اتفاقية روسية - ألمانية بشأن قيام المانيا بتزويد السفن الحربية الروسية بالوقود في ١٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٤(١٦٨) التي اصر وليم الثاني على « ان لا تسمع قوة ثالثة أو ان تهمس عن غايتنا قبل ان نتوصل (اليها) ··· والا فان العواقب ستكون خطيرة »(١٦٩) ، فقد قام اثنان من عملاء شركة خط هامبورغ - امريكا بزيارة الى سان بطرسبورغ بهدف بيع سفن الشركة الخاصة بتزويد الوقود الى روسيا · لكن روسيا رفضت عرض الشركة بحجة عدم وجود طواقم لادارة هذه السفن · فأبدى الامبراطور استغرابه من ذلك واخبر نيقولا الثاني : « لا يمكن ان تكون هذه الحقيقة، واعتقد بان الرغبة في التوصل الى سلام وبأي ثمن كان راسخة في عقول الاطراف التي ترى بتعذر ذلك · وبالتأكيد فانه يمكن جلب بضع مئات من البحارة مع بعض الضباط والمهندسين في اسطول البحر الاسود » الذي لم يشترك في الحرب الروسية - اليابانية من أجل تشغيل سفن الوقود(١٧٠) · وعندما طلب نيقولا الثاني من الامبراطور الالماني ان يأمر شركة خط هامبورغ - امريكا بتزويد الاسطول الروسي المتوجه الى الشرق

الاقصى بالوقود بعد ان امتنع مدير الشركة المذكورة بحجة عدم استلامه تعليمات من المستشار الالماني(١٧١) ، رد وليم الثاني « بانني لا اتمكن بالقيام بشيء لامنع (الشركة) ولا استطيع اعطاء تعليمات مهما كانت بهذا الخصوص ، لانها شركة خاصة • وشركة خط هامبورغ – امريكا تدرك الوضع ويجب ان تتصرف حسب مسؤوليتها •• واعطيت الامر بأخبار بالين (مدير الشركة) بانني وحكومتي نرى بانه حر التصرف في اتخاذ أي اجراء يراه مناسب »(١٧٢) • وتعود أسباب هذا التغيير في موقف الامبراطور الالماني تجاه روسيا الى رفض القيصر الروسي توقيع معاهدة الحلف الروسي – الالماني والى تاثير بيلوف وهولشتاين والقادة العسكريين • فيرى هؤلاء ان روسيا لم تعد تعتبر دولة عظمى بسبب الهزائم التي منيت بها على يد اليابان وبسبب الوضع الداخلي المتدهور والذي تفاقم بصورة خاصة بعد اندلاع الثورة في روسيا • لذلك اعتقد هؤلاء بضرورة تحسين علاقات المانيا ببريطانيا وحاولوا تحقيق ذلك(١٧٣) • لكن اهتمام المسؤولين الالمان جميعهم بوجوب انشاء الاسطول البحري ، ذراع السياسة العالمية لتحقيق الدولة العالمية ، وبأسرع وقت اضاف عامل جديدا الى اسباب التوتر في العلاقات بين الدولتين •

وهكذا بات محاولة الامبراطور الالماني الشخصية بالتوصل الى معاهدة حلف مع روسيا يهدف القضاء على الحلف الفرنسي – الروسي الذي حتم على المانيا الحرب على جبهتين بالفشل ، لان القيصر الروسي رفض التوقيع على هذه المعاهدة الا بعد ان تكون حليفته فرنسا على علم بها • فالقيصر الروسي كان بأمس الحاجة الى القروض ولا توجد غير فرنسا مصدرا لذلك ، ولم يكن نيقولا الثاني يريد انهاء الخلافات القائمة بين

المانيا وفرنسا وعقد حلف بينهما ، لان مثل هذا الحلف سيؤدي الى ايجاد ائتلاف مماثل لائتلاف القرم • وان فشل المانيا التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا عام ١٩٠٤ تعني تبدد حلم المانيـا في تحقيق هيمنة على القارة الاوربية بالطرق السلمية •

اقرأ الهوامش على الصفحة ٢٠٩

★ ★ ★

الامة ... التاريخ ... التحدي

الاستاذ الدكتور
حسن فاضل زعين
رئيس قسم التاريخ
كلية التربية الاولى
جامعة بغداد

المقـــدمة :

لقد مرت الامة العربية في تاريخها الطويل بفترات من الوحدة والقوة والازدهار الحضاري ، كمــا مرت بفترات من التجزئة والضعف والغــزو الاجنبي ، اظهرت الامــة فيهــا عن قدرتها وفعاليتها وتأثيرها في مجــرى الاحــداث ، وكشفت عــن ذاتهــا وهويتها القومية في اطــار خصوصيتها العربية · كماو برهنت فيها عن اصالتها الحقيقية ، تلك الاصالة المستندة الى ماض واقع عريق لا الى ماض موهوم · وهي اصالة لا زالت نابضــة بكل معاني الحياة والابداع ·

وقد احتل هذا الماضي في حياة الامة وعقيدتها ، مكانا بارزا ، تجلى في محافظتها عليه ، وعنايتها به ، وتدوينها له ، حتى أصبح لا يعرف امة في التاريخ اعتنت بتاريخها قدر عناية واهتمام الامة العربية بتاريخها ، يؤكــد ذلك ، غزارة المؤلفات التاريخية لعلماء الامــة ومؤرخيها ، يقــول الكمال جعفر الادفوي « ·· لقد وضع فيه السادة الحفاظ والائمة العلماء الايقاض كتبا تكاثر نجوم السماء ، ثم منهــم بيقين ن رتب على السنين ،

ومنهم من رتب على الاسماء ليكون اسني واسمى ، ثم منهم من خص بعض البلاد ، ومنهم من عم كل قطر وناد »(١) ويقـول روزنثال « ان المؤلفـات التاريخية العربية في كثرتها تفوق في العدد المؤلفات الاغريقية واللاتينية ومؤلفات اوربا والشرق الاوسط في العصور الوسطى »(٢) .

وثمة اصالة جديدة تضاف لمآثر تاريخ الامة ، كشفت عنها جهـود علماء الامة كاليعقوبي العراقي ، والمسعودي البغدادي ، وابي الفدا وغيرهم من الذين حفظوا أخبار وتاريخ الشعوب والامم الاخرى من هنود وروماں وصينيين ويونان ، فأمدونا بمعلومات تاريخية مهمة عنها ، مبرهنين بذلك عن نزعة علمية اصيلة ، ونظرة انسانية سامية لتراث تلك الامم .

الامة في التاريخ :

ان الايمان بالامة وحقيقة ماضيها وقيمة فعله ، في اطار من التقدير المتزن والادراك الواعي ، يبعث بلا شك في النفس شعورا بالاطمئنان والثقة بها ، وبدورها الحضاري والانساني منذ فجر تكوينها في التاريخ ، ذلك التكوين الذي كانت لها فيه اسبقية معروفة على سائر الامم ، بما افرزه من فكر مبدع ، وتقدم مادي مؤثر . يقول الرئيس صدام حسين « ان الامـة العربية ابتدأت التكوين والتأليف واكتشفت الكتابة بأسبقية معروفة »(٣)، ذلك « ان الحضارات الاساسية التي نشأت في الوطن العربي كانت تعبيرا عن شخصية أبناء الامة ، الذين نبعوا من أصل واحد ، واذا كانت لتلك الحضارات خصوصية وطنية ـ كحضارة وادي الرافدين ووادي النيل ـ فان خصوصيتها الوطنية هي جزء من السمة القومية الاعم والاشمل »(٤) . ذلك ان الامة العربية ، استمدت منذ وجودها ، عناصر ديمومتها وقوتها وتأثيرها ، من وعيها الذاتي وخصوصيتها القومية ، واستيعابها لدورها .

وقدرتها على محاكاة حركة الواقع والاستجابة اليه ، وتفاعلها معه ، والتعبير عنه بصيغ متجددة من التطور والابداع • وفق منطلقات فكرية وعقائدية وحضارية اثرت في مجرى التاريخ ، ورسمت خطوط شخصيتها فيه •

امة فاعلة مؤثرة ، وهي بنفس الوقت متفاعلة مع غيرها من الامم في اطار خصوصيتها التاريخية والقومية ، وقد أكد ابن خلدون هذه الخصوصية بقوله « ان العرب اقدم الامم »(٥) ، وانهم - أي العرب - « اصعب الامم انقيادا بعضهم للبعض »(٦) ، وعن انجازاتهم كأمة فاقت جميع الامم يقول « بل قد يجهل الكثير منهم - أي أفراد الامة - انهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لاحد من الامم في الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهد بذلك ثم دولة مضر في الاسلام »(٧) ، اما ابن هشام فيعتبر العرب أمة كلها من ولد اسماعيل وقحطان(٨) ، مشيرا بذلك الى خصائصها التاريخية والقومية •

ومن الطبيعي ان تكون الامة وهي بهذا الوجود القائم ، الموغل في القدم ، وذلك التأثير الفاعل ، وتلك القدرة على تجاوز واقعها • وتصاعد نهوضها ، ان يكون لها دور غير اعتيادي ، هذا الدور الذي استمدته من وعيها لذاتها ولدورها الانساني والحضاري في الحياة ، فارتفعت الى مستوى التحدي الجلل ، فردت عليه بما هو اروع وأجل ، وفي نوع ردها ذاك تجلت اصالتها في التاريخ ، تلك الاصالة التي عبرت عنها معاركها القومية كذي قار ، واليرموك ، والقادسية ونهاوند وغيرها •

ومن الجدير بالملاحظة ، ان الامة العربية في كل مراحلها التاريخية ، كانت تواجه أكثر من نوع من التحدي ، مثلته تحديات ذاتية وخارجية وفكرية شعوبية ، جميعها استهدف وجود الامة وفكرها وعقيدتها •

ففي مرحلة ما قبل الاسلام ، كان هناك التحدي الفارسي على أرض العراق والجزيرة العربية (اليمن) والرومي البيزنطي في بلاد الشام ومصر، والحبشي في اليمن •

اما مرحلة الاسلام ، فقد شهدت تحديا ذاتيا بين الامـة وهي في فترة انبعاثها الجديد ، وبين أعدائها من المشركين ، تلاه حركات الردة ، التي تزامن معها تحديان خارجيان مثلهما كل من الفرس في العراق ، والروم في الشام ، اما العراق فكان نصيبه نوعين مختلفين من التحدي :

أولهما : قاده الفرس ابتداء من معركة ذات السلاسل وانتهاء بمعركة نهاوند ليستمر بعدها على شكل تحديات متفرقة استمرت حتى وقتنـا الحاضر ليتفجر في أضخم تحدي عنصري ليجد أروع رد قومي مثلته معركة قادسية العرب الثانية •

وثانيهما : تتزامن مع الاول في الزمان والمكان ، مثله الروم بقيادة الانطاق الذي اتجه من الموصل فأحتل تكريت سنة ١٦هـ فتصدى لـه عبدالله بن المعتم فحررها منهم ، في الوقت الذي كانت فيه القوات العربية تتصدى للتحدي الفارسي في جلولاء بقيـادة هاشم بن عتبة ، فكسر شوكتهم ومزق شملهم(٩) •

اما التحدي الشعوبي ، الذي استهدف طمس الذات العربية ، وقطع الجذور التاريخية والثقافية والعقائدية للامة ، فقد رافقها في كل أدوارها التاريخية •

ان ربط تكـوين الامة وقدرتها على مواجهة الاخطار والتحديات التي واجهتها بمرحلة الاسلام فقط ، والتغافل عن وجودها وحركتها الفاعلة في المراحل التي سبقته أو فصلته عنـه ، منزلق خطير ينبغي الانتباه اليه ،

والرد عليه ، لما يحمله من نظرة احادية متطرفة لا تلامس حقيقة الامة كوجود حي فاعل ومسار تاريخي متصل لا يمكن فصل حلقاته بعضها عن البعض الآخر ، وقد أكد هذه الحقيقة كثير من المؤرخين منهم ابن هشام(١٠) ، واليعقوبي(١١) ، والطبري(١٢) ، والمسعودي(١٣) ، وابن خلدون(١٤) ، فيقول الطبري « وانا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان ‥ فذكرنا من تاريخ الملوك الماضيين وجمع من أخبارهم وازمان الرسل والانبياء ، ومقادير أعمارهم وأيام الخلفاء وبعض سيرهم ، ومبالغ ولاياتهم والكائن الذي كان من الاحداث في اعصارهم ، ثم انا متبع آخر ذلك كله ، ذكر صحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأسمائهم وكناهم ، ومبالغ انسابهم ومبالغ اعمارهم ‥ »(١٥) ٠

اما المسعودي فانه رغم اعترافه بالاهمية الحاسمة للاسلام في حياة الامة وانطلاقها ، الا انه لا ينكر وجودها قبله فيقول « ثم اتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة ‥ والقرون الخالية ، والطوائف البائدة على مر سيرهم ‥ الى ما في تضاعيف ذلك من اخبار الانبياء والرسل والاتقياء الى ان افضى الله بكرامته وشرف برسالته محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم، فذكرنا مولده ، ومنشأه وبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه الى اوان وفاته ، واتصال الخلافة واتساق المملكة بزمن زمن »(١٦) ٠

ويقرر ابن خلدون هذا النهج قوميا وتاريخيا فيقول « وتناولت في الكتاب الثاني أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدأ الخليقة الى هذا العهد »(١٧) ٠

امة ارتقت رغم التحديات التي واجهتها ، الى ذروة الوعي والنهوض والتوثب ، ففضلها الله على سائر الامم ، حين خصها برسالته ، وشرفها

بحملها ، والتبشير بها ، قال تعالى « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(١٨) ، وقد أكد الرئيس صدام حسين هذه الجوانب الايجابية المتحققة في الامة بقوله « ان حقيقة كبيرة يجب ان تظل امامنا .. وهي ان الثورات الاجتماعيه الكبرى لا يمكن ان تظهر في سياقات اعتيادية من النمو والتطور ، واية امة تظهر فيها تلك الثورات لا تكون ميتة أو عاجزة وغير قادرة على الحركة والعطاء ، رغم ما يبرز على السطح من عوامل التردي في المرحلة التي تنشأ فيها تلك الثورات فمن غير الممكن ان تحدث فيها هذه الثورات من الناحية العملية ، تكون لها رسالة ذات بعد انساني وثوري اذا لم تكن الامة التي تنهض بها امة حية وفي مرحلة مخاض عسير .. لان حمل مثل هذه الرسالة لايمكن ان ينهض به الا الناس الجديرون بذلك ، ولكن في نفس الوقت لابد ان يكونوا في حالة مأزق تأريخي ، في شتى مناحي الحياة ، لكي تكون عملية التجدد مطلوبة وتظهر بصيغة ثورة وبنظرة شمولية للحياة »(١٩) .

ويقول أيضا « اذن فان اختيار العرب لحمل رسالة الاسلام ، لم يكن لسوئهم وانما لقدرتهم على ان يكونوا قادة للانسانية جمعاء ، ليغيروا وجهها في تلك المرحلة ، وبذلك تمازجت عوامل القدرة في الامة على تأدية الرسالة مع الظواهر السلبية للممارسات العارضة في حياة العرب لتكون الارضية الصالحة والدور المطلوب حيث وضعت الرسالة »(٢٠) .

ومما لاشك فيه ، ان التغيير الجذري الذي أصاب الامة العربية ، وفجر طاقات الابداع والتجدد والاصالة فيها عقائديا وقوميا ، انما ارتبط بالاسلام ارتباط عضويا لا انفصام فيه ، فزادها وضوحا ، واغناها ، عمقا ، وبذلك تلاحمت العروبة والاسلام ، كتلاحم الروح والجسد ، يقول الرسول صلى

الله عليه وسلم « اذا عز العرب عز الاسلام ، واذا ذل العرب ذل الاسلام »(٢١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم « احب العرب لثلاث : لاني عربي ، القران عربي ، ولسان اهل الجنة في الجنه عربي »(٢٢) ، « ذلك ان العرب هم حماة الاسلام وروحه ومنهجه وقادته وهم اول من حمل مشاعله المضيئة الى العالم واول من رسم الطريق الى العيش الكريم والحياة الحرة »(٢٣) .

امة انجبت محمدا « كذلك ارسلناك في امة قد خلت من قبلها امم »(٢٤) ، فانجب صلى الله عليه وسلم امة واحدة متميزة ، عقيدة وفكرا ومنهجا . حين اعلن قيامها بوثيقة المدينة التي كتبها صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم « انهم امة واحدة من دون الناس »(٢٥) ، فضلا عن تشريف الله تعالى لها بقوله « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون »(٢٦) ، « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون »(٢٧) وقوله « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين »(٢٨) .

لقد تجلت عبقرية الرسول العظيم (ص) في احكام بناء صرح الامة ، قيادته التاريخية الفذة لها ، وفي بعث الانسان العربي المناضل المؤمن بوحدتها ، المستوعب لرسالتها السماوية وقيمها الانسانية ، المتفاني في الدفاع عن وجودها وكرامتها ، المتفاعل مع مسيرتها ، المؤثر في عملية بنائها وشموخها . فحقق هذا البناء المحكم ، وذاك الانبعاث الجديد للامة المستندل الى العقيدة ، زخما عقائديا وقوميا متصاعدا ، استطاعت من خلاله الانتشار ، متجاوزة كل أشكال التحدي وصيغه ، مسجلة أروع

صفحات النص والمجد في بدر ، واحد والخندق وحنين ٠٠ وكان اروع نصر لها اعقب وفاة الرسول (ص) فضاؤها على اخطر تحد داخلي استهدف تمزيق كيانها مثلته حركات الردة التي راهن عليهـا أعـداء العـروبة والاسلام من فرس وروم ويهودا ، فعادت الامة اشد وحدة واكثر وعيـا لتواصل نضالها وتحرير أرضها بهدى من قيم رسالتها ومبادئها النبيله ، لتنجز وحدتها القومية الكبرى ، في اطار الوطـن العربي ، منهيـة كل التحديات الخارجية الفارسية والرومية الموجودة على أرضـه ، لتنطلق بعدها شرقا الى حدود الصين ، وغربا الى اوربا في اعظم انتشار انساني لها ، هدفه انقاذ البشرية من الظلم والطغيان واحلال الامن والاستقرار في ربوع تلك المناطق(٢٩) ٠

ان النظرة الواعية ، والتحليل الواقعي ، والتعليل العلمي ، المستلهم لروح الامة وقيمها ، خاصة في ظل الظروف الراهنة التي تشهد انبعاثا جديدا لامتنا ، وخطورة ما يرافقها من تحديات الحاضر والمستقبل تجعل النهوض بالكتابة التاريخية ، ضرورة ملحة ، تضع المؤرخ العربي اليوم أكثر من أي وقت مضى أمام مسؤولية وطنية وقومية ، تدعوه لتوظيف امكاناته وقدراته لاظهار فاعلية الامة ، وعظمة تاريخها ومآثرها الخالدة ، في اطار تدوين تريخي يخدم أغراض النضال والصمود ويعزز قدرة الامة في التقدم والتطور ، لاتخاذه نقطة انبعاث وانطلاق ، لا مجـال انكفـاء واكتفاء ، وبهذه النظرة نكون امة تتخطى على الدوام ذاتها ، وتزهو كل يوم بابداع جـديد ، يغني الحاضر بعناصر التجدد والانطلاق ، ويبعث الثقة بمستقبل متطور خلاق ٠

تاريخ الامة :

ان حيوية تاريخ الامة اصالتها وعراقته ، لا يتحدد ببداية ، ولا يؤرخ بحدث ، فهــو مسيرة متصلة من بدايت ارتبطت بنشــأة الامــه وتكوينها التاريخي(٣٠) . وهو لا يزال ذاكرتها الحية ، وسجل لارادتها ومآثرها الخالدة وصورة لحركتها ، ووعاء لتجاربها ، اذ به كما يقول ابن دحية « تعرف المناقب والمفاخر ويدرك العلم الاول والاخر »(٣١) .

ويصف المسعودي أهميته قائلا بانه (يستمتع به العالم والجاهل ويستعذب موقعه الاحمق والعاقل ، فكل حكمة منه تستنبط ، ومكارم الاخلاق ومعاليها منه تقتبس ، واداب سياسة الملك والحزم منه نلتمس ، وكل غريبة منــه تعرف ، وكل عجيبة منه تستطرف ، وبــه يوصل كل كلام ، ويتزين به في كل محفل ومقام ، يجمع لك الاول والاخر ، والناقص والوافر والبادي والحاضر »(٣٢) .

ويذكر ابن عبدالملك بأنه « رغب في الاطلاع عليه سادة الامم والقبائل واهل المحامد والفضائل ، اذ ان الاطلاع في اخبار الناس مرآة الناظر تصدف عن المحاسن والمقابح ، ويهذب ذوي البصائر والقرائح وبها يذكر الله تعــالى من عبــاده ما يراه اهــلا لذكره ، ومستوجبا لكــريم ثوابه واجره »(٣٣) ، ويقول الاصفهاني « ان القارىء اذا تأمل ما فيه لم يزل متنقلا من فائدة الى فائدة ، منصرفا بـ(جد وهزل واثار واخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة واخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفــاء في الاسلام ، يجمل بالمتأدبين معرفتها وتحتــاج الاحداث الى دراستها »(٣٤) .

ويصف ابن خلدون اهميته أيضا بقوله « ان التاريخ من الفنون

التي تتداوله الامم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال .. »(٣٥)

وما دام المتاريخ هذه الاهمية ، وتلك الصلة الوثيقة التي تشدنا اليه كأفراد وكأمة لها قيمها وخصوصيتها ومزاياها الانسانية العريقة ، فذلك يفرض علينا واقعا علميا ومنهجا قوميا يكشف ويفسر صلة الامة بتاريخها ، وبنفس الوقت يبعد عن الاذهان كل التفسيرات والمناهج التقليدية القائلة بأن تاريخ الامة اختص بمرحلة ما قبل الاسلام فامتد ليشمل كل حركتها وابداعها في الوطن العربي ، أو انه ارتبط بها منذ ظهور الاسلام فقط ولا علاقة له بالمراحل التي سبقته .

يقول الرئيس صدام حسين « ان كلا المنهجين السابقين قد يقع في النظرة التقليدية القاصرة ، ويحاكم الامور من زاوية لا تلتقي مع أصل الحقيقة التاريخية ، فهما قد يتناولان علاقة الامة بالاسلام من اطار لا يلامس الحقيقة كما هي ، فقد يغفل منهج ما قيمة الاسلام كثورة في حياة الامة . وقد يغالي منهج آخر فيتنكر لدور العرب في الرسالة الاسلامية التي انبثقت في أرضهم وحملها ابناء هذه الارض »(٣٦) .

لقد كشفت الوثائق التاريخية ، ان هذا التاريخ كان ولا يزال شديد الصلة بالامة ، وانه واكب مسيرتها قبل الاسلام وبعده ، فنال من الامة اهتماما وعناية تجاوزت كل وصف حفظا وتدوينا ، فقد كانت العرب قبل الاسلام ، تدون وتحفظ اخبارها وأيامها ، وتورثها لاجيالها ، وغالبا ما تؤطرها بأطار القبيلة بأعتبارها محور انتماء الانسان العربى آنذاك ، فكانت كل قبيلة تحتفظ بأخبار قادتها وزعمائها وفرسانها وحروبها وانتصاراتها للتفاخر بها . مما عزز اواصر الوحدة بين أفرادها،

ورسخ في نفوسهم القيم والعادات والمثل العليا • فيقول ابن الاثير « واما قبل الاسلام ، فقد كان بنو ابراهيم يؤرخون من نار ابراهيم الى بنيان البيت حين بناه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ثم ارخ بنو اسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا ، فكان كلما خرج قوم من تهامة ارخوا بمخرجهم ، ومن بقي بتهامة من بني اسماعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بني زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤي وارخوا من موته الى الفيل ، ثم كان التاريخ من الفيل حتى ارخ عمر بن الخطاب من الهجرة •• وقد كان كل طائفة من العرب تؤرخ بالحادثات المشهورة فيها ولم يكن لهم تاريخ يجمعهم ، وكل واحد ارخ بحادث مشهور عندهم ، فلو كان لهم تاريخ يجمعهم لم يختلفوا في التاريخ »(٣٧) • مشيرا بذلك الى احتفاظ كل قبيلة بتاريخها الخاص بها ، وهو يمثل بشموليته تاريخ الامة قبل الاسلام •

اما خليفة بن خياط ، فيؤكد أيضا قدم هذا التاريخ بقوله « بالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عدد نسائهم ومحل ديونهم يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج ، ولم يزل للناس تاريخ كانوا يؤرخون في الدهر الاول من هبوط آدم من الجنة •• فلم يزل كذلك حتى حرق ابراهيم فأرخوا من تحريق ابراهيم ، وارخت بنو اسماعيل من بنيان الكعبة ، فلم يزل كذلك حتى كان عام الفيل ، فأرخوا من عام الفيل ثم ارخ المسلمون بعد من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان للعرب أيضا تاريخ »(٣٨) •

ويكشف السخاوي تفاصيل أخرى عن قدم هذا التاريخ فيقول « ان

حمير كانت تؤرخ بالتبابعة وغسانا بالسد ، واهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس . ثم ارخت العرب بالايام المشهورة كحرب البسوس ، وداحس والغبراء وبيوم ذي قار والفجار ونحوه .. »(٣٩) .

ويذكر ايضا « وقد كانت كل طائفة من العرب تؤرخ بالحادث المشهور فيها ولم يكن لهم تاريخ يجمعهم ، فكل واحد منهم ارخ بحادث مشهور ، فلو كان لهم تاريخ يجمعهم لم يختلفوا في التاريخ » .

ويذكر فيليب متي « ان زنوبيا ملكة تدمر جمعت تاريخا للشرق »(٤١) ، في حين يذكر السيد عبدالعزيز سالم « انها صنفت كتابا عن تاريخ مصر »(٤٢) .

اما المسعودي فانه يذكر تفاصيل أدق وأوسع من تواصل تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده فيقول « وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فاما حمير وكهلان ابنا سبأ .. فانهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم .. فاما تاريخ ولد معد بن عدنان فانهم كانوا يؤرخون بغلبة جرهم العماليق واخراجهم اياهم من الحرم .. ثم ارخوا بالحرب بين ابني وائل ، بكر وتغلب المعروفة بحرب البسوس .. وبحرب الاوس والخزرج .. وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تؤرخ بيوم من ايامها المشهورة في حروبها كقبائل بكر وتغلب وفزارة وعبس وبنو عامر بن صعصعة واياد وتميم وأسد وخزيمة والاوس والخزرج وطي .. ولم يزل من وصفنا من قبائل العرب يؤرخون بالامور المشهورة من موت رؤسائهم وحروب كانت بينهم الى ان جاء الله بالاسلام فاجمع المسلمون على التاريخ من الهجرة »(٤٣) .

ان الايمان بحقيقة واصول هذا الماضي ، واستجلاء سياقاته الطويلة

قبل الاسلام ، انما يعزز الدور التاريخي والحضاري للعرب بعد ظهور الاسلام ، ويكشف بوضوح التغيير الجذري الذي احدثه الاسلام في حياتهم وسلوكهم وطراز تفكيرهم ونظرتهم للحياة باعتبارهم أمة وحملة رسالة ، وأصحاب عقيدة ، عليهم ان يصونها ويؤدوها ، وبذلك ربط الاسلام وحدة التاريخ بوحدة الامة وعقيدتها ورسالتها الانسانية في الحياة ربطا محكما .

ومن الجدير بالذكر ، ان القرآن الكريم قد اغنى الشعور التاريخي في الامة وأصله ، بما احتواه من اخبار تاريخية عن الاقوام والامم السالفة وتوالي بعضها على اثر بعض ، موضحا سبب ذلك بعدم التزام هذه الامم بالرسالات والنبوءات التي ارسلها الله اليها ، اما التزام هذه الامم بالرسالات والنبوءات التي ارسلها الله اليها ، اما الاحداث التي أحاطت بالامة وقائدها الرسول العظيم ، فقد جاءت اشاراته اليها منسجمة مع دور الرسول (ص) وموقفه من التاريخ ، كموقعة بدر ، والخندق وحنين وتبوك وغيرها ، فكان لهذه الآيات أهميـة في حيـاة الامة ، استثارت البحوث التاريخية .

كما اضافت شخصية الرسول الكريم ، وجهاده ونضاله من أجل العقيدة والامة ، عنصرا جديدا واصالة حقيقية للتاريخ ، دفعت مؤرخي الامـة وعلمائها لاستجلاء سيرته الشريفة وتدوينها لارتباطها بالرسالة والامة ، بتتابع زمني حسمه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) باتخاذه من هجرته صلى الله عليه سلم بداية للتقويم العربي ، الذي أصبح فيما بعد عنصرا حيويا في تدوين تاريخ الامة وارتباط حوادثها اللاحقة به .

لقد أدرك العلماء العرب أهمية التاريخ وتأثيره الكبير في حياة الفرد

والجماعة ، فنبهوا الى ضرورة تعلمه وتعليمه ، واستنباط حكمه وامثاله ، وتدبر سياساته وتقلب أحواله ، لتسمو النفس بمعرفتها ، وتعتبر بعد الاطلاع عليها . يقول أبو بكر محمد بن علي بن خميس في مقدمة تاريخ مالقة « ان أحسن ما يجب ان يعتني بـه ويلم بجانبه ، بعـد الكتاب والسنة ، معرفـة الاخبار وتقييـد المناقب والاثار ، ففيها تذكره بتقلب الدهر بابنائه وتنبيه على أهل العلم الذين يجب ان تتبع آثارهم ، وتدون مناقبهم واخبارهم ، ليكونوا كانهم ماثلون بين عينيك مع الرجال .. »(٤٤)

ويقول ابن الساعي « وأحسن الاسماء وأطيب الاخبار ما حصل به موعظة واعتبار ، وهو علم التاريخ والاخبار ، ومنه أيضا يعلم تقلب الدول وسرعة انتقالها وتصرف الاحوال بانقضائها وزوالها .. وما زال أرباب الهمم العلية ، والنفوس الابيـة يتطلعون الى محاسن الاخبار ليجعلوها لقاحا لافهامهم وصقالا لاذهانهم وتذكرة لقلوبهم ورياضة لعقولهم ، ثم ان تأمل ذلك يبعث على التوحيد ، والاعتراف بوحدانية الباري جل جلاله ، اذ في تدبر مجاري الاقدار ، وتقلب الادوار ، واختلاف الليل والنهار ، وتوالي الامم وتعاقبهـا وتداول الدول وتناوئها عظـة للمتقين وتنبيـه للغافلين »(٤٥) .

ويذكر الكافيجي الحنفي « ان التاريخ من المهمات العظام ، مقبول عند الانام اشتمل على فكر وعبر ، ومنطو على مصالح ومحاسن على وجـه معتبر ولولا لم يصل الينا لا خبر ولا اثر وهو غذاء الارواح والاشباح ، خزانة اخبـار الناس والرجال ، معـدن العجائب والغرائب والروايات والامثال ، زين الاديب وعمدة اللبيب ، عون المحدث ، وذخر الاديب يحتاج اليه الملك والقائد البصير وغيرهم ممن عز امرهم »(٤٦) .

ويقول السخاوي « لولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة ، وتعذر الاعتبار بمسالمة الايام وعقوبتها »(٤٧) ·

ويقول أبو حنيفة « الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب الي من كثير من الفقه لانها آداب القوم »(٤٨) ·

ويروى مصعت الزبيري قائلا « ما رأيت أحدا اعلم بأيام الناس من الشافعي »(٤٩) ·

ويقول الشافعي « من حفظ التاريخ زاد عقله »(٥٠) · ويذكر ياقوت « ان المفسر ابن ابي الطيب ، لما توفي لم يوجد في خزانة كتبه الا اربع مجلدات ، احدهما فقهي ، وآخر أدبي ، ومجلدان في التاريخ »(٥١) · مشيرا الى أهمية دراسة التاريخ عند المفسرين ·

« وعده ابن حمدون وياقوت من علوم الملوك وذوي الاخطار »(٥٢)· فيروى المسعودي « ان معاوية كان يستمع في الثلث الاول من الليل الى أخبار العرب وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الامم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعييتها ، وغير ذلك من أخبار الامم السالفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والاثار وأنواع السياسات »(٥٣) ·

وكان الخليفة أبي جعفر المنصور معنيا بالاسعار والاخبار وايام العرب يدني اهها يجيزهم عليها(٥٤) ·

ويروى السخاوي « ان المؤرخ العيني كان يقرأ عند الاشرف برسباي

وغيره التاريخ ونحوه ، بحيث يقول الاشرف ما معناه انه ما عرف الاسلام الا منه »(٥٥) .

هذا ولم تقتصر الثقافة التاريخية على الخلفاء « للاعتبار بما مضى من الدول ومن سلف من الامم »(٥٦) ، والوزراء ، « للاعتبار بفعال من تقدم ممن حاز فضلي السيف والقلم »(٥٧) ، والقائد العسكري « للاطلاع على مكائد الحرب ومواقف الطعـن والضرب »(٥٨) ، والقضاة والفقهـاء والمفسرين والكتاب يقول ابن شاكر الكتبي « وكنت ممن اكثر لكتبـه المطالعة واستحلى من فوائده المراجعة »(٥٩) ، بل تعدى ذلك الى الاولاد ، باعتبارها تشكل عنصـرا مهمـا في تكوينهم الفكـري في مراحل سنيهم المبكرة ، لانهم كما يقول أبو القاسم محمد بن يوسف المدني « وان كانوا صغار قوم فعسى ان يكونوا كبار قوم آخرين »(٦٠) ، ويقول طاشكبري زادة « ان الطفل بعد ان يشب يرسل الى المكتب ويعلم القرآن والحديث واخبار الصالحين لينغرس في قلبـه حبهم »(٦١) ، مشيرا بذلك الى ان اخبار الصالحين هي المواضيع التاريخية الوحيدة التي قد تعلم الاطفال .

ويذكر القابسي بأنه « لا بأس باجازة العلـم على تعليم الشـعر والنحو والرسائل وايام العرب وما اشبه ذلك من علـم الرجال وذوي المروءات »(٦٢) .

ويقول الصولي (انه لما اسندت الي مهمة تعليم ولدي المقتدر بالله وهما هارون واخيه أحمد ، اكتشفت قلة معرفتهما ، فاشتريت لهما كتبا في الفقه والشعر واللغة والاخبار قطعة حسنة فتنافسا في ذلك وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه وقرأ علي الاخبار .. »(٦٣) .

ويذكر ابن حمدون « وكان الجندي ينصح بدراسة غزوات الاسلام الاولى والسير »(٦٤) لما فيها من اثر كبير في استنهاض الهمم في الدفاع عن العقيدة والامة ورغم هـذا الاهتمام الواسع ، والاصالة المتحققة في تاريخ الامة ، فانه لم يسـلم من تحـديات تسربت الى ثناياه بشكل أو آخر ، بقصد تشويهه والتقليل من أهميته في حياة الامة ، وقد نبه ابن خلدون عليها بقوله (ان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبت أخبار الامـم وجمعوها ، وسطروها في صفحـات الدفاتر واودعوها ، وخلطهـا المتطفلون بدسائس من الباطل وهمـوا فيهـا وابتدعوها ، وزخـرف من الروايات المضعفة لفقـوها ووضعوها ، واقتفى تلك الاثار الكثيرة ممـن بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل ، وطرق التنقيح في الغالب كليل ٠٠ والناقل انمـا يملي وينقـل والبصيرة تنقـد الصحيح اذا تمقل ، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل »(٦٥) ٠

لم يكتف ابن خلدون بالاشارة الى التشويهات التي دست في التاريخ بل انــه كشف ذلك الدس الذي مارسته الشعوبية بحق تاريخ الامـة وخلفائها وقادتها وعلمائها امثال المنصور والرشيد والامام الشافعي ، ويحيى ابن أعثم القاضي ، ورد عليه بالدليل القاطع والحجة الظاهرة(٦٦)٠

ويشير السخاوي أيضا الى تلك التحديات والتشويهات بقوله « قد ظهر الكثير من الخلل ، وانتشر من المناكير ما اشتمل على اقبح العلل ، حيث انتدب لهذا الفن الشريف من اشتمل على التحريف والتصحيف ، لعدم اتقانهم شروط الرواية والنقل ، وائتمانهم من لا يوصف بأمانة ولا

عقـل ، بل صـاروا يكتبون السمين مع الهـزيل ، والمـكين مع الزنزل العليل »(٦٧) . ويأسف السخاوي من منهج المتأخرين ، ممن لم يدقق العبارة ، ويتبصر في الرواية ويغربل الحكاية ، فقبلها بدون علم وتنقيح ودراية ، فيقول « ويا أسفي عليهم فقد جاء بعـدهم من لا يصـل ، ولو بالغ .. لكـونه من نمطهم ، وعلى شريطتهم ، سيما في العبارات ، وتلك الاشارات التي لا يرتضيها عاقل ولا يمضيها الا من هو غمر عاطل »(٦٨) .

لقد بذل مؤرخو الامة وعلمائها جهودا عظيمة بالاعتماد على التاريخ ، لبيان تلك التحديات والروايات المزورة التي ادخلت اليه لسبب او لآخر ، وكشفها حرصا منهم على اصالة هـذا التاريخ ، فيقول سفيان الثوري « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ »(٦٩) . ويقول حسان ابن زيد « لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ »(٧٠) ، اما الخطيب البغدادي ، فانه « عقد بابا لوجوب بيـان أحوال الكذابين من الرواة والنكير عليهم ، وانهـاء امرهم الى السلاطين »(٧١) . في حـين تصدى آخـرون من امثـال الجاحظ ، والازدي ، والجهشياري ، وابن خلدون وغيرهم(٧٢) . للروايات الشعوبية وكشف زيفهـا دفاعا عن تاريخنـا القومي واصالته فكشف المؤرخ الازدي ، ذلك النص الذي اضافه الفرس الى وصية ابراهيم الامام لتشويه عـروبة الدعـوة العباسية ورجـالها العرب(٧٣) . كما قام الخطيب البغدادي باحباط محاولة اليهود في تزوير وثيقة عن الرسول (ص) ادعوا فيها باسقاطه الجزية عن أهـل خيبر ، فيروى ، السخاوي « انه لما اظهر بعض اليهود كتابا وادعى انـه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادة

الصحابة رضي الله عنهم ، وذكروا ان خط علي رضي الله عنه فيه ، وحمل الكتاب في سنة سبع وأربعمائة الى رئيس الرؤساء ابي القاسم علي وزير القائم ، عرضه على الحافظ الحجة ابي بكر الخطيب ، فتأمله ثم قال : هذا مزور ، فقيل له : من اين لك هذا ، قال : فيه شهادة معاوية وهو انما اسلم عام الفتح وفتح خيبر كان في سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وهو قد مات يوم بني قريضة قبل فتح خيبر بسنتين ، فاستحسن ذلك منــه ، واعتمده وامضاه ، ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره »(٧٤) ·

كل ذلك وغيره ، دفع المؤرخين العلماء العرب ، لان يضعوا شروطا لتدوين تاريخ الامة ، وحرصا منهم على اصالته ، وحفاظا على نقاوته ، واظهارا لسماته القومية المعبرة عـن ارادة الامـة ، فاشترطوا في المؤرخ ما يأتي :ــ

١ ــ العدالة مع الضبط التام الناشيء عن مزيد من الاتقان ·

٢ ــ التحري سيما فيما يراه في كلام كثير من الجهلة ·

٣ ــ ان يكون عالما بطريق النقل ، حتى لا يجزم الا بما يتحققه ، فان لم يحصل له مستند معتمد في الرواية ، لم يجز له النقل لقوله صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء كذبا ان يحدث بكل ما سمع » ·

٤ ــ التميز بين المقبول والمردود ، وبين الرفيع والوضيع ·

٥ ــ تجنب التعرض للوقائع المنقصة الصادرة في شيوبية من صيره الله تعالى بعد ذلك مقتدى به ، فمن ذا سلم ، وقد عجب الرب عز وجل من شاب ليست له صبوة · والاعتبار بحـاله الان ، ومن هنـا يشترط ان يكون عارفا بمقادير الناس وبأحوالهم وبمنازلهم فلا

يرفع الوضيع ، ولا يضع الرفيع ·

٦ ـ ان يكون مصاحبا للورع والتقوى ، بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تختلف ، لان الورع والتقـوى يحجـزه ويوجب لـه الفحص والاجتهاد وترك المجازفة(٧٥) ·

واجمل الكافيجي هـذه الشروط بقـوله « وينبغي ان يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوي الحديث من أربعـة أمور ، العقـل والضبط والاسلام والعدالة ، ليكون كل واحد منهما معتمدا في امر الدين ، وامينا فيه ، ولتزداد الرغبـة في تاريخـه ، وللاحتراز عن المجازفة والافتيات فيحصل له الا من الوقوع في الضلالة والاضلال »(٧٦) ·

لقد تجلت عظمة هذا التاريخ في تخطيه لكل تيارات التحدي ، التي استهدفت تشويه اصالته ، وطمس معالم ابداعاته وانجازاته الانسانية ، وهذا كله يثير فينا نوازع عديدة اصيلة متبصرة لدراسة ماضينا وتحليل حـوادثه ، واستجلاء حقائقـه ومدطلقات قوتـه وشموخه ، واستكشاف عناصره الايجابية ، لاتخاذها نقطة اشعاع ومصدر الهام ، ومبعث انطلاق وحافز على تحقيق الامال الجديدة في حاضرنا ومستقبلنا ·

يقول العماد بن محمد الشافعي « فليست امة أو دولة الا ولهـا تاريخ يرجعون اليه ، ويعولون عليه ، ينقلها خلفها عن سلفها ، وحاضرها عن غابرها ، تقيد به شوارد الايام ، وتنصب بـه معالم الاعلام ، ولولا ذلك ، لانقطعت الوصل ، وجهلت الدول ، ومات في أيام الاواخر ذكـر الاوائل »(٧٧) ·

ولهذا اعتبر المؤرخون تدوين تاريخ الامة من الضرورات الملحة التى ترتقي الى فروض الكفايات ، فيقول السخاوي « وصرح غير واحد من علماء

المذاهب ، اولى الامانات ، بانه ــ أي تدوينه ــ من فروض الكفايات الراجح ارتقاؤه على فرض العين ، للاندفاع بقيامه به عن غيره التأثيمات ، بل ربما انحصر وتعين حسبما يعلمه من استظهر وتبين »(٧٨) • ويقول الكافيجي « ان علم التاريخ محيط بقواعد ومسائل كثيرة ، فاذن قد استحق التدوين أي استحقاق ولذلك دوناه تدوينا حسنا مقبولا ليكون منقولا الى الصدور والاقوام ، باقيا على مرور الايام والاعوام ، مذكورا باللسان ، محفوظا بالجنان ، وتذكرة وتشويقا الى اتيان مثله ، في كل مكان وزمان ، واتيانا بموجب القول الذي قد شاع ، كل خط ليس في القرطاس ضاع ، كل سر جاوز الاثنين شاع »(٧٩) •

ويقول السخاوي « فاذا لا غناء عن التاريخ فينبغي ان يعتنى بشأنه ، ويكتب وينقل مع الاحتراز عن المجازفة والرجم بالغيب »(٨٠) • ويقول عمر بن فهد الهاشمي المكي « وقد اتفق الناس عليه في كل زمان وصنفوا فيه كل انواع وافنان »(٨١) ويذكر السخاوي « ولو لم يكن من شرف هذا الفن الا ان البخاري رحمه الله صنف تاريخه في المدينة المنورة عند قبر النبي عليه السلام ، وكان يكتبه في الليالي المقمرة ، وسوى بينه وبين صحيحه »(٨٢) •

وانطلاقا من واقع عمق هذه النظرة ودوافعها الاصيلة ، فان اعادة كتابة تاريخ الامة ، في ظل أوضاع وظروف التحدي المحيطة بها ، والرامية الى تشويه تاريخها ، وطمس معالم شخصيتها القومية والحضارية • هي مسؤولية وطنية وقومية ، تحتم على المؤرخين العرب النهوض بها ، وفق منطلقات فكرية واعية ، معبرة عن ارادة الامة وحركتها الثورية في مرحلة انبعاثها الجديد ، وتصورات مستلهمة لروح الامة وقيمها ورسالتها

الانسانية في الحياة ، وصولا لتدوين رصين أصيل ، يحفز المشاعر القوميه ، ويثير الوجدان ، والاحاسيس العربية ، ويستنهض الهمم ، ويفجر طاقات الابداع الكامنة في الامة ، لبناء حاضر زاهر مجيد ، ومستقبل متطور خلاق ، مستوحى من ماضينا التليد ، كل عظمته واصالته وشموخه، ليكون مثار اعتزاز واجلال واكبار لهذا الجيل والاجيال القادمة ·

الاستنتاجات والتوصيات :

ان أهم ما توصل اليه البحث من استنتاجات وتوصيات وأفكار هي ما يأتي :ـ

١ ـ التأكيد على ان الامة العربية منذ فجر تكوينها كان لها وعي عام بذاتها في اطار خصوصيتها العربية ، وان هذا الوعي وتلك الخصوصية هي سر حيويتها وديمومتها ·

٢ ـ ان التكوين التاريخي للامة العربية ، نشأ عن تطورات تاريخية امتدت الى عصور سحيقة في القدم ، عبرت فيها الامة عن شخصيتها وهويتها القومية والحضارية ·

٣ ـ التأكيد على ان اختيار العرب لحمل رسالة السماء وتأديتها لم يكن لسوء عملهم وانما لقدرتهم الفائقة على ان يكونوا قادة للانسانية جمعاء ليغيروا وجهها في تلك المرحلة ، لذلك خصهم الله برسالته وفضلهم على سائر الامم بقوله (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » ·

٤ ـ الايمان بأن فترة انبعاث الامة موحدة انما ارتبط بالاسلام ارتباطا محكما ، وان هذا الارتباط يكشف مدى التغيير الجذري الذي احدثه

الاسلام وشخصية الرسول (ص) في الامة عقيدة وفكرا ومنهجا ·

٥ ـ ان تاريخ الامة العربية ، ارتبط ببدايات نشأتها وتكوينها التاريخي ، وهو تاريخ متصل ومستمر معها ، رغم تفاوت نهاياته العظمى واصغرى حسب الزمن والمكان ، وان هذا الاستمرار المتجدد يدل على ان الذات العربيه ذات معطيات حية تجعلها على استعداد دائم للعطاء والابداع ·

٦ ـ الكشف عن أهداف الشعوبية ومقاصدها الرامية الى تشويه اصالة الامة ودورها الانساني في الحياة ، والنيل من تاريخها المجيد المعبر عن ارادتها ، وخصوصيتها العربية ، وان التصدي لهذه الحركة واسقاطها ضرورة ملحة ومسؤولية قومية ، يجب على أبناء الامة النهوض بها ·

٧ ـ اظهار مقدرة الامة وحيويتها في مواجهة التحدي الجلل الذي رافق مسيرتها التاريخية وردها عليه بما هو أروع واجل ، فتجلت بذلك اصالتها في التاريخ ·

٨ ـ اهتمام الامة العربية بتدوين تاريخها قبل الاسلام لاهميته وتأثيره الكبير في حياة الفرد والجماعة ، أكد ذلك جمهرة من المؤرخين العرب من امثال خليفة بن خياط ، والمسعودي ، وابن الاثير ، والسخاوي وغيرهم ، وان هذا التاريخ تأصل وتعزز بظهور الاسلام وشخصية الرسول (ص) للامة فجاء تاريخها معبرا عن ارادتها وثوريتها وعقيدتها ورسالتها السماوية ·

٩ ـ التأكيد على ان مقومات النهوض في الامة كامنة في ذاتها ويمكن لها ان تنفجر في أية لحظة ، اذا ما توفرت لها قيادة ثورية واعية لقيادتها

وتأدية دورها الانساني في الحياة ، سواء أكان ذلك قبل الاسلام ، أم في فترة انبعاثه الجديد في ظل الاسلام بقيادة الرسول العظيم (ص) والخلفاء الراشدون (رض) من بعده ، واستمرت هذه الحالة مع الامة ، لتسمو في تاريخنا المعاصر بالقيادة التاريخية الفذة للرئيس صدام حسين ٠

١٠ـ ان اعادة كتابة تاريخ الامة ، مسؤولية وطنية وقومية ينبغي على المؤرخين العرب وغيرهم النهوض بها وفق منطلقات فكرية واعية معبرة عن ارادة الامة وحركتها الثورية وتصورات مستلهمة لروحها وقيمها ورسالتها الانسانية في الحياة ، ليكون هذا التاريخ مثار اعتزاز واجلال واكبار لهذا الجيل والاجيال القادمة ٠

الهوامش :

١ ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ، ص ٤٢٤ ٠

٢ ـ علم التاريخ عند المسلمين ٠ ص ٧٢٠ ٠

٣ـ حول كتابة التاريخ ٠ ص ١٢ ٠

٤ ـ المصدر السابق ٠ ص ١٤ـ١٥ ٠

٥ ـ انظر المقدمة ٠ ص ١٤٦ـ١٤٩ ٠

٦ ـ المصدر السابق ٠ ص ١٥٢ ٠

٧ ـ المصدر السابق ٠ ص ١٥٢ ٠

٨ ـ السيرة النبوية ٠ ١/٧ ٠

٩ ـ انظر التفاصيل في الطبري : تاريخ ٤/٢٤ ، ٣٥ ، ابن الاثير :

الكامل ٢/٣٦٢ و٣٦٤ وانظر البلاذري : فتوح البلدان ٢/٤١٨ وما بعدها ، اليعقوبي : تاريخ ٢ع١٣٣ ، ابن اعثم : الفتوح ٢/٤٨ ٠

١٠ـ السيرة ١/١ وما بعدها ٠

١١ـ تاريخ ١/١٦٨ وما بعدها ٠

١٢ـ تاريخ ١/٦٠٩ وما بعدها و ٢/٢٣٩ وما بعدها ٠

١٣ـ مروج الذهب ١/٩ ــ ١٠ ٠

١٤ـ المقدمة ٠ ص ٦ وانظر الدوري : التكوين التريخي للامة ٠ ص ١٥ وقسطنطين زريق : نحن والتاريخ ٠ ص ١٣٦ ٠

١٥ـ تاريخ : ١/٦ ـ ٧ ٠

١٦ـ مروج الذهب : ١/٩ وما بعدها ٠

١٧ـ المقدمة ٠ ص ٦ ٠

١٨ـ آل عمران ١١٠ ٠

١٩ـ حول كتابة التاريخ ٠ ص ٧ ــ ٨ ٠

٢٠ـ المصدر السابق ٠ ص ٢٤ ٠

٢١ـ رواة الطبراني : انظر ناجي معروف : الحضارة العربية ٠ ص ٢٨ ٠

٢٢ـ رواة أصحاب السنن : المصدر السابق ٠ ص ٢٨ ٠

٢٣ـ صدام حسين : البعث والثورة والانسان ٠ ص ٧٦ ٠.

٢٤ـ الرعـد ٣٠ ٠

٢٥ـ ابن هشام : السيرة النبوية ١/٥٠١ ، ابن سيد النساء : عيـون الاثر ١/١٩٧ ٠

٢٦ـ الانبياء ٩٢ ٠

٢٧ـ المؤمنون ٥٢ ٠

٢٨ـ آل عمران ١٦٤ ٠

٢٩ـ انظر البلاذري مخطوط انساب الاشراف ، مكتبة الدراسات العليا، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، تحت رقم ١٦٣٧ و١٦٣٦ ، وفتوح البلدان الاجـزاء الثلاثة ، المسعودي : مروج الذهب ٢/٢٠٤ وما بعدها والجزء الثالث ٠

٣٠ـ انظر : الدوري : التكوين التاريخي للامة العربية ٠ ص ١٥ وما بعـدها ٠

٣١ـ النبراس ص ٢ ٠

٣٢ـ مروج الذهب ٢/٦٧ انظر ابن رحية : النبراس ص ٣ ٠

٣٣ـ تكملة تاريخ الطبري ١٨٧٩ ٠

٣٤ـ الاغاني ١/٢ طبعة بولاق ١٢٨٥ ٠

٣٥ـ المقدمة ٠ ص ٣ ٠

٣٦ـ حول كتابة التاريخ ص ٦ـ٧ ٠

٣٧ـ الكامل ١/١٠ انظر المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ ، ابن حبيب : المحبر ٠ ص ٥ ـ ٨ ٠

٣٨ـ تاريخ ٠ ص ٦ ـ ٧ ٠

٣٩ـ الاعلان بالتوبيخ ص ١٤٧ ٠

٤٠ـ المصدر السابق ٠ ص ١٤٨ـ١٤٩ ٠

٤١ـ تاريخ سورية ص ٤٣٨ ٠

٤٢ـ تاريخ العرب ص ١٠٩ ٠

٤٣ـ التنبيه والاشراف ص ١٧٢ـ١٧٨ ٠

٤٤ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص ٤٩ ٠

٤٥ـ المصدر السابق ص ٥٤ـ٥٥ ؛

٤٦ـ انظر السخاوي : الاعلان • ص ٧٠ •

٤٧ـ المصدر السابق • ص ٤٥ •

٤٨ـ المصدر السابق • ص ٦١ •

٤٩ـ ابن ابي شامه : الروضتين ص ٥ •

٥٠ـ السخاوي : الاعلان ص ١٧٩ •

٥١ـ ارشاد ٥/٢٣٢ طبعه القاهرة ، انظر روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين • ص ٦٥ •

٥٢ـ التذكرة قسم ٣/٨٠ مخطوط ، انظر روزنثال • ص ٧١ – ٧٢ ، ارشاد ١/٢٧ طبعة القاهرة •

٥٣ـ مروج الذهب ٣/٤٠ ـ ٤١ •

٥٤ـ ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان • ص ٢ طبعة ليدن ١٣٠٢ •

٥٥ـ الاعلان • ص ٨١ •

٥٦ـ السخاوي : الاعلان • ص ٧٠ •

٥٧ـ المصدر السابق • ص ٧٠ •

٥٨ـ المصدر السابق • ص ٧٠ •

٥٩ـ فوات الوفيات • ص ١ •

٦٠ـ السخاوي : الاعلان • ص ٤٣ •

٦١ـ مفتاح السعادة ٣/٢٨٠ طبعة حيدر اباد ١٣٢٨ • انظر روزنثال : علم التاريخ • ص ٦٧ •

٦١ـ احمد فؤاد الاهواني : التعليم في رأي القابسي : طبعة القاهرة ١٩٤٥م • ص ٢٧٨ •

٦٣ـ اخبار الراضي بالله والمتقي بالله ص ٢٤ ـ ٢٥ طبعه بيروت •

٦٤ـ التذكرة ٢/٨٠ انظر روزنثال : علم التاريخ • ص ٧٧ •

٦٥ـ المقدمه • ص ٤ •

٦٦ـ المصدر السابق • ص ١٥ و١٩ •

٦٧ـ الاعلان بالتوبيخ • ص ١١٢ •

٦٨ـ المصدر السابق • ص ١١٢ – ١١٣ •

٦٩ـ السخاوي : الاعلان • ص ٢١ ، انظر الخطيب البغدادي : تاريخ ٩/١٥١ ، الكفاية ، طبعة الهند ١٣٥٧ • ص ١١٩ •

٧٠ـ السخاوي : الاعلان ص ٢٢ ، انظر روزنثال : علم التاريخ ص ٣٩٠ •

٧١ـ المصدر السابق • ص ٨٦ •

٧٢ـ ثلاث رسائل ص ٤٤ • تاريخ الموصل ٢/٦٥ و١٠٧ • الوزراء والكتاب ص ١١٧ و٢٥٤ ، المقدمة ص ١٥ و١٩ • الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ، فاروق عمر : مباحث في الحركة الشعوبية • ص ٤١ ـ ٥٨ • حسن زعين : مؤامرة الفكر الشعوبي على الامة العربية : دراسات للاجيال ، آب ١٩٨٤ •

٧٣ـ تاريخ الموصل ، ٢/٦٥ و١٠٧ •

٧٤ـ الاعلان بالتوبيخ ص ٢٥ •

٧٥ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص ١١٤ ـ ١٣٨ •

٧٦ـ المختصر في علـم التاريخ : مطبوع ضمن علـم التاريخ لروزنثال ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧ ٠

٧٧ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص ٤٥ ٠

٧٨ـ المصدر السابق ٠ ص ٨٣ ٠

٧٩ـ المختصر في علـم التاريخ : مطبوع ضمن علـم التاريخ لروزنثال ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧ ٠

انظر السخاوي : الاعلان ٠ ص ٧٠ ٠

٨٠ـ الاعلان بالتوبيخ ٠ ص ٧١ ٠

٨١ـ السخاوي : الاعلان ٠ ص ٧١ ــ ٧٢ ٠

٨٢ـ المصدر السابق ٠ ص ٨٤ ٠

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم

★ ابن الاثير : أبو الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني ت ٦٣٠هـ

٢ ـ الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٨م

★ الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم ت ٣٣٤هـ

٣ ـ تاريخ الموصل : تحقيق علي حبيبة ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٧م .

★ الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ

٤ ـ الاغاني : تصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي ، مطبعة التقدم ، مصر .

٥ ـ مقاتل الطالبيين ، طبعة بغداد ١٩٧٩

★ ابن اعثم الكوفي : أبو محمد أحمد بن اعثم ت ٣١٤

٦ ـ الفتوح : طبعة بيروت ، مطبعة دار الندوة الجديدة .

★ البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ

٧ ـ مخطوط انساب الاشراف ، مخطوطة مكتبة الدراسات العليا جامعة بغداد تحت رقم ١٦٣٦ و١٦٣٧

٨ ـ فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة مصر ١٩٥٧م

★ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥هـ

٩ ـ رسائل الجاحظ ، طبعة مصر ، الطبعة الاولى سنة ١٩٧٩م

★ الجهشياري : أبو عبدالله محمد بن عبدوس ت ٣٣١هـ

١٠ـ الوزراء والكتاب : تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، مصر ١٩٣٨م

★ ابن حبيب : أبو جعفر محمد ت ٣٤٥

١١ـ كتاب المحبر ، طبعة بيروت ، دار الافاق

★ حتي : فليب

١٢ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، طبعة بيروت ، دار الثقافة

★ ابن حمدون : أبو المعالي بهاءالدين محمد بن الحسن ت ٥٦٢هـ

١٣ـ مخطوط كتاب التذكرة ، مكتبة الدراسات العليا ـ جامعة بغداد برقم ١٢٨٢

★ الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي ت ٤٦٣هـ

١٤ـ تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر سنة ١٩٣١م

★ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ

١٥ـ المقدمة ، طبعة مصر .

١٦ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة قديمة

★ ابن خياط : خليفة ابو عمر ت ٢٤هـ

١٧ـ التاريخ : تحقيق اكرم العمري ، طبعة النجف سنة ١٩٦٧م

★ ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن الشيخ ت ٦٣٣هـ

١٨ـ كتاب النبراس ، تحقيق عباس العزاوي طبعة بغداد ١٩٢٦م

★ الدوري : د. عبدالعزيز

١٩ـ الجذور التاريخية للشعوبية ، طبعة بيروت ١٩٨٠

٤١ـ مختصر كتاب البلدان ، مطبعة ليدن ١٣٠٢هـ

★ الهمداني : محمد بن عبدالملك

٤٢ـ ذيول تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ، طبعة مصر ١٩٨٢م

★ الاهواني : أحمد فؤاد

٤٣ـ التعليم في رأي القابسي ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥م

★ اليعقوبي : أحمد بن ابي يعقوب ت ٢٩٢هـ

٤٤ـ كتاب التاريخ ، تحقيق محمد صادق ، طبعة النجف ١٩٦٤م

عتبة بن غزوان المازني

الاستاذ الدكتور عبدالرحمن العاني
عميد كلية التربية الاولى/جامعة بغداد

المقــدمة :

يتركز هـذا البحث حول سيرة الصحابي الجليل عتبـة بن غزوان المازني ، والتي تمثل في مفرداتها واصالتها حياة الايمان والجهاد من أجل العروبة والاسلام ، والتي تتسم بالمبدئية والعفة ٠

فعتبة بن غزوان هو أحد السابقين الاولين ، وكان اسلامه بعـد اسلام ستة رجال ، فهو سابع سبعة في اسلامه ٠ وقد اسلم عتبة مخلصا لله في اسلامه ، فكان قويا في دينه ، صادقا في صحبته للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ٠

كان عتبة من المقاتلين الشجعان ، وهو من الرماة البارزين ، ووصفه ابن حزم بأنه « بدري أحدي » ، وقد شارك في جميع المعارك التي خاضها الرسول (ص) ضد المشركين ٠

لم يضع عتبة سلاحه يوم انتقل الرسول (ص) الى الرفيق الاعلى ، بل ظل يضرب به أعداء العروبة والاسلام ، وكانت له مواقف بطولية ضد قوات الاحتلال الفارسي في العراق ٠

ففي سنة ١٤هـ عينه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قائدا لحركات التحرير في البصرة ، فقاد عتبة القوات العربية الاسلامية متوجها من المدينة

الى البصرة ، حيث قاتل الفرس وانتصر عليهم في عدة معارك ، وحرر الأبلة والفرات والاحواز ، ومنع الفرس من ارسال مدداً لقواتهم في المدائن . ومن أعمال عتبة المهمة تاسيس مدينة البصرة .

توفي عتبة سنة ١٥هـ في طريق عودته الى البصرة بعد اداء فريضة الحج ، وكان عمرُه يومئذ سبع وخمسين سنة . وهكذا انتهت حياة الصحابي الجليل عتبة بن غزوان بعدما أعطى الكثير ، وبذل الكثير من أجل العروبة والاسلام ، وضرب أروع الامثلة في الزهد والعفة .

نسبه وكنيته وصنعته :

أما نسبه فهو عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب بن نسيب بن زيد بن مالك بن الحارث بن عوف بن مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار المازني(١) ، وهو حليف لبني نوفل بن عبد مناف بن قصي(٢) .

أما كنيته فقد كان يكنى بأبي عبدالله(٣) ، وقد وصفه ابن سعد بأنه « رجلا طوالا جميلا »(٤) .

اسلام عتبة وهجرته الى الحبشة :

كان عتبة بن غزوان من بين المسلمين السابقين ، وكان اسلامه بعد ستة رجال ، فهو سابع سبعة في أسلامه ، وقد قال ذلك في خطبته بالبصرة « ولقد رأيتني مع رسول الله (ص) سابع سبعة »(٥) . وقد وصفه ابن سعد بأنه قديم الاسلام(٦) ، ووصفه ابن حجر بأنه من السابقين الاولين(٧) ، وذكر ابن كثير بأنه أسلم قديما(٨) .

وفي الايام الاولى للدعوة الاسلامية أيام العسرة ، صمد عتبة ابن غزوان مع اخوانه المسلمين ، متحدين المشركين ومتحملين الاذى في سبيل العقيدة ٠

ولما أمر الرسول (ص) أصحابه بالهجرة الى الحبشة ، خرج عتبة مع المسلمين المهاجرين الى أرض الحبشة(٩) ، ويذكر ابن عبدالبر ان عمره كان أربعين سنة عندما هاجر الى الحبشة(١٠) ٠

عودته الى مكة وهجرته الى المدينة :

ان شوق عتبة بن غزوان الى النبي (ص) لم يدعه يستقر في أرض الحبشة ، فسرعان ما طوى البحر والبر عائدا الى مكة حيث لبث بجوار الرسول (ص) حتى جاء ميقات الهجرة الى المدينة فهاجر عتبة اليها مع المقداد بن عمرو(١١) ٠

وفي المدينة نزل عتبة على عباد بن بشر بن وقش أخي بني عبد الاشهل في دار عبد الاشهل(١٢) ، وقد آخى الرسول (ص) بين عتبة بن غزوان وأبي دجانة سماك بن خرشة(١٣) ٠

صحبته للرسول (ص) ودوره في المدينة :

أسلم عتبة مخلصا لله في اسلامه ، فكان قويا في دينه ، صادقا في صحبته ، متفانيا في حب النبي (ص) ٠

كان عتبة في حياة الرسول (ص) من المقاتلين الشجعان ، وقد وصفه ابن حزم بأنه « بدري أحدي »(١٤) ، فقد شارك في جميع المعارك التي خاضها الرسول (ص) ضد المشركين ، وكان من الرماة البارزين(١٥) ٠

جهاد عتبة ضد الفرس لتحرير العراق :

لم يضع عتبة بن غزوان سلاحه يوم انتقل الرسول الكريم (ص) الى الرفيق الاعلى ، بل ضل يضرب به أعداء العروبة والاسلام ، وكانت له مع قوات الاحتلال الفارسي في العراق مواقف بطولية ·

حركات قطبة بن قتادة السدوسي ضد الفرس :

في الوقت الذي حقق فيه العرب الوحدة السياسية في الجزيرة العربية ، فان عرب العراق وبدافع من شعورهم القومي قد تصدوا للفرس المحتلين وقاتلوا جيوشهم من أجل تحرير العراق من سيطرتهم البغيضة ، فيذكر البلاذري أن قطبة بن قتادة السدوسي كان « بغير في ناحية الحزيبة من البصرة على العجم ، كما كان المثنى بن حارثة الشيباني يغير بناحية الحيرة ، فلما قدم خالد بن الوليد البصرة يريد الكوفة سنة ١٢هـ أعانه على حرب أهل الأبلة »(١٦) ·

يتضح من النص السابق ان قطبة كان يقوم بحركات عسكرية ضد القوات الفارسية في منطقة البصرة ، كما كان المثنى بن حارثة الشيباني يقوم بحركات عسكرية ضد قوات الفرس في منطقة الحيرة ، وقد قام قطبة بمن معه من المقاتلين العرب بمعاونة خالد بن الوليد في قتال العجم لتحرير الأبلة ·

وقد تمكن خالد بن الوليد من تحرير الخريبة والحاق الهزيمة بالقوات الفارسية ، وهكذا تعاضدت جهود عرب العراق والقوات العربية الاسلامية القادمة من الجزيرة لتحرير أرض العراق والحاق الهزيمة بالفرس ·

ونتيجة للانتصار الذي حققته القوات العربية على الفرس في الخريبة وتحريرها ، فقد قوي مركز قطبة في تلك النواحي وتوسعت حركاته ضد الفرس ، فكتب الى قائد الامة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يعلمه ذلك ويطلب منــه المــدد للقضاء على القوات الفارسية وبشكل نهائي ، يقول المدائني ان قطبة « كتب الى عمر يعلمه مكانه ، وانه لو كان معه عدد يسير ظفر بمن قبله من العجم ، ٠٠ وكانت الاعاجم بتلك الناحية قد هابوه بعد وقعة خالد »(١٧) ٠

ولما وصلت رسالة قطبة الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كتب اليه « انه اتاني كتابك انك تغير على من قبلك من العجم وقد اصبت ووفقت ، أقم مكانك ، واحذر على من معك من أصحابك حتى يأتيك أمري »(١٨) ٠

وقد قام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بأرسال شريح بن عامر السعدي على رأس قوة مددا لجيش قطبة ليكون له ردءاً ، وقد قام شريح بمهاجمــة القــوات الفارسية في الاحــواز حيث استشهد هنــاك ســنة ١٤هـ(١٩) ٠

عتبة بن غزوان يتولى قيادة جبهة البصرة :

ان استشهاد شريح لم يقلل من عزيمة الخليفة عمر بن الخطاب(رض) او اهتمامه بجبهة البصرة ، بل أسرع بتعيين الصحابي المعروف عتبة بن غزوان قائدا لحركات التحرير في البصرة ٠

وقد وردت عن تاريخ انقاذ عتبة بن غزوان روايات عديدة ، ولكن الغالبية يؤكدون انه ارسل سنة ١٤هـ ، مما يجعلنا نرجح رواياتهم ، يقول الطبري « وفي هذه السنة ــ اعني سنة اربع عشرة ــ وجه عمر بن الخطاب

تحرير الأبلة والفرات والاحواز :

اتخذ عتبة بن غزوان قاعدة حركاته في الخريبة ، حيث اقام معسكرا من الخيام والفساطيط والقصب ، وتقدم على رأس قواته نحو الأبلة لتحريرها من الفرس ، وكانت الأبلة مركزا لتجميع القوات الفارسية المحتلة ، فيذكر الطبري انه كان بها خمسمائة من الاساورة(٢٨) ، وطلب عتبة من قطبة بن قتادة وقسامة بن زهير المازني قيادة قوة مؤلفة من عشرة فرسان لحماية مؤخرة القوات العربية ومنع الجيش الفارسي من القيام بمهاجمتها من الحلف ، وكذلك منع القوات الفارسية التي تريد الهرب . وقد جرت معركة كبيرة انتصر فيها عتبة بن غزوان وهزم الفرس ، وتم تحرير الأبلة وطهرت من القوات الفارسية حيث دخلتها القوات العربية الاسلامية ، وقام عتبة بارسال نافع بن الحارث الى الخليفة عمر (رض) يعلمه بالانتصار على الفرس وتحرير الأبلة(٢٩) .

كما أن عتبة وجه أحد قواده وهو مجاشع بن مسعود السلمي على رأس قوة الى الفرات ، وقد استطاعت تلك القوة الحاق الهزيمة بالفرس وتحرير مدينة الفرات(٣٠) .

وبعد اتمام تحرير الأبلة سار عتبة بقواته نحو دست ميسان حيث هاجم القوات الفارسية هناك وحقق انتصارا كبيرا وحرر المنطقة ، ثم تقدم نحو منطقة أبزقباذ فحررها(٣١) .

وهكذا استطاعت القوات العربية الاسلامية بقيادة الصحابي الجليل عتبة بن غزوان من الحاق الهزائم بالقوات الفارسية في منطقة البصرة وميسان ، وتم تحرير الأبلة ، والاحواز ، ومنع الفرس من ارسال مددا لقواتهم في المدائن .

تأسيس البصرة :

تأسست البصرة عام ١٤هـ ، لتكون قاعدة للقوات العربية الاسلامية القادمة من الجزيرة العربية لتحرير جنوبي العراق من الاحتلال الفارسي، ومنع الفرس من ارسال قوات من جيوشهم المتواجدة في البصرة وميسان مددا لقواتهم في المدائن ٠

كما ان انشاء البصرة يأتي ضمن الهدف السوقي لقائد الامة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وذلك بأستقرار القوات العربية الاسلامية في معسكرات ثابتة ، وتنظيم الادارة في المناطق المحررة ٠ وقد أنشأ مدينة البصرة القائد عتبة بن غزوان الذي ارسله الخليفة عمر (رض) الى تلك المنطقة سنة ١٤هـ(٣٢) ٠

لقد وردت عدة روايات حول الرقعة التي اختارها عتبة بن غزوان لبناء البصرة ، وتلك الروايات تظهر ان عتبة قد تنقل في أول قدومه المنطقة في عدة مواقع قبل ان يستقر في الموضع الذي نبيت فيه ، فيروي الطبري عن سيف بن عمر « لما توجه عتبة بن غزوان ٠٠٠ الى فرج الهند نزل على الشاطيء بحيال جزيرة العرب فأقام قليلا ثم أرز ، ثم شكوا ذلك حتى أمره عمر بان ينزل الحجر بعد ثلاثة أوطان اذا اجتووا الطين فنزلوا في الرابعة البصرة ٠٠٠ وأمر لهم بنهر يجري من دجلة فساقوا اليها نهرا للشفة »(٣٣) ٠ وقد بين الطبري مواقع المنازل الثلاثة الاولى فقال « وأما أهل البصرة فكان مقامهم على شاطيء دجلة ثم أرزوا مرات حتى استقروا وبدءوا فخنسوا فرسخا وجروا معهم نهرا ، ثم فرسخا ثم جروه فرسخا ، ثم جروه ثم أتوا الحجر ثم جروه ، واختطت على نحو من خطط الكوفة »(٣٤) ٠

ويذكر البلاذري انه عندما قدم عتبة منطقة البصرة كان فيهـا سبع دساكر : اثنتان بالخريبة ، واثنتان بالزابوقة ، وثلاث في مواضع الازد اليوم ، ففرق عتبة اصحابه فيها ونزل هو بالخريبة(٣٥) .

وفي رواية أخرى يذكرها البلاذري ان عمر وجه عتبة في ثمانمائة الى البصرة وامده بالرجال فنزل الناس في خيم فلما كثروا بنى رهط منهم سبع دساكر من لبن . منها بالخريبة اثنتان ، وبالزابوقة واحدة ، وفي الازد اثنتان ، وفي تميم اثنتان(٣٦) .

وقد وردت عدة روايات تؤكد نزول عتبة في الخريبة ، فيروي خليفة ابن خياط عن غنيم بن قيس انه قال « كنا مع عتبة بن غزوان فلما انتهى السير وراء منابت القصب قـال : ليست هـذه منازل العـرب فنزل الخريبة »(٣٧) .

ويؤكد الطبري ان عتبة نزل الخريبة حيث يقول « قدم عتبـة بن غزوان البصرة ... فلما رأى منابت القصب ونقيق الضفادع قال : ان امير المؤمنين امرني ان انزل اقصى البر من ارض العـرب فهـذا حيث واجب علينا فيه طاعة اميرنا فنزل الخريبة »(٣٨) .

وتوجد عدة روايات تؤكد ان عتبة لم يستقر بالخريبة حيث تحول منها بعد ذلك الى الموضع الذي استقر فيه نهائيا ، يروي البلاذري عن ابي عبيدة انه قال « لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة كتب الى عمـر بن الخطاب يعلمه نزوله اياها وانه لابد للمسلمين من منزل يشتون به اذا شتوا ويكنسون فيه اذا انصرفوا من غزوهم ، فكتب اليه : ان اجمـع أصحابك في موضع واحد وليكن قريبا من الماء والمرعى واكتب الي بصفته ، فكتب اليه أني وجدت أرضا كثيرة القصبة ، في طرق البر الى الريف ،

دونها مناقع ماء ، فيها قصباء ، فلما قرأ الكتاب قال : هذه ارض نظرة ، قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب ، وكتب اليه أن أنزلها الناس ، فانزلهم اياها فبنوا مساكن بالقصب ، وبنى عتبة مسجدا من قصب وذلك في سنة ١٤هـ ... فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حيث يرجعوا من الغزو ، واذا رجعوا أعادوا بناءه ، فلم تزل الحال كذلك ، ثم ان الناس اختطوا وبنوا المنازل »(٣٩) .

ويروي خليفة بن خياط « مر عتبة بموضع المربد فوجد الكدام الغليظ فقال هذه البصرة أنزلوها باسم الله »(٤٠) .

ان النص الذي أورده خليفة بن خياط يكمل لما سبقه من النصوص، وان الموضع الاخير الذي اختاره عتبة لبناء البصرة يمتد من موضع المسجد الجامع الى المربد(٤١) .

ان عتبة بن غزوان اتخذ البصرة قاعدة لقواته ، وكان عددها محدود في باديء الامر ، غير انه سرعان ما تزايد العديد ، فتقاطر الى البصرة وهاجر اليها فيما بعد عدد كبير من الناس ، يقول البلاذري « وقد كان الناس سألوا عتبة عن البصرة فأخبرهم بخصبها فسار اليها خلق من الناس »(٤٢) .

بناء المسجد والرحبة ودار الامارة :

انشئت البصرة لاقامة المقاتلة العرب المسلمين ، وكان أول شيء خطط هو تحديد مكان المسجد ليتسع لكافة المقاتلين وهو عبارة عن مساحة واسعة من الارض ، محددة بسياج من قصب ، وفي طرفه ظلة من قصب ، وحوله رحبة واسعة من الارض .

يقول البلاذري « وبنى عتبة مسجدا من قصب وذلك في سنة ١٤هـ، فيقال انه تولى اختطاط المسجد بيده ، ويقـال اختطـه محجن بن الاذرع البهزي من سليم ، ويقال اختطفه نافع بن الحارث من كدة ، حيث خط داره ، ويقال بل اختطه الاسـود بن سريع التميمي وهـو أول من قضى فيـه »(٤٣) ·

ويقول البلاذري ايضا « وكان محجن بن الاذرع اختط مسجد البصرة ولم يبنه فكان يصلي فيه غير مبني ، فبناه عتبة من قصب »(٤٤) ·

ان اختلاف الروايات ربما يعود الى ما حدث في موقع المسجد ومساحته من تطور ، وان عتبة بن غزوان حدد موقعه ، وساهم كل من نافع ومحجن والاسود في تخطيطه(٤٥) · ثم ان عتبة بنى له حائطا من قصب ، وان الحـائط لم يكـن ثابتا ، فكانوا اذا ساروا للقتال نزعـوا ذلك القصب وحزموه حتى يرجعوا من القتال ، فاذا رجعوا أعادوا بناءه(٤٦) ·

كما قام عتبة ببناء دار الامارة ، يذكر البلاذري ان عتبة « بنى دار الامارة دون المسجد في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بني هاشم وكانت تسمى الدهناء ، وفيها السجن والديوان »(٤٧) ·

امارته ووفاته :

دامت امارة عتبر بن غزوان على البصرة سـتة أشهر(٤٨) ، يفقـه الناس في دينهم ، ويحكم فيهم بالعدل ، ويضرب لهم أروع مثل في الزهد والورع والبساطة ، وقد أكد تلك القيم في خطبته التي قال فيها « الحمد لله ، أحمده واستعينه ، واؤمن به واتوكل عليه ، واشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، أما بعد ايها الناس ، فان الدنيا قـد

ولت حذاء ، وآذنت أهلها بوداع ، فلم يبق منها الا صبابة كصبابة الاناء ، الا وانكم ناركوها لا محالة ، فاتركوها بخير ما بحضرتكم ، الا وان من العجب ان يؤتى بالحجر الضخم فيلقى من شفير جهنم فيلق سبعين عاما حتى يبلغ قعرها . والله لتملأن ، الا وان من العجب ان للجنة سبعة أبواب ، عرض ما بين جانبي الباب مسيرة خمسين عاما ، وأيم الله لتأتين عليها ساعة وهي كظيظة من الزحام ، ولقد رأيتني مع رسول الله (ص) سابع سبعة ما لنا من طعام الا ورق البشام وشوك القتاد ، حتى قرحت أشداقنا ، ولقد التقطت بردة يومئذ فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص ، ولقد رأيتنا بعد ذلك وما منا ايها الرهط السبعة الا أمير على مصر من الامصار ، ... وأعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وفي أنفس الناس صغيرا ، وستجربون الامراء بعدنا وتجربون فتعرفون وتنكرون »(٤٩) .

وفي موسم حج سنة ١٥هـ ، استأذن القائد عتبة بن غزوان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في تأدية فريضة الحج ، فأذن له الخليفة ، وبعد إتمام مراسيم الحج طلب من الخليفة عمر (رض) أن يعفيه من الامارة ، ولكن عمر لم يكن يفرط في هذا الطراز من الرجال فلم يوافق ، وطلب من عتبة الالتحاق بأمارته ، ولم يكن في وسع عتبر الا الطاعة ، وفي طريق عودته الى البصرة توفي في معدن بني سليم سنة ١٥هـ(٥٠) ، وكان عمره يومئذ سبع وخمسين سنة(٥١) . وهكذا انتهت حياة الصحابي الجليل عتبة بن غزوان ، بعد ما أعطى الكثير وبذل الكثير من أجل العقيدة وتحرير الارض العربية ، وضرب أروع الامثلة في الزهد والعفة .

الخاتمــة

لقد تضمنت صفحات البحث سيرة صحابي جليل وبطل من ابطال العروبة والاسلام ، وهو عتبة بن غزوان المازني .

لقـد كان الصحابي عتبـة نموذجا للرجال الابطـال الذين أنجبتهم الامة العربية والذين جاهدوا في سبيل نشـر العقيدة ، وتحـرير الارض العربية من الاحتلال الفارسي ، كما كانت حياته نموذجا للعفة والمبدئية ، وعتبة من السابقين الاولين ، فهو سابع سبعة في اسلامه من الرجال ، وكان صادقا في ايمانه ، تحمل أذى المشركين في مكة ، وهاجر الى الحبشة، ثم عاد الى مكة وهاجر الى المدينة مع بقية المسلمين . كان عتبة مقـاتلا شجاعا ، وهو من الرماة المعروفين واشترك في جميع المعارك التي خاضها الرسول (ص) ضد المشركين ، وقد وصفته المصادر بأنه « بدري أحدي » .

قاد عتبة المقاتلين العرب المسلمين الذين خرجوا من جزيرة العرب نحو العراق لتحرير البصرة وما حولها من الاحتلال الفارسي ، ومنع الفرس من ارسال امدادات عسكرية من هذه المناطق الى قواتهم في المدائن . وقد تمكن عتبـة ان ينتصر على الفرس في عـدة معارك ، وحرر الأبلة والفرات والاحواز . ومن أعماله الخالدة تأسيس مدينة البصرة .

لم يكن عتبة راغبا في الامارة ، وعندما أكمل مراسيم الحج سـنة ١٥هـ طلب من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أن يعفيه من امارة البصرة الا ان الخليفة عمر (رض) لم يكن يفرط في هذا الطراز من الرجال فلم يوافق ، فما كان من عتبة الا الطاعة ، وفي طريق العودة من المدينة الى البصرة توفي عتبة وكان عمره يومئذ سبع وخمسين سنة .

أن سيرة الصحابي عتبـة بن غزوان مليئة بالقيم العظيمة ، قيم البطولة والفداء من أجل العروبة والاسلام ، وقيم العفة والمدنية ونكران الذات .

الهوامش

(١) ابن الكلبي / جمهرة النسب / ٣٩٤ ، ابن هشام / السيرة / ١٠٧/١ ، ابن سعد / الطبقات / ٥/٧ ، الطبراني / المعجم الكبير / ١٠٦/١٧ ، البلاذري / فتوح البلدان / ٤٧٦ ، ابن حزم / جمهرة انساب العرب / ٢٦٠ ، ابن عبدالبر / الاستيعاب في معرفة الاصحاب / ١١٣/٣ ، ابن الاثير / أسد الغابة في معرفة الصحابة / ٥٦٥/٣ ، ابن حجر العسقلاني / الاصابة في تمييز الصحابة / ٤٥٥/٢ ، تهذيب التهذيب / ١٠٠/٧ ٠

(٢) خليفة بن خياط / تاريخ خليفة / ٢٦/١ ، الاستيعاب / ١١٣/٣ ، اسد الغابة / ٥٦٦/٣ ، الاصابة / ٤٥٥/٢ ، تهذيب التهذيب / ١٠٠/٧ ٠

(٣) ابن سعد / ٥/٧ ، الاستيعاب / ١١٣/٣ ، ابن الاثير / اللباب في تهذيب الانساب / ٣٢٠/٢ وبعضهم يكنيه بأبي غزوان ٠

(٤) ابن سعد / ٥/٧ ، انظر الطبراني / ١٠٦/١٧ ٠

(٥) ابن هشام / ١٠٧/٣ ، ابن سعد / ٥/٧ ، الطبراني / ١٠٧/١٧ ، الاستيعاب / ١١٣/٣ ، اسد الغابة / ٥٦٥/٣ ، ابن كثير / البداية والنهاية / ٦٨/٢ ، الاصابة / ٤٥٥/٢ ، ابن خلدون / تاريخ ابن خلدون / ٦٣٥/٢ ٠

(٦) ابن سعد / ٥/٧ ٠

(٧) الاصابة / ٤٥٥/٢ ٠

(٨) البداية والنهاية / ٥٤/٤ ٠

(٩) ابن هشام / ١٠٧/٣ ، ابن سعد / ٥/٧ ، الاصابة / ٤٥٥/٢ ٠

(١٠) الاستيعاب / ١١٣/٣ ٠

(١١) ابن هشام / ٣٦٥/١ ، الازرقي / أخبار مكة / ٢٤٥/٢ ، ابن دريد / الاشتقاق / ٣١١ ، الاستيعاب / ١١٤/٣ ، اسد الغابة / ٥٦٥/٣ ، ابن سيد الناس / عيون الاثر / ١٤٥/١ ، ابن كثير / ٣٢٠/٢ ، الاصابة / ٤٥٥/٢ ٠

(١٢) ابن هشام / ٤٧٩/١ ٠

(١٣) ابن حبيب / المحبر / ٧٢ ، ابن سيد الناس / عيون الاثر / ٢٤٤/١ ٠

(١٤) ابن حزم / جمهرة انساب العرب / ٢٦٠ ٠

(١٥) الواقدي / المغازي / ٢٤٣/١ ٠

(١٦) البلاذري / فتوح البلدان / ٤٧٥ ، انظر الطبري / ٥٩٣/٣ ٠

(١٧) الطبري / ٥٩٣/٣ ٠

(١٨) الطبري / ٥٩٣/٣ ٠

(١٩) خليفة بن خياط / تاريخ خليفة / ٩٥/١ ، الطبري / ٥٩٣/٣ ٠

(٢٠) الطبري / ٥٩٠/٣ ، انظر فتوح البلدان / ٣٤٦ ، المسعودي / التنبيه والاشراف / ٣٥٧ ، مروج الذهب / ٢٢٨/٣ ، الاستيعاب / ٥٠٢/٢ ٠

(٢١) الطبري / ٥٩٠/٣ـ٥٩١ ٠

(٢٢) الطبري / ٥٩٣/٣ـ٥٩٤ ٠

(٢٣) ابن سعد / ٧/٧ ، البلاذري / فتوح البلدان / ٤٧٨ ٠

(٢٤) الطبري / ٥٩١/٣ ٠

(٢٥) ن٠م٠ / ٣/٥٩٤ ٠

(٢٦) ابن سعد / ٧/٧ ٠

(٢٧) فتوح البلدان / ٤٧٦ ٠

(٢٨) الطبري / ٣/٥٩٤ ٠

(٢٩) خليفة بن خياط / تريخ خليفة / ١/٩٦-٩٧ ، فتوح البلدان / ٤٧٧ ، الطبري / ٣/٥٩٤ ٠

(٣٠) الطبري / ٣/٥٩٥ ٠

(٣١) ابن سعد / ٧/٧ ، فتوح البلدان / ٤٧٨ ، الطبري / ٣/٥٩٥ ٠

(٣٢) انظر : اليعقوبي / البلدان / ٢٣٥ ، الاصطخري / مسالك الممالك / ٨٠ ، ابن حوقل / صورة الارض / ٢١٢ ، المقدسي / احسن التقاسيم / ١١٧ ٠

(٣٣) الطبري / ٣/٥٩٢ ٠

(٣٤) ن٠م٠ / ٣/٥٩٢-٥٩٣ ٠

(٣٥) فتوح البلدان / ٤٧٦ ، انظر ياقوت / معجم البلدان / ١/٦٣٩ ٠

(٣٦) فتوح البلدان / ٤٧٨ ، انظر ابن الفقيه / البلدان / ١٨٨ ، ياقوت / معجم البلدان / ١/٦٤١ ٠

(٣٧) تاريخ خليفة / ١/٩٧ ٠

(٣٨) الطبري / ٣/٥٩٤ ٠

(٣٩) فتوح البلدان / ٤٨٣-٤٨٤ ، انظر ياقوت / ١/٦٤ ٠

(٤٠) خليفة بن خياط / ١/٩٧ ٠

(٤١) صالح العلي / خطط البصرة ومنطقتها / ٤٦ ٠

(٤٢) فتوح البلدان / ٤٧٩ ٠

(٤٣) فتوح البلدان / ٤٨٣ ٠

(٤٤) فتوح البلدان / ٤٨٩ ٠

(٤٥) العلي / خطط البصرة ومنطقتها / ٦٤ ٠

(٤٦) فتوح البلدان / ٤٨٤ ٠

(٤٧) فتوح البلدان / ٤٨٣ـ٤٨٤ ٠

(٤٨) ابن سعد / ٧/٨ ٠

(٤٩) ابن سعد / ٧/٦ـ٧ ٠

(٥٠) الطبري / ٣/٤٧٨ ، ابن خلدون / ٤/٩٤٣ ٠

(٥١) ابن سعد / ٧/٨ ٠

المصـــادر :

ابن الاثير : أبو الحسن عزالدين علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)
أسد الغابة في معرفة الصحابة
اللباب في تهذيب الانساب

الأزرقي : محمد بن عبدالله (ت نحو ٢٥٠هـ)
أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار

الاصطخري : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ)
مسالك الممالك

البلاذري : أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)
فتوح البلدان

ابن حبيب : أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥هـ)
المحبر

ابن حزم : أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦هـ)
جمهرة أنساب العرب

ابن حوقل : أبو القاسم ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ)
صورة الارض

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر

ابن خياط : خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)

تاريخ خليفة بن خياط

دحلان : أحمد زيني (ت ١٣٠٤هـ)

السيرة النبوية والاثار المحمدية

ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ)

الاشتقاق

ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠هـ)

الطبقات والسير

ابن سيد الناس : محمد بن محمد (ت ٧٣٤هـ)

عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير

الطبراني : سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ)

المعجم الكبير

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

تاريخ الرسل والملوك

ابن عبدالبر : أبو عمر يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣هـ)

الاستيعاب في معرفة الاصحاب

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)

العقد الفريد

العسقلاني : شهاب‌الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)

الاصابة في تمييز الصحابة
تهذيب التهذيب

العلي : صالح أحمد
خطط البصرة ومنطقتها

القلقشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)
نهاية الارب في معرفة أنساب العرب

ابن كثير : عمادالدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية

ابن الكلبي : هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ)
جمهرة النسب

المسعودي : علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر

التنبيه والاشراف

مصعب الزبيري : أبو عبدالله مصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـ)
نسب قريش

المقدسي : شمس‌الدين أبو عبيدالله محمد (ت ٣٧٥هـ)
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

النويري : أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ)

نهاية الارب في فنون الادب

ابن هشام : أبو محمد عبدالملك (ت ٢١٨هـ)

السيرة النبوية

الواقدي : أبو محمد الحسن بن أحمد (ت ٢٠٧هـ)

المغـازي

ياقوت : شهاب‌الدين أبو عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ)

معجم البلدان

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ)

البلدان

الهوامش :

(1) Shannon, C.. The Crisis of Imperialism 1865-1915,

وعن حادثة فاشوده انظر :

(London. 1975), p. 339;
Sanderson, G.N.. England, Europe and the Upper Nile 1882-1899 (Edinburgh University press, 1965), pp. 332-380; Brown, R. N., Fashoda Reconsidered: The Impact of Domestic Politices on French Pohcy in Africa 1893-1898, (Baltimore. 1970).

(2) Bulow, Prince Bemhard von, Imperial Germany, translated by M. A. Lewnez, (London, 1914), p. 87.

(3) Seton-Watson, H., The Russian Empire 1801-1917. (Oxford Umversity Press, 1967), p. 578.

(4) Albertini, L., The Origins of the war 1914, transl atel and edited by I. M. Massey, Vol. I, (Oxford University press, 1965), pp. 102-7, 127-32.

(5) Stieve. F., Germany and Europe, (London, 1928), pp. 54-5.

(6) Langer, W.L., The Diplomacy of Imperialism 1890-1902, (New York, 1960), pp. 582-3.

(٧) عن الجذور التأريخية لامتياز مشروع سكة حديد برلين – بغداد انظر : العامر ، د. يقظان سعدون ، الاتصالات الالمانية ـ العثمانية

بشأن الحصول على امتياز مد سكة حديد برلين – بغداد ١٨٨٠ – ١٨٨٢ ، المؤرخ العربي ، ١٩٨٩ ، العدد ٣٩ ، ص ٩٣ – ١٠٠ .

(8) Seton-Watson, Op. Cit., p. 578.

(9) Rolo, P.J.V.. Entente Cordile, (Glasgow University press, 1969), pp. 120-1.

(10) Nish, I.A., The Anglo-Japanese Auiance, The Diplomacy of Two Islands Empires 1894-1907, (Connecticut, 1976), pp. 216-8.

(11) Monger, G., The End of Isolation: British Foreign Policy 1900-1907, (London, 1963), p. 72.

(12) Nish, Op. Cit., pp. 321-2.

(13) Taylor, A.J.P, The Struggle for Mastery in Europe 1848-1918 (Oxford University press, 1954), p. 400.

(14) Nish, Op. Cit., p. 232.

(15) Quoted in Seton-Watson, op. cit., p. 586.

(16) Geiss, I., German Foreign Policy, (London, 1976), p. 97.

(17) Seton-Watson, op. cit., p. 587.

(18) Geiss, op. cit., p. 97.

(19) Ibid., p. 96.

(20) Balfour M., The Kaiser and His Time, (London, 1964). p. 241.

(21) Rolo, op. cit., p. 121.

(22) Fleming, D.F., The Origins and Legacies of World war I, (London, 1969), p. 80.

(23) Rolo, op. cit., p. 121.

(24) Balfour, op. cit., pp. 241, 246.

(25) Seton-Watson, op. cit, p. 286.

(26) Rolo, op. cit., p. 121.

(27) Fleming, op. cit., p. 80.

(28) Steinberg, J., Germany and the Russo-Japanese War, American Historical Review, vol. LXXV, December, 1970, p. 1967.

(29) Quoted in Bulow, op, cit., p. 44.

(30) Ludwig, E., Kaiser Wilhelm II, translated by E.C. Mayne, (London, 1928), p. 225.

(31) Quoted in Seton-Watson, op. cit., p. 586.

British Foreign Policy 1879-1902, (London, 1967), p. 241.

(33) Ibid., pp. 239-241.

(32) Lowe, C.J., The Reluctant Imperialits, vol. I,

(34) Ibid., p. 243.

(35) Taylor, op. cit., p. 404.

(36) Quoted in Pribram, A. F., England and the

Internatoicl (Oxford University press, 1971),
p. 92.

(37) Stieve, op. cit., p. 72.

(38) Taylor, op. cit., p. 403.

(39) Pribram, op. cit., p. 92.

(40) Rolo, op. cit., p. 121-3.

(41) Taylor, op. cit., p. 404.

(42) Rolo, op. cit., p. 122.

(43) Pribram, op. cit., p. 94...

(44) Jelavich, B., St. Petersburg and Moscow: Tsarist and Soviet Foreign Policy 1814-1974 (Indiana University Press, 1974), p. 243.

(45) Seton-Watson, op. cit., p. 587.

(46) Nish, op. cit., p. 238.

(47) Geiss, op. cit., p. 98.
Rolo, op. cit., Chps. 7-12;

(٤٨) للمزيد من التفاصيل عن سير المباحثات انظر :
فارس ، محمـد خيري ، المسألة المغربية (بيروت ، ١٩٨٠) ص ١٧٤ ـ ١٩٨ .

(49) Charques, R., The Twilight of Imperial Russia, (Oxford University Press, 1969), p. 91.

(50) Seton-Watson, op. cit., p. 589.

(51) Pares, Sis B., A History of Russia, (London, 1962). p. 487.

(52) Lowe and Dockrill, The Miroge of Power, Vol. I, British Foreign Policy 1902-1914, (London, 1972), pp. 5-7.

(53) Collins, D.N., The Franco-Russian Alliance and Russian Railways 1891-1914, The Historical Journal, Vol. XVI, 4, 1973, p. 784.
Seton-Watson, op. cit., pp. 588-9.

(٥٤) ترى بعض الدراسات ان تاثير هذه الجماعة مبالغ فيه ٠ انظر :

(55) Jelavich, op. cit., p. 243.

(56) Charques, op. cit., p. 96.

(57) Ibid., p. 91.

(58) Geiss, op. cit., p. 97.

(59) Steinberg, op. cit., p. 1967.

(60) Geiss, op. cit., p. 97.

(61) Bulow, op. cit., pp. 43-44.

(62) Steinberg, op. cit., p. 1967.

(63) Albertin, op. cit., vol. I, p. 151,

(64) Steinberg, op. cit., pp. 1969-70.

(65) Ludwig, op. cit., p. 226.

(66) Oppel, B.F., The Waning of a Traditional Alliance:

Russia and Germasy after the Portsmouth peace ConConference, Central European History, vol. S, 1972, pp. 319-20.

(67) Dugdale, E.T., TheGerman Diplomatic Documents, vol. III, (London, 1969), p. 180. Hereafter will be cited as G.D.D. I

(68) Memorandum by the Chancellor Court von Bulow, 14 February 1904, G.D.D., pp. 180-1,

(69) Oppel, op. cit., p. 319.

(70) Steinberg, op. cit., p. 1970,

وللتفاصيل عن سير المعارك انظر :

Seton-Watson, op.cit., p. 591-3,

(72) Steinberg, op. cit., p. 1972.

(73) Lowe and Dockrill, op. cit, vol. I, p. 8,

(74) Balfour, op.cit., pp. 246-7,

(75) Balfour to Spencer Wilkinson, 3 January 1903. quoted in Lowe and Dockrill, op. cit., p. 7.

(76) Anderson, MflS., The Ascendency of Europe 1815-1914, Aspects of European History, (London, 1972), p. 29.

(77) Lowe and Dockrill, op. cit., vil. I, p, 7.

(78) Carr, W., A History of Germany 1815-1914, (London. 1969), p. 244.

(79) Fischer, F., War of Illusions: German policies from 1911-1914, translated by M. Jacksom, (London. 1975), p. 75.

(80) Berghahn, V.R., Germany and the Approach of war in 1914 (London, 1973), p. 46.

(81) Anderson, op. cit., p. 57.

(82) Pribram, op. cit., p. 100.

(83) Albertini, op. cit., vol. I, p. 149.

(84) Hale, O.J., The Great Illusion 1900-1914. (New York, 1971), p. 242.

(85) Quoted in Taylor, op. cit., p. 420.

(96) Albertini, op. cit., vol. I, p. 151.

(87) Fischer, op. cit., pp. 53-4.

(88) Albertini, op. cit., vol. I, p. 150.

(89) Quoted in Steinberg. op. cit., p. 1973.

(90) Taylor, op.cit., p. 421.

(19) Albertini, op. cit,, vol. I, p. 151.

(92) Aronson, T., The Kaisers, (London. 1973) p. 238.

(93) Long, J., France-Russian Relations during the Rsso-Japanese war. Slavoric and East European

Review, vol. 25, 1974, pp. 214-6.

(94) Collins, op. cit., pp. 783-4.

كان هناك خلاف بين وزارة المالية الروسية ورئاسة الاركان الروسية حول استخدام مبالغ القروض . فالاولى كانت تريد استخدام ولو جزء منها في المشاريع الاقتصادية ، بينما كانت الثانية تريد استخدامها في المشاريع العسكرية وبخاصة في مد سكك حديد استراتيجية . لذلك كانت وجهة نظر الملحق العسكري الفرنسي في العاصمة الروسية هي عدم منح روسيا القروض في حالة اصرار وزارة المالية الروسية على موقفها .

Ibid., p. 785.

(95) Long, op. cit., pp. 215-8.

(96) Ibid., p. 219.

(97) Ibid., pp. 219-20.

(98) Quoted in Ibid., p. 221.

(99) Berghahn, op. cit., p. 46.

(100) Ludwig, op. cit., p. 225.

(101) Long, op. cit., pp. 221-2.

وللتفاصيل انظر :

Long, J., Manipulation of he French press, 1904-1906, Slauic Reuiew, Vol. XXXI, No. 2, June 1972, pp. 343-54.

(102) Long, Franco-Russian Relations, pp. 218-9.

(103) Carr, op. cit., p. 224.

(104) Feis, H., Europe, The world's Banker 1870-1914, (New York, 1965), pp. 226-7.

(105) Oppel, op. cit., p. 319.

(106) Charques, op. cit., p. 187.

(107) Monger, G.W., The End of Isolation, (London, 1968), p. 165.

(108) Bulow, op. cit., p. 234; Long, France-Russian Relation, p. 220.

(109) Padfield, p., The Great Naval Race, Anglo-German Naval Rivalry 1900-1914, (London, 1974), p. 119.

(110) Steinberg, op. cit., p. 1975.

(111) Ibid.

(112) Bernstein, H., The Willy-Nicky Correspondence, (New York, 1918), p. 112.

(113) Steinberg, op. cit., p. 1971.

(114) Ludwing, op. cit., p. 225; Steinberg, op. cit., p. 1971.

(115) Willy to Nicky, Neues Palais, 14 October (27 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 68-70.

(116) Willy to Nicky, Hubertustock, 25 September (8 October) 1904, Ibid., pp. 56-9.

(117) Ibid.

(118) Steinberg, op. cit., pp. 1971-2.

(119) Ibid., p. 1975.

(120) Long, France-Russian Relations, p. 223.

(121) Monger, op. cit., p. 165; Steinberg, Op. cit., pp. 1975-6.

(122) Willy to Nicky, Neues Palais, 2 November (15 November) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 77-8; Willy to Nicky, Neues Palais, 6 November (19 November) 1904, Ibid., pp. 78-82.

وللتفاصيل عن جذور النزاع البريطاني ـ الروسي في آسيا الوسطى انظر : العامر ، د. يقظان سعدون ، محاولات بريطانيا اشراك المانيا في مشاكلها الاستعمارية في آسيا الوسطى ١٨٨٥ ، المؤرخ العربي ، ١٩٨٩ ، العدد ٣٤ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٨ . وللباحث دراسة بعنوان « النزاع البريطاني ـ الروسي على الحدود الافغانية وموقف المانيا منه شباط ـ نيسان ١٨٨٥ » سينشر في مجلة المؤرخ العربي في عدد لاحق .

(123) Bernstein, op. cit., p. 20,

(124) Count von Metternich to the German Foreign Office, London, 13 october 1914, G.D.D., Vol. III, p. 182.

(125) Bernstein, op. cit., p. 72; Marder, A.J., The Anatomy of Bntish Sea Power, A History of British Naval Policy in the Pre-Dreadnought Era

1880-1905, (London, 1972), pp 439-40.

(126) Willy to Nicky, Neues Palais, 14 October (27 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 68-71.

(127) Nicky to Willy, Tzarskoe Selo, 16 October (28 October) 1904, Ibid., pp. 73-5.

(128) Quoted in Balfour, op. cit., p. 249,

(129) Bernstein, op. cit., pp. 15-6.

(130) Balfour, op. cit., p. 249.

(131) Willy to Nicky, Neues Palais, 8 Octoben (19 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 61-2.

(132) Nicky to Willy, Tzarskoe Selo, 10 October (23 October) 1004, Ibid., pp. 66-7.

(133) Willy to Nicky, Neues Palais, 17 october (30 october) 1904, Ibid., p. 76.

(134) Willy to Nicky, Neues Palais, 2 Nouember (15 November) 1904, Ibid., pp. 77-8.

(135) Willy to Nicky, Neues Palais, 6 November (19 November) 1904, Ibid., pp. 78-81.

(136 Balfour, op. cit., p. 249.

(137) Mbertini, op. cit., vol. I, p. 152.

(138) Stieue, op. cit., p. 76.

(139) Nicky to willy Txarskoe Selo, 10 November (23 November) 1904, Bernstein, op. cit., p. 83.

(140) The Emperor William to the Chencellor Count von Bulow, 28 Dececber 1904, G.D.D., vol. III, p. 184.

(141) Stieve, op. cit., p. 76; Pribram, op. cit., p, 101,

(142) Nicky to Willy, Tzarskoe Selo, 16 October (28 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 73-5.

(143) Count Von Metternich to the German Foreign Offive, London, 27 october 1903, G.D.D., vol. III, p. 183.

(144) Willy to Nicky, Moschen b. Kujau, 13 November (26 Novemben) 1904, Bernstein, op., pp. 85-2.

(142) Steinberg, op. cit., p. 1981.

(146) Jelavich, op. cit., p. 253.

(147) The Emperor William to the Chancellor von Bulow, 28 December 1904, G.D.D., vol. III, p. 184.

(148) Taylor, op. cit., pp. 422-3; Albrecht-Carrie, A Diplomatic History of)urope Since the Congress of Vienna, (London, 1970). p. 246.

(149) Taylor, A.J.P., Europe. Grandeur and Decline (Penguim Books, 1967), p. 145.

(150) Berghahn, op.cit., p. 50.

(151) Kennedy, P.M., The Development of Germen Navol Operations Plans against Englanl 1896-1914, English Historical Review, vol. 89, Januery 1974, p. 60.

(125) Tirpitz to Richthfen. I November 1914, qusted in Steinberg. op. cit., p. 1977; Padfield, op. cit., p, 120,

(153) Oppel, op. cit., pp. 319-20.

(154) G.D.D., vol. III, p. 182; Monger, op. cit, p, 172,

(155) Padfield, op. cit., pp. 121-2.

(156) Quited in Ibid., p. 119.

(157) Metternich to Bulow, I November 1904, quoted in Steinbery, op. cit., p. 1978.

(158) Pribram, op. cit., p. 100.

(159) Metternich to Bulow, I November 1904, yuoted in Steinbearg, op. cit., p. 1978.

(160) Steinberg, J., The Copenhagen Complex, Journal of Contempirary History, vil. I, No. 3, 1966, pp. 31-40.

(161) Monger, op. cit., p. 176.

(162) Balfour, op. cit., p. 251.

(163) Kennedy, op. cit., pp. 95-6; Stinberg, Germany

and the Russo-Japanese war, pp. 1978-1881.

(164) Quoted in Monger, op. cit., p. 177.

(165) Bulow to Holstein, 13 December 1904, quoted in Steinberg, Germeny and the Russo-Japanese war, pp. 1981-2.

(166) Ibid., pp. 1982, 1985.

(167) Bernstein, op. cit., p. 112.

(168) Nicley to Wolly, Tzarskoe Selo, 28 Nouember (11 December) 1904, Ibid, pp. 24-5; Nicley to willy, Tzarskoe Sels. 29 Nouember (12 December) 1904, Ibid., p. 96.

(169) Willy to Nicky, Neues Palais, 27 November (10 December) 1904, Ibid., p. 90.

(170) Willy to Nichy (No Place, no date), Ibid., pp. 96-8.

(171) Nichy to Willy (No place, no date) Ibid., pp. 99-100.

(172) Willy to Nichy, Borlin, 2 February (15 February) 1905, Ibid., pp. 100-101.

(173) Steinbary, Dermany and the Russo-Japanese War, pp. 1982-3.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٣٦ لسنة ١٩٩٠

سعر النسخة ديناران

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان